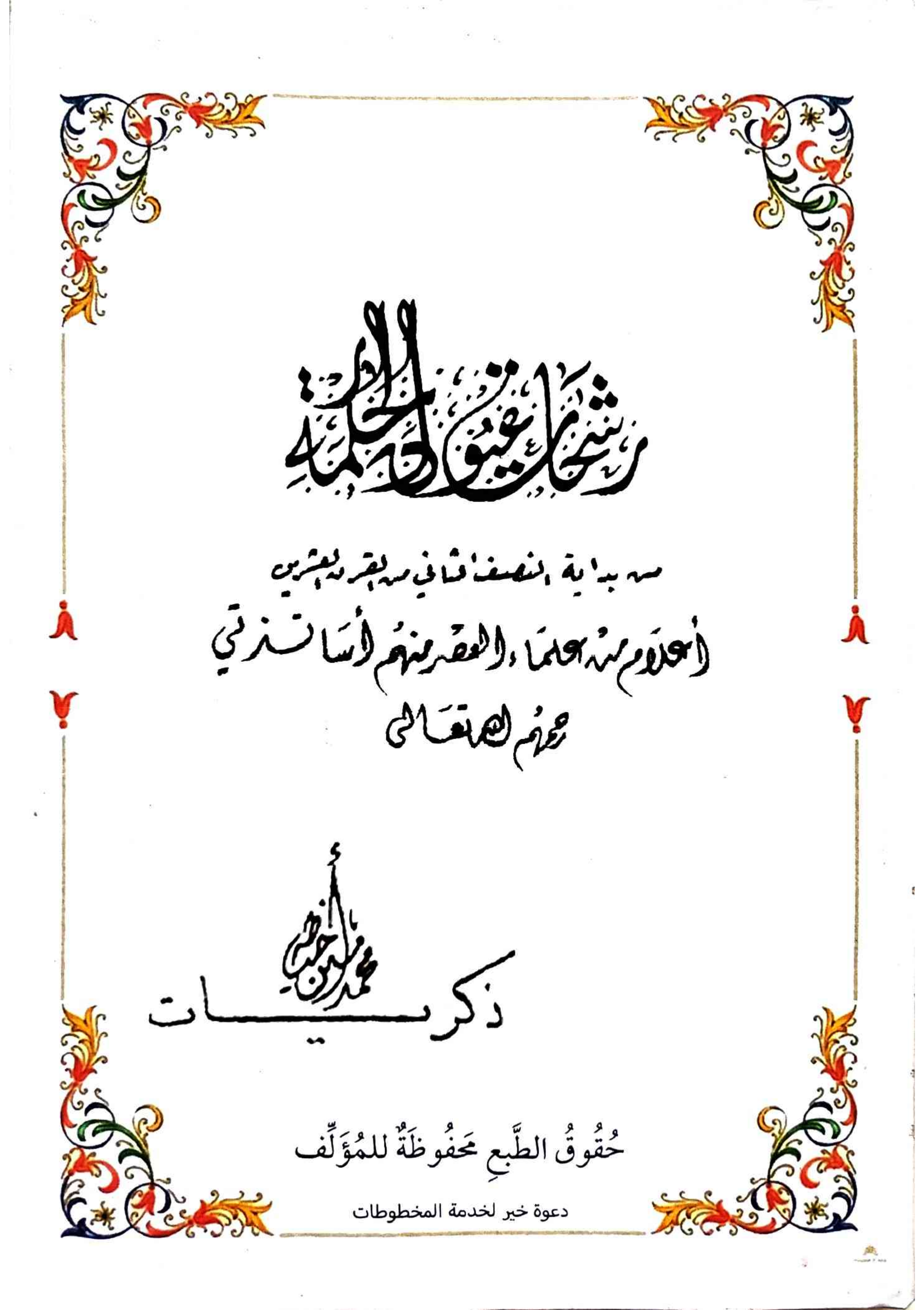


رشحات غبوق الحكمة

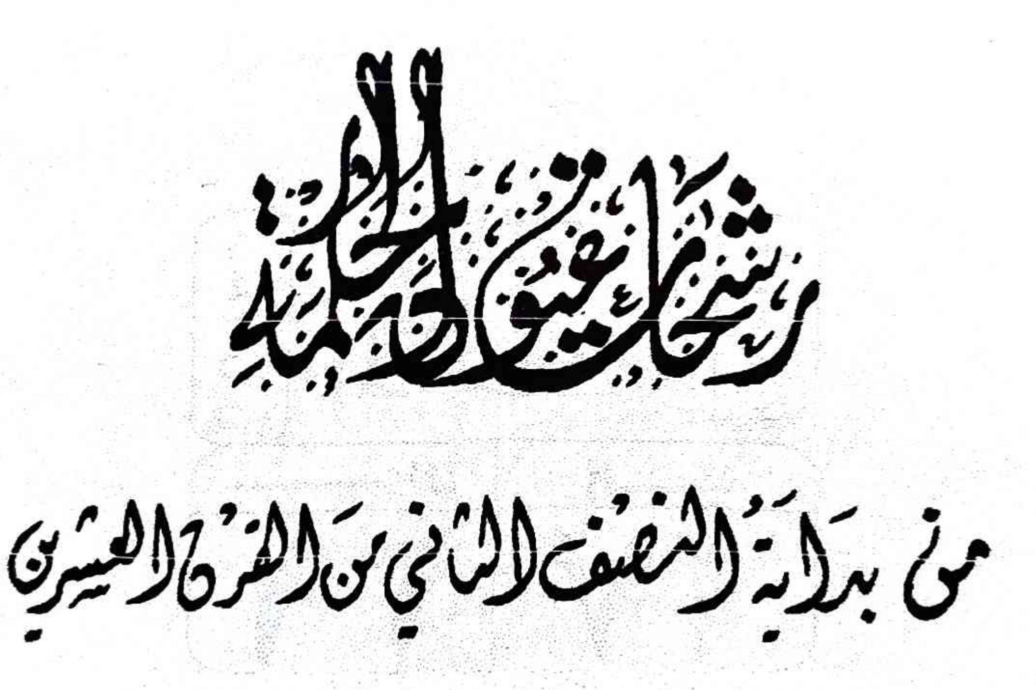
من بداية النصف الثاني من القرن العشرين

أعلام من علماء العصر منهم أساتذتي

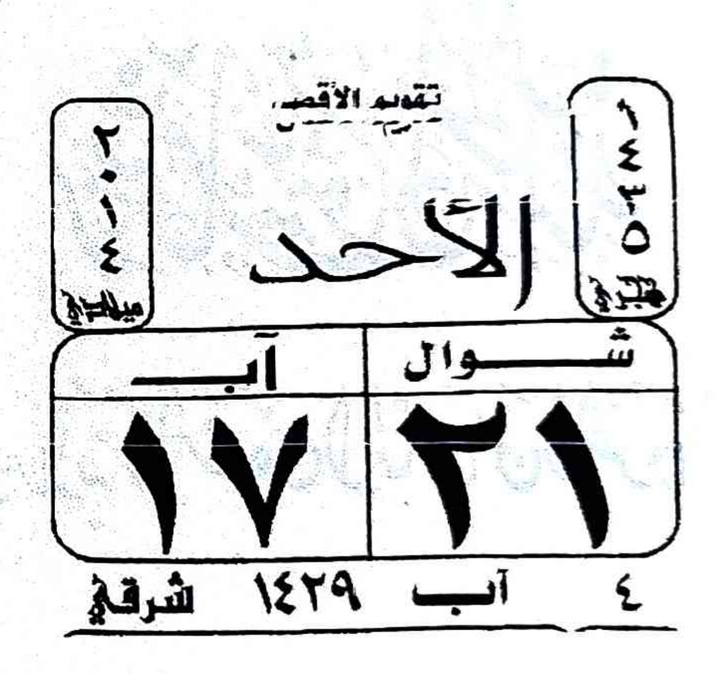
رحمهم الله تعالى

محمد أمين خضر

ذكريات



محمد أمين خياطة



تقويم الأقصى
١٤٣٥
هجري
٢٠١٤
ميلادي
الأحد
شوال
٢١
آب
١٧
٤ آب ١٤٢٩ شرقي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله يؤتي الحكمة من يشاء والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وكرّم ومجّد وبعد:

فإن ألطاف ربي تتوالى وتترا على مر الأيام عصراً فعصراً فكما جعل الهداية بالأنبياء والمرسلين أتحفنا بورثتهم من العلماء العاملين وكما جعل نبيه سراجاً منيراً آتاهم الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وكان لعيون الحكمة فيهم رشحات ولأسرار الأحوال نفحات ولمراتب العلم درجات ولمنهج السلوك آيات بينات ومن نال شرف صحبتهم في دنياه دلوه على ما فيه سعادته في دنياه وأخراه فهم عيون الحكمة ورشحاتهم أكبر نعمة فعلينا مغفرة الله وعليهم رضوان الله وعلى السيد الأعظم وآله وصحبه صلى الله .

محمد أمين

بسم الله الرحمن الرحيم

واحدة أو أكثر من الرشحات العذبة إن في العلم أو في السلوك أو في العلم أو هي في النصيحة أو غيرها وإنها هي الحكمة التي طالما أحببنا تلقفها عن الراحلين الكبار الذين تحققوا بمحاصيلهم وكانوا أكبر من الأساتذة إذ كانوا المربين بتوجيههم وسلوكهم ونصحهم إنهم الآباء الروحيون الأكثر إخلاصاً والأكثر أماناً فلا تسل كم تركوا من عبارة نستروح منها النسائم العطرة نستذكر في كل آن ما فيها من عظة وعبرة كيف لا وقد قص علينا سبحانه وقائع الغابرين فقال: لقد كان في قصصهم عبرة.. ونحن نذكر أفاضل ممن عرفنا وصحبنا وبهم اجتمعنا ومنهم استمعنا وتعلمنا وما فتئت أرواحهم الطاهرة تحف بنا وترفرف فوقنا وما تزال عظاتهم وحكمهم تتجلى أمامنا فنذكر من لطائفها ما يكون لطرف الحديث هدفاً تستزيد الأسماع منه رفداً وتتشوق للاغتراف من معينه ورداً وفي واحدة من هاتيك اللمحات قال الشيخ عمر قباوة في معرض مجلسنا العلمي حبذا لو دونت نوادرهم فأمور كهذه جديرة بأن تحضن في أكناف كتاب يحفظها وأهلها وهي عرائس المجالس

تقديم

ولها القدح المعلى على كل منافس .

قلت في نفسي إنهم ليستحقون من التجلة ما هو أكثر ومن ذا يفي مربي الروح حقه؟ لذلك أدعو الله دائماً أن يجزيهم عنا خير الجزاء فإنه وحده الذي يعلم إخلاصهم وتفانيهم وصدقهم وهو وحده بفضله يوفيهم أجرهم غير منقوص وإن الشيخ عمر - جزاه الله خيراً - حفز وفائي الصادق لهم بأن ذكرني بما لا ينبغي أن يغيب عن ذهني سيما أنها من أحسن القصص .

وقلت أيضاً فإذا عزمت فتوكل على الله وبت ابحث عن منهج سرعان ما هداني الله إليه في قوله : لقد كان في قصصهم عبرة فقلت أذكر لواحدة من المرشحات ثم أتبعها بالعبرة حكماً شرعياً كان أو سلوكاً أو منهجاً أو نصيحة وسبحانه تعالى شرح لي صدري ويسر لي أمري بأن هداني لهذا المنهج فرأيت ذكر قصصهم متفرقة .. يجمعها فهرس أسمائهم وكلما كتبت قصة ذهبت برقم صفحتها إلى جانب اسمها في الفهرس أو إلى جانب كل واحد منهم إن كانوا أكثر ولابد لهذا الباب أن تعبره بعض الأسماء

تقديم

وفي هذا شرف لهم وقد قدمت نبذة عمن أناس شرفهم الله بمهنة التعليم وتوج لهم هذا الشرف بتعليم القرآن الكريم وهو المعروف عندنا باسم (الشيخ والخوجة) أي (الكُتَّاب) ولم أتوخَّ التقصي في هذا الجانب فقد اقتصرت على ذكر من تذكرت ممن عرفت .

على هذا عقدت العزم بعد الاتكال على الله الهادي إلى طريق الحق الموفق للصواب .

النُّور

النور زقاق عندنا في حطه فيحتة ويسرة فهو قصير الامتداد إلا على سور المدينة الجنوبي ومنفتح على البلقة[1] (التي صارت في آخر الخمسينات مدرسة الوحدة العربية) في حي الجلوم الصغرى .

في زقاق النور أبصرت النور في دار جدي التي

---

١ - البلقة : إسم للساحة أو الخبرة التي تصنع فيها الحبال .

كانت واحدة من الدور العشرة في هذا الزقاق كانت قبة المسجد أمام دارنا وصوت إمامه الشيخ محمد المسيض يصدح بالأذان في الأوقات الجهرية وهو صاحب أحد البيوت في الزقاق وللعجب فالدار التي تليه بيت الشيخ عبد الوهاب المصري الحافظ المقرئ وبجوار المسجد تماماً بيت الشيخ محمد رشيد فقيه الحنفية ثم هو بيت ابن الشيخ محمد محمد رشيد وأمامه أي بجوار بيتنا دار الشيخ حسن مصري وابن عمه الشيخ محمد المصري وفي دار مهدي أبناؤه الثلاثة الشيخ نجيب والشيخ عمر والشيخ عبد الرحمن خياط .

أي نور اجتمع في هذا الزقاق بعشر من بيوته العشرة جمعت هذا الزخم من العلماء والحفاظ والقراء هؤلاء الملئ الذين تحدرت منهم وقرابتي وجيرتي الذين بينهم نشأت وترعرعت ومن هذا الزقاق يوماً ذهبت إلى الثانوية الشرعية بعد أن كنت أختلف على مكاتب القرآن الكريم وحفظه في فترات العطل المختلفة فرأيت فيها أفاضل أهل العلم والفضل .

هذه كانت بداية الرحلة من حيث النشأة واستمرت

مراحل الطلب والدرس وظلت متتابعة بعد ذلك في الدروس والمجالس الخاصة وسنة الله النافذة جعلت من هاتيك المجالس العامرة ذكريات لا تفارقني حلاوتها فأسعد كل السعادة وهي تعرض لي إذ كنت في خمائلها راتعاً ولأربابها رضي الله عنهم سامعاً طائعاً .

رأيت اليوم أن الهموم اختلفت والتكليفات تغيرت فأردت القول إن الناس الذين رأيت ليسوا عجباً فكل من يتبع كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ويصدق مع الله ورسوله قولاً وعملاً ونية واعتقاداً وإخلاصاً فإن الله عز وجل أكرم الأكرمين سبحانه .



في الدار عادة فسحة سماوية مفتوحة تشكل متنفساً لا تخلو منه الدور العربية وقد تخصص إحدى ربات البيوت غرفة تجعل منها كتاباً تجمع فيه الأطفال لقاء أجر أسبوعي رمزي وتعرف هذه السيدة باسم (الخوجة) ومقرها عادة بيتها وهي

تعلم الأطفال الأكبر بعض السور وتشغل الجميع بترديد مديح أو أكثر مما يحفظونه إذ معظمهم صغار أما الكبار الذين هم غالبا دون التاسعة أو الثامنة .

الأتراك يطلقون إسم (خوجة) على المعلم أو الشيخ أو شيئا من هذا القبيل وربما كان هذا اللفظ عندهم من المفردات العامية وما أعنيه أن هذه المفردة لها مكان في عاميتنا بهذا المفهوم أي المرأة التي تقوم بذلك .

والخوجات كثيرات في الأحياء والأزقة ولهذه الظاهرة لها وظائف متباينة فالأم تأمن على أطفالها تحت النظر الأمين بينما هي تقوم بأداء مهامها المنزلية أو تقوم بعملها إن كان لديها عمل من خياطة أو تطريز .. الخ ومن وظائف لهذه الظاهرة أن الطفل منذ نعومة أظفاره يرى أن التجمع التعليمي لازم بدليل أن الأكبر منه يجدون فيه ويرى في هذا التجمع انضباطا لا يراه في الشارع فهنا لا يعتدي أحد على أحد ولا ألفاظ شاذة فهناك من يأمر وينهى ويزجر ويوجه وهي (الخوجة) ويدرك بصورة واضحة لكنها صغيرة الأبعاد جداً أنه عندما لا يوجد صاحب أمر فإن الفوضى

تضرب أمثالها ويفهم الطفل أيضاً أن على الانسان التزام فهناك وقت للذهاب إلى الخوجة وهناك فترة راحة يخرج فيها مع أقرانه إلى أرض الدار وعند أذان الظهر يحين وقت الغداء فيخرج كل واحد طعامه من الكَنّير (١) أو من الكيس أو يفك عقدة المنديل المعقود على شكل بقجة صغيرة وبانتهاء فترة الغداء يعودون إلى ما كانوا عليه إلى أذان العصر حيث يحين وقت الانصراف .. إلى ما هنالك من الايجابيات .

الخوجة هذا هو الكتاتيب النسائية في البيوت كانت معلماً تربوياً لا يخلو من فائدة ويسهم في بلورة شخصية الطفل التعليمية والسلوكية والاجتماعية لا بل كانت

---

١ - الكَنّيْرْ : بيت قماشي يعد للمصحف الشريف يحمله الولد على جنبه الأيمن غالباً وبنده الموصول الطرفين يمر فوق كتفه الأيسر . وكانت العادة لديهم إن جهازات العروسين لا بد وأن يكون فيه كَنّيْرْ مخمل أو أطلس ليوضع معلقاً في صدر البيت .

ايجابياته واضحة في بعض الأحيان شأنه كشأن الكُتَّاب (الشيخ) كما هو اسمه عندنا ولكن الأخيرا هم لأن الخوجة لديها الصغار فقط من الجنسين فعندما يكبرون يذهب الذكور إلى الشيخ بينما الإناث تساعدن أمهاتهن في البيت غالباً .

أم برهان

كنت واحداً من تلامذتها وبيتها خارج زقاقنا لكنه في نفس الحي ويقع خلف جامع أبي يحيى الكواكبي وكنت آنس في ذلك البيت لأمور منها أن العمة موجودة (وهي عمة والدي) إذ البيت بيت ابنها والخوجة أم برهان كنتها وكانت العمة تزور عندنا الأيام لا تفارق قراءة القرآن إلا عند الصلاة أو تناول الطعام أو النوم وكنا صغاراً نقطع عليها خلوتها مع الكتاب العزيز لتحكي لنا حكاية ننطلق بعدها نلهو وبالمناسبة لهونا وضجيجنا إن حصل ليس له تأثير عليها أو على تلاوتها سواء كان

ذلك في بيتنا أو في بيت ابنها حيث الخوجة أم برهان وذلك لأن الأيام فعلت بسمعها ما فعلت وكانت أم برهان أيضاً تزورنا في بيتنا دائماً فلا غرو إذن من الخوجة لأنها قريبتنا وفي البيت نفسه ابنها برهان في مثل سني وكانت مغانينا التي نلهو فيها ونمرح واحدة بيتي وبيته ولذلك عندما كنا في الخوجة كنا نقول أم برهان وإلا فعندها ثلاثة أكبر منه أكبرهم عبد الرحمن لكن من حيث النتيجة غلبت عليها هذه الكنية .

بقيت عند أم برهان فترة غير محددة وربما كانت هذه الفترة وأنا لما أبلغ السادسة بعد لكني بعد الرابعة من العمر .

أم برهان تلك المرأة الوضيئة كنت أرى فيها جمالاً خاصاً وأنا في تلك السن الصغيرة هل لأنها كز وجهها لا تفارقه الابتسامة اللطيفة شفتيها أم لأنها كانت تعطف علينا جميعاً فهي لا تنهر ولا تضرب أحداً هل هذا هو الجمال الخاص بها والذي كنت أراه في وجهها؟ ومرت الأيام وكنت أراها في أحيان متفاوتة فنحن

أقرباء وفي حي واحد ولها على جهد التربية فحسن الواجب على الاحتفاء بها عندما أراها فهي معلمتي ولاحظت أن الجمال الخاص في وجهها إنما لومضة نورانية في وجه يغشيه بشر لامرأة ما عرفت إلا الحنان وتعليم القرآن لهذه اللمحة كنت أراها في وجوه الذين يعكفون على تعليم القرآن ممن عرفت

كنت أسأل عنها أولادها دائماً وأبعث إليها بتحياتي وأبث إلى الله الدعاء راجياً أن يمنحها الصحة والعافية إلى بلغ الطريق النهاية وذلك في سنة ٢٠١٠ تقريباً ورحم الله معلمتي أم برهان .

وكان أبوهما صالحاً

رؤية العمائم لدي مألوفة جداً فهي موجودة في بيتنا وفي زقاقنا وفي الحي الذي لم أكن أجاوزه إلا بصحبة أحد خشية أن لا أهتدي طريق العودة لأن ذلك حصل مرات عدة وفي البيت كنت أرى جدي بطلعته المهيبة ولحيته البيضاء مسترسلة إلى أعالي صدره وله عمامة أيضاً لكنها تختلف عن عمائم أولاده

وكنت كثير السؤال والاستفسار عن كل ما أرى كشأن أي طفل وأدركت في النتيجة أن هذه العمامة يضعها البعض من العامة أما عمائم أولاده فشكلها متخذ شعاراً لأهل العلم .

جدي لم يحصل علماً وأولاده علماء ؟ أمر فيه نوع من الاستغراب بالنسبة لوقتهم الذي كانت المدارس فيه عزيزة جداً والأمور المعاشية ضاغطة جداً فإن الحروب كثيرة وذلك في الفترة التي بدأ ظل الدولة العثمانية يمحي والفترة التي سبقته والحق أن هذا الأمر كان غريباً في تصوري وكنت أجد في نفسي شعوراً يمكنني وصف معناه بأنه تحية الإكبار التي تهدى للجد الحديد وأي جهاد أكبر من أن قدم للمجتمع أولاده علماء كباراً وهو الذي لم يحظ بجلسة علم .

كأي عائلة تذكر القصص والحوادث والوقائع المختلفة حصلت وتحصل مع الأفراد قريبهم وبعيدهم حيهم وميتهم وما عساي أن أعرف من جدي الذي قضى قبل أن يصل إلى المائة بخطوات وأنا ابن سبع سنين ما بلغت الثمانية ومع ذلك كنت أحب أن أتعلم وأنا عند الخوجة أم برهان ثم عند عدد من المشايخ في (الكتاب) ولهذا الحب سبب فقد رأيت

بعقلي الطفولي أنني أعرف شيئاً من قراءة وكتابة كلمات قليلة وجدي الذي قارب المائة لا يعرف قراءة ولا كتابة هل من المعقول أن أعرف أكثر من جدي؟ ثم هو ممتنع أن يكون الإنسان عالماً؟ هذه الصورة ظلت مرتسمة في خيالي حتى بعد رحيله رحمه الله ولئن كانت هذه الصورة في مجتمعي الصغير فإنها ذاتها الأكبر في مجتمعي الكبير إذ أن الدين الحنيف قد حث على العلم كما لم يفعل أي آخر من قبل ولا من بعد فقد قال عليه صلاة الله وسلامه: اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد.

لماذا لم يتعلم جدي؟ هل كان كسولاً في صغره لم يتعلم فيهرب من الكتاب مثلاً أم تعلم نزراً يسيراً ونسي؟ غير معقول.. أراه جاداً لا يضيع وقته هدراً حتى عندما لا يكون لديه ذهاب إلى عمله - فكان آنئذٍ قد تقاعد عن العمل طبعاً - وكان عمله الذي أعنيه هو الذهاب في قضاء حوائج البيت يجلبها من السوق وكثيراً ما يمسك بيدي يصحبني معه فتدخل السعادة الغامرة إلى قلبي لأنه يشتري ما أريد وعمله أيضاً الذهاب إلى الجوامع لحضور الدروس

العامة إذ إنه فهو ليس كسواك كيف وهو يقضي وقته في البيت منكباً على تلاوة القرآن العظيم فما هي القصة ؟

كنت محقاً في تساؤلاتي وكان الأمر أبعد من تصوري في تلك السن فقد ولد جدي يتيماً إذ توفي أبوه وهو جنين في الشهر الثاني من الحمل فنشأ عند أخواله (آل اللالا)(1) فنشأ عندهم النشأة الصالحة الطيبة إلا أن موضوع العلم والدراسة في ذلك الوقت ضمن التحكم العسير .

خدم في الجيش العثماني سبعاً من السنين محارباً في جهات مختلفة منها جزيرة كريت في البحر الأبيض المتوسط ثم ما لبث أن التحق سبعاً أخرى نيابة عن أخيه عبد الله لأن بساطته تجعل الخدمة شاقة عليه ثم إنه تزوج ابنة خاله فولدت له خمساً من الأولاد ماتوا صغاراً .. فقيل له : تزوج غيرها فلعل الله أن يرزقك الولد فقال : لا توجد امرأة تسر بوجودها ضرة لها وابنة خالي هذه ليس لها من أحد يحتضنها إلا

1- اللالا : المعلم ويقال لعمامته اللالاوية وصانعها وبائعها اللالاوجي وفي حلب بيت اللالاوجي

إلا أنها حيث لم يبق لها أب ولا أم وأنا لا يمكنني أن أكسر بخاطرها) ثم إنها توفيت بعد أحد عشر سنة فتزوج عندئذ بجدتي وهي من آل الجودة [1] فأنجبت له خمسة من الأولاد أربعة منهم ذكور مصطفى وقد أصر على ترك الدراسة لمساعدة والده ثم نجيب الذي تعلم مهنة التجارة مع الطلب ثم عمر الذي تعلم التجارة أيضاً مع الطلب ثم والدي عبد الرحمن الذي عمل مع والده بصنعة التجارة والبناء مع الطلب فكان جدي يأمر عماله بالضغط على والدي حتى يهرب من الإجهاد إلى الجد والاجتهاد وكان الأربعة حفاظاً للقرآن الكريم ودرس الثلاثة في المدرسة الخسروية وتخرجوا منها وكان الشيخ نجيب فيما بعد شيخ القراء وكان والدي أيضاً مقرئاً فقد تلقى القراءات عن أخيه الشيخ نجيب وأما عمر فقد درس الثانوية العامة والتحق بكلية الطب .

---

١ - آل الجودة : من العوائل العريقة المعروفة بحلب وهم أشراف ينتهي نسبهم إلى سيدنا الحسين رضي الله عنه .

وكان أبوهما صالحًا

عندما وضع جدي أولاده في الخرطية قيل له : وضعت أولادك في الخروية حتى يلحقوا الأموات فكان يقول : أنا سأعلمهم دينهم والدنيا تأتي المهم الدين.

كان جدي يتابع درسًا للشيخ محمد الجذبة في جامع أبي يحيى والشيخ صديق لوالدي وأعمامي فكان الشيخ يقول لجدي : ربما كان برك لزوجتك الأولى التي لم يعش أولادها هو السبب أن الله عوضك عنهم بهؤلاء الذين هم زينة في المجتمع ولهذا أكرر كلمة جدي رحمه الله : الدين أولًا وأعقب على كلمة الشيخ الجذبة بقول الشاعر :

وكم لله من لطف خفي يدق خفاه عن فهم الذكي

الشيخ (الكتّاب)

تنقلت في العديد من الكتاتيب التي لا يكاد حي يخلو منها فهي الواجهة التعليمية الأساسية قبل انتشار المدارس وكان تبديل الانتقال من مكتب لآخر يعود لأمور متباينة فقد يرغب الطفل الانتقال إلى شيخ يراه أرحم من شيخه

لا يستطيع عصاه عنها وقد يرغب مكتباً لقرب مسافته من بيته أو لوجود رفاقه وقد تكون رغبة الأب لأن هذا الشيخ قريب من دكانه فيأخذ ولده معه وعند الظهر الولد يأتي إلى دكان أبيه وقد يكون تغيير الشيخ بسبب اختصاص عنده فمنهم إضافة إلى تعليم القراءة والكتابة وتجويد القرآن الكريم يعلم الحاسبة (الدوبيا) ومنهم الخط العربي ومنهم .. ولهذه العوامل لم يكن لها عندي أي أثر عندما كنت في السن الأولى لكن فيما بعد دخلت في القراءة والكتابة فدخلت المرحلة الابتدائية وصار لدي نوع إلمام بها وكنت ملزماً بالعودة إلى الكُتَّاب لقضاء العطلة الصيفية فيه كشأن كثير من الأولاد إذ البعض يذهب لتعلم مهنة أو للعمل والتكسب .

هذه الظاهرة ليست موجودة عند المسلمين فحسب بل هي موجودة عند غير المسلمين أيضاً .

المعلم نعوم بخاش

في أدبنا الشعبي كتاب عنوانه : يوميات المعلم نعوم

المعلم نقوم بخاش

ونَقّوم بخَّاش بخاش إذن فهم يطلقون عليه إسم المعلم صاحب كُتَّابٍ في النصف الأول من القرن العشرين وكان كتابه في ذلك الوقت بأجدا ذقة منطقة التل ويومياته هذه لكتابة أسماء الحضور يومياً من الذكور والإناث ويدون آخر الأسبوع بجانب كل إسم من طلب منه المعلوم ومن تأخر عن ذلك لكن اللافت في يومياته هذه أي حدث سمعه أو جرى معه كقدوم ذي شأن إلى المدينة أو خروج مع مجموعة إلى بساتين الشمال - منطقة عين التل - وحفل الشواء .. إلى غير ذلك لذلك اعتبرت يومياته من الأدب الشعبي وكانت يومياته من جملة مراجع خير الدين الأسدي في كتابه موسوعة حلب المقارنة استمد منها بعض الألفاظ والمواد والأكلات وأسماء بعض الشخصيات في ذلك الوقت .

في كتاتيبنا يكثر عدد الطلاب في العطلة الصيفية بشكل ملحوظ وبالنسبة لي فلم تخل عطلة من العطل الصيفية لم أكن فيها من رواد هذه الكتاتيب وإني وإن تنقلت في العديد منها إلا أن الفترة الأكثر امتداداً تلك الحقبة كانت عند الشيخ بدوي .

الشيخ بدر الدين طحان

معروف باسم الشيخ بدر أخذ المهنة عن والده الشيخ

صالح الطحان ولهذه العائلة يلقبون بيبس عرفت بها

عمومتهم اكثر منهم وكان مكتبه عبارة عن صالة كبيرة فيها

غرفة مفتوحة والصالة لها نوافذ من الجهة الجنوبية تطل على

سطح جامع البهرمية أما شبابيك الغرفة فتطل غرباً على

سطح السوق ولا شباك شمالي فالمكتب من جامع البهرمية

لكن مدخله من الزقاق الغربي ولا توجد فيه مغاسل

فكان الأولاد يذهبون إلى المغاسل التابعة للجامع لكنها

أيضاً مستقلة عنه فكلما أراد طفل قضاء حاجة أعطاه الشيخ

مسماراً من أصل ستة على الطاولة ويبلغ عددها ثمانية في

العطلة الصيفية وبذلك يعرف الشيخ عدد الأولاد الذين

هم خارج المكتب .

كل فئة لها حيز في المكتب فهنا الصغار الذين لا يقرؤون

ولا يكتبون وهنالك المتقدمون في قراءة جزء ألف باء

والمتقدم على هؤلاء في قراءة جزء رشيدي في مكان ثم

المتقدمون في قراءة الأجزاء الأربعة الأخيرة لهم مكانهم ويبقى آخر مكان في هذا التقسيم للذين يقرؤون القرآن الكريم وفيما بعد كان هناك مكان آخر ولهذا المكان لي وحدي وكان قريبا جدا من الشيخ لا يفصلني عنه أي فاصل فقد كنت الوحيد عنده لحفظ القرآن غيبا إلى جانب أنني أيضا كنت الوحيد الذي كنت أتلقى عنده دروس الخط العربي .

ولنرجع الصفوف فقد كانت لهذه المراتب حسب المستوى وكان النابهون من كل صف يكلف البعض بتعليم الصف الأدنى ولكن على التعاقب ليكون لديهم الوقت للتعلم من الصف الأعلى وهكذا أما أنا فكنت الوحيد الذي لا أعلم الأدنون لانشغالي بالحفظ .

يؤذن الظهر فيضرب الشيخ على الطاولة بعصاه ويقول : سكوت ثم يسمح بالغداء فيخرج كل واحد طعامه ويتناولون الغداء وغير مرة كان الشيخ ينادي فيهم وهم يأكلون ويقول : ولك يا أولاد بزمانو الأولاد كانوا يجيبوا معهم أكل زيادة للشيخ اللي جايب محشي كان يحط محشية للشيخ أو ثنتين واللي جايب كبة كان

يحط .. الخ وفي بعض الأحيان يحصل نوع من التجاوب لكن يوم الخميس لا يوجد غداء لأن الانصراف عند أذان الظهر .

كان الشيخ يتابع هذه الصفوف ويشير إلى هذا وذاك لكي يجلس أمامه ويقرأ والشيخ يستمع إليه وإلى اثنين أو ثلاثة في آن واحد .

ولدى الشيخ قضامة بسكر يبيع منها للأولاد كل عشرة بفرنك لكنهم يتهربون من خروجهم من الكتاب لقضاء الحاجة فيشترونها من السوق ويحصلون على ١٧ - ١٨ قضامانية بفرنك واحد .

رأيت عند الشيخ العازفين يترددون فقد كانوا يأتون إليه لشراء النايات التي كان يصنعها في بيته وقد كان عازفاً لا بأس .

كان لدينا درس للنشيد وليس شرطاً أن يكون كل يوم وفي هذا الدرس ترديح من نفس الأولاد ومن ناحية وليكونوا حافظين للأناشيد وحاضرين في حال أحد الأولاد ختم القرآن فالبعض منهم يرغب أهله عمل نشيدة له

فيكون مطلع حياته ديني وعندئذ يصير درس النشيد يومياً مع توجيه العظات والملاحظات .

أحمد ختم القرآن وهو قريب من آل الآلاء وعند الختم يجلب معه قبعة وفي الضحى يضرب الشيخ بعصاه ويصيح سكوت يعم الصمت ويأتي أحمد ويجلس أمام الشيخ وورائه واحد أو اثنان من الأولاد الكبار ويقرأ قصار السور الأخيرة ويبدأ بعدها التلاوة من أول القرآن الم .. ذلك الكتاب .. ويتابع إلى أن يصل إلى قوله تعالى : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعندئذ يقوم الولد الذي يقف وراءه فيضربه على رقبته ويخطف القبعة من فوق رأسه ويذهب بها إلى أمه فيعطيها القبعة بشارة بأن ابنها ختم القرآن فتعطيه البشارة وتقول : هذه لك وهذه للشيخ ثم إنه يأخذ القبعة ويذهب بها إلى أبي الولد إذا كان عمله أو محله قريباً فيأتي بالبشارة للشيخ .

حصل هذا مرات ومرات لكن نقف عند أحمد فقد رغب والده أن يعمل له نشيدة وهذه مسألة يحدد لها

وقت معين هو اليوم الفلاني ودرس النشيد يتكرر يومياً الآن تحضيراً للحفل المرتقب .

النشيدة

في الموعد المضروب نزلنا من المكتب والأولاد قد اصطفوا بشكل رتيب الكبار ثم الأصغر فالأصغر وفي وسط الصف الأمامي أحد صاحب الختم يلبس البياض وعلى رأسه يتدلى القصب البرّاق المسمّى بـ (البشمة) وتقدم هذا الموكب من السوق وهو يصدح بالأناشيد ولبيت أحد طريق آخر عبر الحارات لا يمر بسوق واختيار السوق طريقاً للبداية لإظهار البهجة بختم القرآن على مرأى أكبر عدد من عباد الله .

في سوق البهرية هذا ترى صاحب هذه الدكان يلقي على الأولاد القضامة وآخر يلقي الدروبس ومنهم يلقي المدردر وكلما تقدموا قليلاً نثر أصحاب الدكاكين عليهم وكلما ألقى أحدهم شيئاً ترى الصفوف هاجت وماجت ومال الأولاد إلى الأرض ليلتقطوا وينفوا

في أفواههم ويضبط ترتيب النشيد وإيقاعه يرفع عصاه في الهواء بعصبية ويصيح فيهم ولا مجيب ثم يرفع صوته بالنشيد ليعود بهم إلى استقامة الأداء وهذا المشهد يتكرر كلما التقى أحدهم من وكان ما ذكرنا .

وصلنا إلى بيتهم فوجدنا أمام الباب عدد من الضيوف دعوا لحضور الحفل وفي الحي الأولاد يسيرون بشكل رتيب وهم يرددون الأناشيد ونسوة الحي يزغردن من داخل بيوتهن وأيضاً من داخل بيت المحتفى به وفي باحة الدار اصطف الأولاد طبعاً وهم يرددون ويرددون وقد جلس قبالتهم أحمد على كرسي مزين بالقماش الملون والمزهر .

أتى والد أحمد وهو يحمل في يده فرنكات نثرها فوق رؤوس الأولاد وفعل ذلك غير واحد من المدعوين الحضور من القرابة والأولاد لا يتغير شأنهم فتراهم يلتقطون نصيبهم من هذه الأعطيات ويظل الحفل إلى ما قبل صلاة الظهر حيث يقدم أهل البيت الحلوى للجميع ويتم الإنصراف بعد الدعاء .

صورة لا تنسى وقد انطوت صفحتها لكن ما لابد من قوله كم تجل لهذه الأمة كتاب ربها ومن حمله عندما زينوا أحمد وأخرجوه بهذا المظهر البهيج أشعروه بالتكريم الخاص الذي جعله مميزاً عن غيره وتبوأ مكانة لا يحظى بمثلها إلا من تعلم الكتاب الكريم أليس لهذا مظهراً من المظاهر الدالة على تكريم كتاب الله والذين نثروا القضامة والملبس والروبيات وغيرها على الكوكبة المحتفية بالقارئ الصغير والذين نثروا المفرقعات والنسوة اللواتي زغردن فرحاً وابتهاجاً أليس ذلك إجلالاً لكتاب الله عز وجل .. فلنذكر أيام الله فإن ذكرها تبعث الأنس والسرور والراحة في النفوس .

قطعت في دراستي المراحل وصرت في معترك الحياة ضمن مسؤولياتي ومع ذلك كنت أتردد بين الفينة والأخرى لزيارة شيخي وبعد أن نالت منه السنون وأثقلت كاهله الأيام وترك كتّابه زرته في بيته بحي الشرق د علي المفضل فقد حفظت القرآن الكريم عنده والذي قدر اللقاء قدر لفراقه في ثمانينات القرن العشرين . رحمه الله

والدتي ووالدها

لم يحظ جدي الشيخ أحمد حميد بكار بقسط من التعليم وكانت فاطمة أول أولاده ذكية لماحة أرسل بها إلى الخوجة كما فيما بعد بقية أولاده ثم إلى الشيخ حيث كانت كغيرها تتعلم القراءة والكتابة والحساب وفي العادة يضع الشيخ الإناث إن وجد له عنده في حيز غير حيز الأولاد .

كانت تأتي كل يوم لتعلم والدها ما تعلمت عند الشيخ من قراءة وكتابة ومضت الأيام وختمت والدتي القرآن عند الشيخ ووضعت قبعة فوقه غطاء رأسها ولقد أخذوا القبعة عندما وصلت إلى قوله تعالى: ختم الله على قلوبهم .. وجاءوا إلى جدي وأخذوا البشارة فأعطاهم بكرمه المعهود .

عادت والدتي إلى البيت لتعلم والدها الدرس فهو اليوم متميز وقرأ جدي وابنته تتابع قراءته إلى قوله تعالى : ختم الله .. فضربته على رقبته وخطفت عمامته من فوق رأسه وحملتها ووقفت أمامه تطلب منه البشارة بختمه قراءة القرآن فضحك جدي ضحكة عريضة وأعطاها

في ذلك الوقت مجيدي أو قالت لي: ليرة سورية أيام كانت فهو مبلغ كبير فالمجيدي يكفي أبو احمد أي لا يحمل كثير
أما الليرة السورية فهي أيضاً مبلغ كبير. إذ أن الليرة العثمانية الذهبية وزنها سبع غرامات قيمتها بالليرات السورية خمس ليرات وربع فإن كان أعطاها ليرة فهي تساوي ١½ غرام ذهب.

ثلاثة وخمسون سنة نعمت فيها بحياة والدتي قبل أن ينتهي كيني بفقدها بهذه المدة سمعت منها هذه القصة مرتين أو ثلاثاً وقد رأيت جدي يقرأ القرآن الكريم ورأيته غير مرة يكتب إسم شخص بصعوبة وتعثر لكن كتابته واضحة ومفرودة أما والدتي رحمها الله فقد تركت الكتابة فنسيتها أما القراءة فكانت تقرأ بشكل جيد وأسمعها كل يوم في الصباح تقرأ الكتاب العزيز ولا تسل عن البعض من الأخطاء في اللفظ فهذا أمر لابد منه.

قبعة البشارة بختم القرآن الكريم كانت فوق رؤوس الكبار والصغار والذكور والإناث حتى والدتي ووالدها يرحمها الله

الشيخ كمال الطحان

الشيخ كمال الطحان الملقب ببس حافظ متقن تلقى القراءات العشر عن عمي الشيخ نجيب شيخ القراء وكان يقرئ كتاباً في المدرسة الكواكبية جانب جامع أبي يحيى الكواكبي من نفس بناء الجامع لكن مدخلها مستقل على يسار المدخل الرئيسي للجامع وهو الأخ الشقيق للشيخ بدر الدين الطحان وابن الشيخ صالح الطحان .

جامع الكواكبي من الجوامع الكبيرة الحجم في حي الجلوم الصغرى والشيخ كمال يسكن أمام الجامع على مسافة قريبة من الجامع بجانب دار أخيه الشيخ بدر الدين في ذلك الوقت ثم غير كل منهما سكنه إلى منطقة أخرى .

لقد كنت لفترة قصيرة من تلامذة الشيخ كمال ربما لأن بيتنا قريب من كتابه وقد رأيت من الشيخ الرعاية فعلاً وكنت أرى نفسي ذا حظوة عنده وأني مميز عن الآخرين ربما للمودة بينه وبين والدي وأعمامي وعندما لاحظ أن لي شغفاً بالخط أهداني كراسة مطبوعة

بخط الرقعة للخطاط التركي الكبير حسين حسني (١) المحفوظة لدي حتى الآن واعتبرها نادرة لأنني لم أسمع أحداً عن وجود نظير لها .

ذات يوم مرت بالشيخ نكبة أسفنا لها وهي فقد ولده في حرب سبعة وستين مع اليهود إلا أنه بعد ذلك ذهب إلى مصر وقدم بزوجة ثانية .

كان الشيخ يحب رياضة السباحة وقد فاز بهذه الرياضة بجوائز البطولة مرات عديدة .

اقتصر الشيخ على تعليم القرآن الكريم لبعض من رواد

---

١ - حسين حسني : خطاط تركي كان في بلاط السلطان عبد الحميد وعندما دالت دولة الخلافة مكث في حلب مهاجراً في التكية المولوية يعمل بالخط ويعلمه وممن تعلم الخط عنده والدي وأعمامي والخطاط المعروف الشيخ محمود صابوني والشيخ عبده وعبيد وغيرهم ولقد دفن في التكية المولوية إذ يوجد قبره وقبر فقيه الأمة الإسلامية الشيخ محمد الزرقا الكبير وابنه الشيخ أحمد الزرقا . يرحمهم الله

مسجده في الأنصاري إذ كان قد ترك تدريس الأولاد في المدرسة الكواكبية .

وبانتهاء القرن وبداية القرن الحادي والعشرين تقريباً أفل نجم من نجوم القرآن فرحم الله شيخي الشيخ كمال طحان .

الشيخ عبد الوهاب مصري

حافظ متقن قارئ العشر وهو على درجة من العلم حيث كان خطيباً في جامع أبي يحيى الكواكبي وإماماً لجامع الكختلي وكان إماماً في حي الجلوم الصغرى دخلة الأغوات باتش الوجه .

كان كتّاب الشيخ يشغل الزاوية الشرقية الجنوبية من جامع العثمانية وهو مكتب واسع نسبياً وهذا المكان مبني على أنه سبيل للماء فواجهتاه الشرقية والجنوبية مفتوحتان ولهما حديد مشبك غليظ والواجهتان مهيأتان لتسهيل السقيا والوقوف خارج السبيل طبعاً لأجل ذلك .

جامع العثمانية العثمانية هذا تحيط به أزقة لتبقى

فاصل بينه وبين الأبنية الأثرية المحيطة به ومن هذه الأزقة ما ينفذ إلى الشارع العام المعروف بشارع باب النصر وشرقيه إلى شارع الجبه وغربيه إلى سوق السويقة وقبليه ينفذ أيضاً إلى شارع الجبه فهو غير مطل مباشرة على هذه الشوارع لكن النفاذ يحصل عبر زقاقات قصيرة .

مكان الكتّاب هذا كان بعيداً عن بيت الشيخ إذ أن بيته في الجلوم وسور المدينة الجنوبي المفضي إلى باب قنسرين هو جدار داره التي كان يشرف منها على الخندق وكان الشيخ يذهب إلى مكتبه الذي يوصل إلى باب النصر منه بعد عشرات الأمتار وباب النصر هذا شمالي المدينة فالشيخ كان يقطع المدينة القديمة - ما بين السورين - يومياً .

كنت واحداً من تلامذته في هذا الكتّاب وكانت لي حظوة عنده فكان يجلسني على مقعد أمام طاولته واضعاً ما أحمل على الطاولة وبسبب كوني من رواد كتّابه لفترة عطلة صيفية واحدة أن محل والدي التجاري كان قريباً من المكتب في حارة الخندق أي بعد باب النصر مباشرة فكان يصحبني معه في الصباح والمساء .

بدأ نجم ازاظل الكتاتيب بكثرة الروضات والمدارس الصيفية والتوجيه غير المباشر بإلغاء المكاتب وتوجه الآباء بأولادهم إلى تلك المعاهد ظل الشيخ يذهب إلى جامع العثمانية (1) كمدير لمدرسة الحفاظ والتي تشغل قاعة الدرس الكبيرة في الزاوية

---

1 - جامع العثمانية : هو جامع ومدرسة وقاعة درس وسبيل للماء.. الخ بناه الوالي عثمان باشا وتقول الرواية : عندما تم البناء وجاؤوا للصلاة قال الباشا : من لم تفته سنة العصر - وهي غير مؤكدة - أربعين سنة فليتقدم للإمامة فلم يتقدم أحد فتقدم الباشا وصلى إماماً أول صلاة فيه له وقفية لم أطلع عليها لكن الحافظ الشيخ محمد المخللاتي قال لي : إن في وقفية الجامع ثلاثون حافظاً يأتون كل يوم يقرأ كل واحد منهم جزءاً أي يختمون كل يوم ختمة بعد العصر قال والآن بقينا سبعة وأنا واحد منهم . وقد توفي الشيخ محمد على رأس القرن تقريباً رحمه الله . وفي الجامع قاعة إسمها قاعة الدرس يلقي المفتي فيها درساً على جماعة من العلماء وللجميع راتب على الدرس ثم صارت هذه القاعة مدرسة للحفاظ كما ذكرت .

الغربية الجنوبية من جامع العثمانية حيث أعيد افتتاحها بعد أن انهدم بناؤها في منطقة خان الحرير وقام مكانها بناء مرتفع ومحلات تجارية .

وكان الشيخ عبد الوهاب هو الذي خلف عمي الشيخ نجيب في إدارة مدرسة الحفاظ وبقي فيها إلى أن وافاه الأجل في بيته بشارع اسكندرون وقد قضى فيه عشرات السنين بعد انتقاله من زقاق النوريجي الجلوم رحمه الله

الشيخ مُصْطفى السرميني

المعروف بشيخ القصري لأن كتابه في جامع القصري الواقع في الجلوم الصغرى في أواخر الزقاق الغربي لحي الصليبة قبل أن يفضي هذا الزقاق إلى الجلوم الكبرى حيث نهايته أمام زقاق المخلوطة والشيخ رجل من أهل العلم وكان القائم مقامه الشيخ موسى الذي حفظ القرآن الكريم في مدرسة الحفاظ والشيخ مصطفى كان يأتي كل يوم إلى

الشيخ مصطفى السرميني

المكتب في كثير من الأحيان لأنه كان موجهاً في الثانوية الشرعية ومدرساً فيها فإذا أتى الشيخ مصطفى فإن الشيخ موسى يغادر بعد قليل وإذا لم يأت الشيخ فإن الشيخ يصلي إماماً بنا وبالناس.

ولا أنسى أن كلا الاثنين لديه الاندفاع والرغبة للتعليم لأنه بمقدم الشيخ مصطفى يفتح الشيخ موسى سير التعليم ويخبره بمن نصر اليوم ومن جد واجتهد فيتابع الشيخ مصطفى التعليم على هذا الأساس.

ربما كانت سيرة التعليم في هذا الكتاب رتيبة أكثر من بعض المكاتب الأخرى فما هو السبب؟

كنت أصغر من أن أقيم وأصدر الأحكام الدقيقة ولكن العموميات التي قدمتها لا تخفى على من هو في سني فهل لي أن أعزوها إلى أن هذا الكتاب لا تستعمل فيه الشدة فإن وجدت فهي شدة المحب وليست شدة المستبد ويبدو أن هو الذي زرع الهيبة في قلوب الأولاد والهيبة احترام يقوم على محبة الغير بسبب محمود فقد يكون لعلمه أو لسنه أو لسلوكه الطيب.

فيما بعد دخلت الثانوية الشرعية وكان شيخي الشيخ مصطفى

أحد الموجهين فيها كما قلت وكان أيضاً مدرساً لدروس قليلة وقد كنت بين يدي الشيخ في الطفولة وفي دخولي مرحلة الشباب وكان اثنان من أولاده زملاء الدراسة لذلك بقيت الصلة قائمة .

تخرجت من الثانوية الشرعية وكلما أنا أزور أهل الفضل علي وأسأل عن أحوالهم وقد مرض الشيخ فنقلوه إلى أحد مشافي دمشق في منطقة الحلبوني وقد ذهبت إلى هناك لعيادته ولكن كان قد أبل من مرضه إلا أنه لم تكن الأيام الباقية في حياته كثيرة وكان ذلك في أواسط الستينات من القرن العشرين رحمه الله

الشيخ أحمد الحجار

في جامع الحي بسراي اسماعيل باشا كان مكتب الشيخ الحجار كنت لفترة قصيرة من رواده في نعومة أظفاري وكانت أعمار الأولاد عنده مختلفة كثيرة وعددهم لا بأس به كانت الغرفة الواسعة تمتلئ بهم وتغص

بالأولاد عندما يحجبهم الشيخ من الوضوء قبل صلاة الظهر
ليفسح المجال أمام المتوضئين .

كان لهذا الرجل لها دئاً جداً يتعامل مع الأولاد برويّة وأناة ولديه العصا طبعاً كغيره من المشايخ لكن وظائف العصا متعددة فيمدها باتجاه لتساعد على تعيين أحد الأولاد البعيدين بأمر أو نهي أو توجيه وهي التي يضرب بها على الطاولة عندما يريد توجيه أمر ما إلى الجميع كالقيام إلى الوضوء أو إلى طعام الغداء .. الخ وهي أداة الردع أيضاً .

توفي الرجل في أواخر السبعينات من القرن العشرين وذهبت إلى التعزية في بيته حيث أصبح في سوق الجابرية أمام جامع ميسلون فهو شيخي وأخوه الأستاذ عبد القادر حجار شيخ صنعة الموشحات في حلب أستاذي أيضاً بهذه الصنعة وهو من تلاميذ الشيخ عمر البطش والأستاذ عبد القادر كانت له فرقة شهيرة وقد بلغني خبر لا يرقى عندي إلى درجة الصحة وهو أن الشيخ أحمد كان يعمل مردداً في فرقة أخيه الأستاذ عبد القادر فإن صح الخبر

فالشيخ أحمد منشد أيضاً .
لا أنسى لهذا الإنسان وفضله علي فهو شيخي وقد
علمني سلوكه أن الإنسان الهادئ الوادع يكون قريباً من
القلوب جداً ويرحم الله شيخي الحجار

الشيخ كامل البلاط

كُنّا به في جامع الكريمية في سوق باب قنسرين
أمام زقاق أبو درجين الذي ينعطف ابتداء من جدار
حمام الجوهري التي هي أمام باب الجامع وأنا لم أكن
من تلامذة مكتبه لكنه طلب من والدي أن أنتقل
من مكتب الشيخ بدور إلى مكتبه دون مقابل كي أساعده
في تعليم الأولاد ويتابعني هو في حفظي للقرآن الكريم
والشيخ من ستالاه حي الجلوم وجامع والدي - الترموي -
في وسط باب قنسرين فكان يلتقيه دائماً وهما صديقان
طرح والدي هذا العرض علي ففوضت الأمر إليه
ويبدو أنه لم يكن متحمساً لأنه أغفل الرد فجاءه الشيخ بعرض

جديد لعوالقديم نفسه لكنه سوف يعطيني أجزائقا رما عدلي له وأعاد والدي الطرح علي فتحمست إليه قليلاً .. وهذا يعني أني وصلت إلى مرتبة أستاذ لأن الأجر يدفع عادة إلى الأستاذ ومع ذلك كنت معوضناً لرغبة والدي فقال: لو شئت أن تجرب الأمر أياماً تقرر بعدها فلا بأس فامتثلت طبعاً وداومت عند الشيخ أياماً ثلاثة حسبما أذكر وإذا امتدت فليست لأكثر من أسبوع يقيناً فقمت بمهمة التعليم وخلفت الشيخ حال غيابه وقمت بمهمتي كما يجب وكنت أقص القصص على والدي فقرر عودتي إلى الشيخ بدون رغم إصرار الشيخ كامل على بقائي عنده وكان سبب عدم البقاء عند الشيخ كامل يرجع إلى أن الانشغال بتدريس الأولاد كان له أثر على سيرة حفظ القرآن الكريم لدي وهذا هو الأمر الأهم .

كنت التقي بالشيخ دائماً في طريقي وأبذل له الاحترام مسلماً عليه لأنني كنت أعتبره أستاذي كما كنت أزور بيت الشيخ فيما بعد لأن أولاده كانوا زملاء الدراسة في الثانوية الشرعية .

وفي سبعينات القرن العشرين توفي عميد ذلك الرجل وكثيرون من أصحاب الكتاتيب علمهم في مسيرة حياته عبر زمن الأجيال . رحمه الله

الشيخ محمد المبيض

هو إمام مسجد النور الذي قلت إن قبته أمام دارنا والشيخ يسكن في نفس الزقاق وبيته بجوار بيت الشيخ عبد الوهاب مصري فهو إمام مسجدنا وهو جارنا ثم هو قريبنا فزوجته عيوش هي ابنة عم أبي وأصغر أولاده فوزي هو رفيق لي فقد ولدنا في أسبوع واحد يفارقه ثلاثة أيام وهذه عوامل تجعل الصلة أقوى وكنت أصلي وراءه صلاة المغرب فقط إذ لا إذن لي بالخروج من باب الدار لقوله صلى الله عليه وسلم : إذا استجنح الليل فكفوا أولادكم فإن الشياطين تنتشر وببلوغ سن الرشد صار مسموحاً لي أن أصلي العشاء وراءه .

الشيخ محمد المبيض

عرفت الشيخ محمد المبيض هكذا وأعرف أنه يذهب بعد العشاء إلى سوق الجرك فقد كان حارساً للسوق وقد عرفت فيه الخصال الصالحة الطيبة بحكم الملاقات التي قدمت والشيخ كان له كتّاب فيما مضى لكن سبحان الله لم أسأل أين كان ومتى تخلى عنه فقد كان ذلك قبل أن أعي هذه الأمور وهذا ما سمعته يوماً من أولاده حتى أن ابنه ابراهيم ذكر لي أن أحد من تعلم عنده دخل بعد دراسته سلك الشرطة وترقى إلى أن صار معاون وزير الداخلية وهو من آل الكرمان في الجلوم وأنا أعرف هذا الرجل وأخاه .

ذكرت الشيخ محمد ولست تلميذاً له وإن كان له علي حق التربية فكل الكبار آباء لكل الصغار يؤدبونه وينصحون ويوجهونه هكذا كانت حياة الناس يوماً .

أقول ذكرت الشيخ وفي حياته الصالحة الكثير من الرشحات الصافية النقية وكونه صاحب كتّاب يوماً فهو إنسان مستور الحال ومع ذلك فإن من أواخر شحاته واقعة كانت عادية في ذلك الوقت لكنها تضاءلت كثيراً .

دخلت والدتي تزور إحدى الجارات في الزقاق فوجدتها تبكي فسألتها عن سبب بكائها والظن أنها تبكي زوجها الذي لما تمضي سنة على وفاته وقد ترك ثلاثة أطفال فقالت لوالدتي: إنما أبكي حزناً على الشيخ محمد المبيض الذي رحل منذ أيام فقد كان يأتيني كل يوم بمثل ما يأتي به إلى بيته ولم يتركني بحاجة إلى أحد بعد وفاة زوجي فكيف لا أحزن عليه.

هذه المرأة كانت تشغل إيجاراً غرفة واحدة في البيت الثاني من الحي في طرف الأيمن وبيت الشيخ هو الثالث.

لقد قصت والدتي هذه القصة بعد سنوات وسنوات من وفاة الشيخ التي كانت في أول سنة من سبعينات القرن العشرين. رحمه الله

الشيخ أسبير

شيخ معمم جليل كان كتابه في جامع السلطانية لطائف

الشيخ اسبير

أمام باب القلعة يرجع إلى العصر الأيوبي (١).

لم أكن من تلامذة الشيخ اسبير يوماً وإن كنت التقيته مرات بعد أن تخلى عن مهنة التدريس وقد آثرت ذكره هنا لأنه كان متميزاً عن غيره بأنه أديب له ديوان شعر جيد ثم كان من أساتذة الحسابات التجارية المعروفة في ذلك الوقت باسم (الدوبيا) ولهذا اللفظ ايطالي معناه في

جامع السلطانة

١ - هذا الجامع في الأصل فيه صحن وفي جهته الجنوبية قبلية بجانبها تربة للأسرة الأيوبية وفي جهة الصحن الشمالية على يمين ويسار الداخل مفاصل وغرفتان صغيرتان أو ثلاث أما الجهة الشرقية والغربية من الصحن ففيها جداران فقط وقد شغل جهة الجدار الشرقية الشيخ محمد الشامي فبنى فيها مضافة متصلة بالمدفن الأيوبي وعندما قتل الشيخ محمد الشامي سنة ألف وتسعمائة واثنتين وثمانين دفن في المدفن الأيوبي وليس من حق كما دفن في الجامع فيما بعد ابنه أسامة ثم ابنه عبد العزيز الذي قضى بحادث سيارة.

أنا جالس في مكاني لزومي في الجبلية اهتزت الأرض تحتي فقستها هزة أرضية مجاورات للإنفجار أمد الجيش الحر فجّر جامع السلطانية بحفر نفق تحته وكان ذلك في تمام ٢ بعد الساعة الثانية من بعد عصر يوم الإثنين ١٦ صفر ١٤٣٦ هـ ٨ كانون الأول ٢٠١٤

لفتهم الحساب المزدوج .

لقد عرف الشيخ ابيير بالدوبيا أكثر منه الشعر وقد تخرج

من عنده عدد كبير من المحاسبين كانوا على مستوى جيد وكان

يكفي أن يقول أحدهم أنا تلميذ الشيخ ابيير .

التقيت يوماً ابن الشيخ ولديه مكتب للمحاسبة القانونية

فهو دارس جامعي لكن الأساس كان عند والده .

توفي الشيخ ابيير في ستينات القرن العشرين رحمه الله

تنويه

- عندما أذكر حضوري مع الأفراد أو الجماعات فذلك لأنني أذكره عن قرب ومشاهدة وعندما يكون ما أذكره عن غير ذلك فأنوه إلى أنه كان سماعاً قد أعزوه إلى قائله إن كنت أذكر ذلك وأنا والحال هذه لا أكتب مؤرخاً حياتي الدراسة .

- كنت دونت تواريخ وأحداث ووقائع هامة تخص أعلام وقتنا هؤلاء وما أكتبه الآن هو استدراك

تنويه

فأنا الآن في نزوحي الخامس وقد ذهب البيت ومحتوياته بسبب الحرب الأهلية ولم أستطع التقصي فإن الأحبة تبعثروا في أرض الله بهذا السبب أسأل الله الأمان لأعيد ما أكتب الآن موثقاً بالدقة اللازمة .

- قد أذكر واحداً من هؤلاء الأعلام غير مشفوع بقصة أو أكثر وذلك لأنني أدون ما يحضرني وهو غيض من فيض وإن ذكر هؤلاء يعني العلم والتقوى والصلاح والبركة في أحوالهم وفي ذكر بعض منها حكم شرعي أو تربوي أو صالح عام

- البعض ينالون من هذا الجانب وهو مايدل على سفاهتهم وقلة تقواهم لأن هذا الجانب للأناس أراد الله بهم خيراً قال صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ولا أنعتهم بالعصمة لكني أتمثل المقولة الحكيمة : إن لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي والله تعالى يقول : إنما يخشى الله من عباده العلماء ونبينا عليه أكمل الصلاة والسلام أرشدنا إلى أمر يذهب عن أذهاننا الكثير منه وهو قوله :

تنويه

اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم .

اللهم ارحم علماءنا ومشايخنا وكل من آمن بالله ورسله عليهم الصلاة والسلام .

المدارس الخاصة

كان إلى جانب الكتاتيب في الساحة قلة نادرة من المدارس الخاصة وهي بدون ترخيص فهي مثل الكتاب إلا أن نظام التدريس فيها على غرار المدارس العامة أي فيها صفوف متعددة تراعى فيها المستويات ولكل صف أستاذ ولها مدير ويدرس الطالب في كل صف منها ٤ السنة الدراسية التي ارتقى إليها وقد كنت من رواد إحدى هذه المدارس لفترة صيفية واحدة فقط وكانت هذه المدرسة في الجلوم الكبرى في زقاق ضيق الذي يوصلنا امتداد بعد بضع عشرات من الأمتار إلى كتّاب الشيخ بدون .

وكانت روضات الأطفال قليلة جداً ولم أكن يوماً

من طلابها.

هذه مسيرة الطفولة إلى نهاية المرحلة الابتدائية وليست الغاية أصلاً سرد مرحلة من عمري ولكن ما حملني لهو ما عاينت وعايشت من بداية النصف الثاني من القرن العشرين وأنا ابن ست سنوات إلى أن كنت مهيئاً للمرحلة الاعدادية فالثانوية حيث رأيت الاختلاف بين المرحلة الابتدائية وما رافقها وما سبقها من الكتاتيب بذكرياتها الخاصة ونكهتها المتميزة ويرحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي بك إذ يقول :

ألا حبذا صحبة المكتب ... وأحبب بأيامه أحبب

ويا حبذا صبية يمرحون ... عنان الحياة عليهم صبي

الدراسة الشرعية

كل مرحلة من مراحل الدراسة لها نكهتها ولها معطياتها الخاصة بها وذلك من أمور لا تغيب عن الذهن وهي العلاقة بين السن والمستوى الدراسي

الدراسة الشرعية

ونوعية المعهد الدراسي وقد وصلت الآن إلى المرحلة الإعدادية الشرعية فقد تم تسجيلي في المدرسة الشعبانية(1) والثانوية الشرعية(2) في آن معاً وداومت في المدرسة الشعبانية حيث كنت من المقبولين فيها ولأنها تفتح أبوابها

---

١ - المدرسة الشعبانية من المدارس العلمية الوقفية تقع في حي الفرافرة وعندما فتحوا شارع الجامع الممتد من طلعة البنوك إلى الجامع القديم وقد تم الشيخ العراني للمدرسة القديمة في ذلك الوقت وذهب جزء من المدرسة الشعبانية التي كانت تمتد إلى نصف الشارع الحالي تقريباً وهي مدرسة العلوم العقلية وكان مشايخها الشيخ محمد الزرقا الكبير ثم ابنه الشيخ أحمد الزرقا ثم ابن ابنه الشيخ مصطفى وكل واحد منهم فقيه الأمة الإسلامية في عصره .

٢ - الثانوية الشرعية : هي المدرسة الخسروية بناها الوالي العثماني خسرف باشا وكانت الأرض بستاناً للأمير الشحنة فاشتراه وبنى مدرسة للعلوم الشرعية ومسجداً وبقيت على ذلك إلى يومنا رغم اختلاف تسمية المدرسة .

قال لي الشيخ علي عبيد رأيت قبة المسجد وهي في أرض القبلية على الحلفاء وقد سلم منه الثانوية الشرعية الرواق الشمالي صحيحاً سالماً

قبل الثانوية الشرعية وكان مديرها الشيخ عبد الوهاب سكر وفيها الأساتذة وهم علماء أجلة ولا أنسى ما حييت في هذا الأسبوع درس الخط الأول الذي تلقيته على يد الخطاط الكبير الأستاذ إبراهيم الرفاعي(١) الذي كان أستاذ الخط العربي في المدرسة ثم فتحت الثانوية الشرعية أبوابها

---

١ ـ إبراهيم الرفاعي خطاط حلب الأشهر الأكبر والذي تلقيت عنه فيما بعد أنواع الخطوط العربية والأستاذ الرفاعي حلبي انتقل والده إلى درعا حيث افتتح كتاباً هناك ثم انتقل إلى دمشق بعائلته وكان ابنه ابراهيم طالب علم وتلقى مبادئ الخط هناك على يد العبد الصالح الخطاط العظيم بدوي الديراني ثم انتقل إلى حلب بينما بقي أخوه في دمشق يعمل بالتجارة كان إبراهيم موظفاً في المعارف في ذلك الوقت براتب شهري قدره (٥) ل.س إنسان مثقف وفنان مفعم بالوطنية يبذل كل ما يجمعه لمساعدة عوائل الثوار أيام الانتداب الفرنسي توفي ابراهيم الرفاعي سنة ١٩٨٢ وأقمت معرضاً مع الخطاط محي الدين بادنجكي لمرور سنة على وفاته رحمه الله

بعد أسبوع فداومت فيها وهي تمثل الشعبانية فيها العلماء الأفاضل والأساتذة الأجلاء .

هذه المرحلة هيأت الانفتاح طبعاً على العلم والعلماء سواء كانوا ممن يتولون مهام التدريس في المدارس الشرعية أو الذين كانت لهم حلقاتهم الخاصة أو العامة في المساجد وهم أولاء جميعا الذين كانت أنفاسهم عطراً لهواء مدينتي

لقد درجت في حداثة سني بين أهل العلم الذين اقتبست منهم العلم الذي يناسب ذلك السن وترعرعت بين أهل العلم الكبار ومن كلٍ تعلمت وأفدت وكلٌّ أرشد ووجّه وعلّم .

من هذه الرياض الماتعة الرائعة انطلقت الذاكرة بصحبة اليراع تحكي الثمار اليانعة ومن كلٍ بما في حياتهم من الطيبات سطرت شيئاً من الرشحات وما من أحد إلا ويعلم أنه بذكر الصالحين تتنزل الرحمات وبشذى عرفهم تتعطر المجالس والخطرات فيهم من أنفس النفائس ولا يخطرن ببال تقديم أحد لأفضلية بل توخيت في عرضهم ترتيب الأبجدية .

رحم الله تلك الأرواح الطاهرة المباركة وهي في أعلى

إن شاء الله الكريم . (١)

الشيخ عبد الباسط أبو النصر

عالم جليل حصل العلم الشرعي في الأزهر الشريف في القاهرة حمصي الأصل انتقل مع والده العالم الرباني الجليل الشيخ محمد أبو النصر خلف شيخ الطريقة النقشبندية .

والشيخ عبد الباسط خلف والده في مشيخة الطريقة وكان يقوم بها في جامع أبي ذر بحي الجبيلة ثم انتقل فيما بعد إلى جامع العثمانية يقوم فيها بشعائر الطريقة بعد

---

١ - كل معلومة أو تاريخ مسجل لدي وبدقة وهو موثق حسب الأصول ولكن الحرب الأهلية فرضت علي النزوح وأخذت على بيتي ومقتنياتي فإن عثرت على ما ذكرت فأعيد ما كتبت وأنا الآن في النزوح الخامس أسأل الله الفرج

صلاة الجمعة من كل أسبوع ثم أنشأ زاوية خاصة به في بناء سكناه في منطقة الفرقان .

حضرت مجالس الشيخ مرات في الأماكن الثلاث المذكورة وكان لهم أتباع في حمص وحلب وبعضها إلى منبج .

وسمعت مرات بأن للشيخ مخصوصاً في أي أمر يصل إليه يزيل أي إشكال وهو الأمر المعهود في والده الشيخ محمد أبو النصر وانتقلت المسألة إلى ولده الشيخ إسماعيل وبذلك يكون الجد وابنه وابن ابنه وهو خير .

وقد لاحظت في زاويتهم الخاصة أنها مهيأة للاستقبال والضيف ولم أتتبع الأمر أبداً لأنني في ملكية خاصة وإن كان الشيخ اسماعيل زميل دراستي وصديقي .

لقد قامت هذه العائلة المباركة بعمليات الإرشاد الديني والتربية الروحية النقية الصافية والتوجيه إلى طريق الله عز وجل .

ولئن كنت التقيت الشيخ عبد الباسط مرات ومرات إلا أنه لم تكن هناك صلة شخصية بيني وبينه .

عبارة لا أفتأ أرددها دائماً وأبداً إن أهل الطريق

الحوه لهم أهل العلم فإنه علمهم يبصرهم بمواطن النور
الإيماني وينأى بهم عن منازل الزلل فيرتقوا في
مراتب اليقين ويكونوا بحق العلماء العاملين
توفي شيخنا في العقد الأخير من القرن العشرين رحمه الله

الشيخ بدر الدين أبو صالح

الشيخ بدر الدين هو ابن الشيخ ناجي أبو صالح كان
أستاذاً للتربية الإسلامية في المدارس العامة ثم انه
صار مدرساً في الثانوية الشرعية وما لبث أن تعمم ثم
انطلق في مجال الدعوة من خلال الوعظ والإرشاد
وقد مال إلى التصوف فاتصل بالشيخ أحمد الحارون الدمشقي (١)

---

١ - الشيخ أحمد الحارون دمشقي عبد معروف بالتقوى
والصلاح ومشهود له بالكرامة وله مناقب معروفة لدى
القاصي والداني وكان مقصداً للمحبين من العلماء والسالكين
من دمشق ومن الآفاق وقد قصده بالزيارة العديد من

وصار من مريديه ونسب نفسه متبعاً للشيخ رضي الله عنه فكان يتبع النسبة (المارديني) باسمه فيكتب: بدر الدين أبو صالح المارديني وقد كتب اسمه بهذا الشكل على أحد مؤلفاته وهو مقدمة في اللغة العربية قرأت الكتاب وهو جيد في موضوعه وكتب اسمه كذلك مع النسبة على لوحة كتبت فيها قصيدة الحجرة النبوية الشريفة والقصيدة نظمها أحد سلاطين بني عثمان يمدح بها السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم وقد نقشت آنئذ حول الحجرة المشرفة إلا أن هناك من أخفى على بعض عباراتها التي كانت تحمل غلواً في المدح - حسب رأيه - وأبقى على البعض الذي رأى فيه سلامة المديح لحضرة النبي صلى الله عليه وسلم وقد بحث الشيخ بدر الدين عن القصيدة بتمامها فوجدها في أحد الكتب في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت في المدينة

---

(١) أعلام علماء حلب قام كل منهم بزيارة الشيخ أذكر منهم سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين وعمي الشيخ نجيب خياطة شيخ القراء وغيرهما قدس الله أرواحهم بالرحمة.

المنورة فنقلها كاملة وكتبها له في حلب الخطاط المبدع الشيخ محمد بشير الادلبي(١) وطبعت فلمت وقد ذيلها الشيخ بدر الدين باسمه مع النسبة المذكورة ولكنه الأثر في كل ما يصدر عنه .

أنا لم أطلع على مؤلفات للشيخ بدر الدين سوى هذا الكتاب الذي ذكرت وربما كانت له كتيبات ونشرات

---

١ - الشيخ بشير الادلبي ابن الشيخ أحمد الادلبي تجمعني معه زمالة الدراسة في الثانوية الشرعية وزمالة الخط في دراستنا إياه عند أستاذنا الكبير ابراهيم الرفاعي والشيخ بشير رجل عالم أخذ الدكتوراه وحياته ما فيها فنياً وعلمياً وعملياً قضى جل حياته في الاغتراب واستقر في المملكة السعودية أكثر من غيرها ولا يزال فيها إلى الآن وقد بلغني من ابن أخته الشيخ محيي الدين البادنجكي الخطاط أنه قاله الشيخ بشير علق خطاطاً للحرم المكي الشريف أو قال بأنه كلف لتنفيذ كتابات في الحرم الشريف وعلى كل فهذا يحمد عليه هذا الخطاط المبدع .

والله أعلم .

علاقتي بالشيخ بدر الدين كانت وطيدة كأستاذ لي وربما أكثر من ذلك وقد رأيت في شخصيته أثراً للتصوف بعد تواصله مع العارف بالله الشيخ أحمد الحارون .

توفي الشيخ بدر الدين في الثمانينات من القرن العشرين رحمه الله .

الشيخ محمد ناجي أبو صالح

من العلماء المعروفين في حلب وهو من أساتذتي في الثانوية الشرعية ووالد الشيخ بدر الدين وكان الشيخ ممن يغشى مجالس الشيخ محمد النبهان فهو من محبيه وله هناك شؤون لا نذكرها لأحد .

الشيخ ناجي كان أستاذاً جاداً في قاعة الدرس يكاد لا يفوت لحظة من الدرس إن استطاع .

في الصف الثامن كان من زملائي مصطفى رشيد وكان والده سالم قد توفي وهو صغير فكفله جده

الشيخ مصطفى الذي حضر إلى المدرسة كولي أمر لحفيده وذلك بناءً على طلب الإدارة وهو رجل عالم لكنه يعمل بالتجارة .

رأيته وقد قصد قاعة درسنا فرأى الشيخ ناجي يلقي الدرس فتبسم وهو يقترب من الباب وقال: السلام عليكم التفت الشيخ إلى جهة الباب وهو يرد السلام وعندما رأى الشيخ مصطفى أشار إليه بيده أن يقف خارج باب الغرفة وقال : يا شيخ مصطفى انتظرني في غرفة الأساتذة تلك وسآتيك نهاية الدرس فقال الشيخ مصطفى : يا شيخ ناجي نسيت لما كنا رفقة في المدرسة وعندنا الحمام الشيخ عيسى و .. وقاطعه الشيخ ناجي : يا شيخ مصطفى أنت الآن تضيع وقت الدرس اذهب وانتظرني في غرفة الأساتذة ثم التفت إلينا متابعاً درسه بينما ذهب الشيخ مصطفى إلى غرفة الأساتذة .

كلما خطرت لي هذه الواقعة ومر طيفها بخيالي أرى أن الشيخ أضاع من وقت الدرس ولو يسيراً وهو الحريص على الوقت بدقائقه وثوانيه فهل كان الأمر

كذلك؟ قطعاً لا فقد كان الدرس مستمراً ولهذه الثواني بين الشيخ ناجي وبين الشيخ مصطفى هي من أثمن وقت الدرس فهو يذكر الشيخ مصطفى بأنه لا يجوز لأحد أن يقتحم وقتنا لأن الدرس بوقته محدد لنا وليس من موجب لاجتزائه إلا لأمر ضروري مسوغ شرعاً وهو درس لنا أيضاً جعلنا نفهم أن الإنسان ينبغي أن يكون جاداً بعمله وأن يعطيه كله وأنه لا ينبغي أن يستعير من وقت الدرس لأمر يمكن أن يتابع فالحفاظ على الوقت قيمة لا ينبغي أن يستهين بها أحد.

لكن هذه الواقعة تبقى شاخصة أمامي تنطق بما هو معلوم من الإجارة على الوقت وغيره فالعامل لا يستحق في العموم أجره كاملاً إلا إذا أدى عمله كاملاً سواء أكان هذا العمل صناعة كخياطة ثوب أو كان وقتاً صرفاً كالقيام بالحراسة أو كان أداء يرتهن فيه العطاء بالوقت كالتدريس وغيره ولابد من إعطاء كل أمر حقه كاملاً في الصور المذكورة وفي نظائرها حتى يسوغ له أخذ الأجر كاملاً وحلالاً لهذا هو الحق ولهذا

توجد محاسبة للنفس ومراقبة لله في العمل.

وإذا نظرنا في الهدي الإلهي وجدناه يحض لما هو أجل وأكبر حيث يذكر أن الخضر عليه السلام بنى الجدار للغلامين تطوعاً ليحفظ لهما حقهما ممن يتوقع طغيانهم. وفي الهدي النبوي نجد قوله صلى الله عليه وسلم: إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه. وفي رواية: إن الله يحب المتقن عمله ولهذا الإطلاق يفهم منه سواء كان بأجر أو بدون أجر فإن كان الإطلاق دالاً على الإتقان للعمل وإن لم يكن مأجوراً فهل من مسوغ لتقصير من يأخذ على عمله أجراً ؟ اللهم لا.

توفي الشيخ ناجي في أواخر العقد السابع من القرن العشرين وذلك قبل وفاة ابنه الشيخ بدر الدين ببضع سنوات رحمهما الله.

العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة

العالم الجليل الكبير من أعلام علماء الأمة

الإسلامية وواحد من أكابر علماء العصر صاحب الباع الطويل في علوم المعقول والمنقول صاحب المؤلفات المفعمة بالعلم والتحقيق والتدقيق والتي أغنت عن النظائر في موضوعها .

كان الشيخ واحداً من أساتذتي في الثانوية الشرعية في العام الدراسي ١٩٦٤ - ١٩٦٥ وهي السنة التي تخرجت من الثانوية ثم إن خطيب الجمعة فيها إذ هي جامع ومدرسة الخسروية كما هو معلوم ثم أطلقوا على المدرسة التسمية المناسبة لأسماء المدارس العامة .

في قاعة الدرس كان بجانبي زميلي الشيخ حامد غريب وقد بدا له في موضوع الدرس استفسار فرفع الشيخ حامد أصبعه مستأذناً فأذن له الشيخ فوقف وعرض سؤاله بدأ الشيخ بالإجابة وكلما نطق عبارة يقول الشيخ حامد صدقت قطع الشيخ الإجابة ووجه كلامه للشيخ حامد بلهجة متسارعة حتى لا يفسح له مجالاً للمداخلة وفحوى كلام الشيخ : كلما ذكرت عبارة تقول صدقت إذا كنت تصدقني في عبارة فهل أتوقع منك أن تكذبني في العبارة

التي تليها وأنت عندما تقول لي صدقت فمعنى ذلك أنك تعرف الجواب وإذا كنت تعرف الجواب فلماذا تسأل؟ لتختبر معلوماتي وإذا كنت تعرف الإجابات وتصدقه عليها فأنت عالم إذن تفضل أنت واعط الدرس بدلاً مني

لا تسل عن حال الشيخ حامد وكلام الشيخ ينهال مثل المطر ولا يستطيع أن يقول سوى كلمة أستاذ ليتبعها بعدها بكلمة اعتذار لكنه يسكت فلا يجوز أن يقاطع الأستاذ وأي أستاذ إنه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة العالم الجليل الذي ارتبطت الهيبة باسمه وارتبطت بعلمه وبطلعته البهية وبكل شيء فيه بوجهه الممتلئ بكل شيء بالبياض المشرب بحمرة بلحيته المسترسلة التي يعنى بتهذيبها بتقسيمات وجهه البهية لهذا الوجه النوراني الذي ارتسمت فيه ابتسامة أن من سنة ندية طرية لا تكاد تخفى على أحد أقول لا تسل عن حال الشيخ حامد المسكين الذي أربكه الموقف أمام الشيخ الذي تابع حديثه الآن ولكن بوتيرة عادية وبلهجة الناصح قائلاً: يا شيخ حامد أنا أعلم أن هذه الكلمة دارجة على لسانك وأنت تقولها حسب أدبياتك

وقد أردت أن أبين لك ما يمكن أن يفسرها الآخرون إذا سمعها أحدهم منك وأنا أعلم أنك لم تقصد أي فكرة مما طرحته لك الآن كل ذلك لأقول لك أنت من أهل العلم ويجب أن تنتقي ألفاظك فهناك من يتصيد ويميز وأنا أريد لطالب العلم أن يكون دقيقاً حتى لا يناله لوم من أحد أنت نطقتها ببراءة وأمانة وأنا أغتنمها لأقدم لك نصيحتي أليس كذلك؟ فقال الشيخ حامد صدقت ولهنا تبسمنا جميعاً وتبسم سيدي الشيخ وهو يقول: رجعنا إلى صدقت لكن لا بأس الآن قلتها في محلها.

لئن كان الأستاذ معطاء للعلم فإن المربي بحاله وبمقاله وبسلوكه وبإسداء النصح لتلامذته فالمربي في البيت أبواه وفي المدرسة أستاذ.

كان الشيخ هو خطيب الجمعة في جامع الخسروية يتبع الجمعة بجلسة يجيب فيها على الأسئلة والجامع ممتلئ داخلاً وخارجاً يكتب أحدهم السؤال على ورقة يتناقلها الجلاس إلى أن تصل إلى طاولة الشيخ وتراه يأخذ الورقة ينظر السؤال ونادراً ما يغفل الإجابة لكنه عادة يقرأ السؤال

ثم يبذل جهداً على سمع الحاضرين ويتوكل على الله في الإجابة إن مجلساً يضم هذه الأعداد من العباد توجد فيه المستويات الثقافية والعلمية والفكرية والمشارب المختلفة وتعرض في مثل هذه المجالس حيناً مواقف غير عادية فقد يحصل موقف فيه نوع إحراج يحتاج إلى حنكة في الكلام تكون فيه الحجة الدامغة التي تصل في أفهام كل المستويات الموجودة بالقبول والرضى والقناعة وهنا نقطة الذكاء وقد كان الشيخ يتمتع بحدة الذكاء والألمعية الفطنة واللسان الحديد في الذب عن أحكام الشرع ومن ذلك :

نظر الشيخ في ورقة فوضعها جانباً إلا أنه أعاد لها مباشرة وقرأها على الجلوس وكاتبها يقول فيها : قلت يوم الجمعة الماضي أن البيرة مشروب محرم والبيرة هي منقوع الشعير وأنا رأيي أنها ليست حراماً

قال الشيخ : قلنا في الأسبوع الماضي أنها حرام وذكرنا سبب الحرمة وأدلتها والكاتب يقول : أنا رأيي أنها ليست حراماً قال الشيخ : وأنا رأيي أن كاتب الورقة لم يستفِ الشعر أكلاً فاستساغه شرباً .

اعتقد أن كلام الشيخ هذا أدخل البهجة إلى قلوب كل
الأطباء ما عدا قلب الكاتب والسبب واضح وهو أن الشيخ
ليس مشرعاً وإنما هو ناقل للتشريع من كتاب وسنة وأقوال
صحابة وأئمة ونعلم أن علة التحريم هو دخول نسبة كحول
في تركيب البيرة وكثيره الكحول وقليله حرام بالنص ما
أسكر كثيره فقليله حرام ولا مساغ للاجتهاد في مورد النص
قطعاً ولو أن كاتب الورقة أثار شبهة انقدحت في ذهنه
جعلته يرى عدم الحرمة فأنا أعلم يقيناً أن الشيخ سوف
يعالج هذه الشبهة بما يزيلها ويوضح جانب الحقيقة وعندئذ
فالمعالجة علمية بحتة لكن كاتب الورقة يقف موقف
المشرع ويبدي رأيه ويقول: أنا رأيي أنها ليست حراماً
ومن حق الشيخ أن يقول رأيه في الكاتب كما ذكرته آنفاً.

الدين عندنا ليس رأياً وإنما هو نصوص كتاب
وسنة وأصول تشريعية على تنوعها ترجع إلى الكتاب
والسنة ومستمدة منها والأصول عندنا اعتقادية أو
عملية لا خلاف فيها قطعاً إنما الخلاف في الأحكام الفرعية
ومرد ذلك إلى أسباب عديدة منها ثبوت رواية عند إمام

لم تثبت عند آخر ومنها اختلاف الدلالة اللغوية .. إلى ما هنالك مما هو معلوم في الفقه وأصوله ولا يرجح قول عند أحد منهم إلا بالأدلة فلا شيء في تشريعنا اسمه رأي كذا وهذا كلام لا يقول به عالم إن الاختلاف في الفروع فيه سعة على الناس لأنها أحكام قد تكون يومية في بعض الأحيان وإن تقليد أي مذهب من مذاهب السنة لا حرج فيه وعندئذ يأخذ الإنسان بالحكم الذي يخرج من الوقوع في الحرج إذ إن هذا الموضوع أي رفع الحرج مما ورد مرارًا في الكتاب والسنة.

فإذا قال إنسان أنا رأيي في المسألة الفلانية كذا وكان من أهل العلم فهذا يعني رأيه من حيث الفهم للنصوص والأدلة الشرعية وليس رأيًا شخصيًا وعندها يناقش هذا الفهم وفق المعطيات الشرعية وهذا أمر علمي أما أن يقول إنسان برأيه الشخصي أن رأيه كذا حرام وكذا حلال فيحرم ويحلل على هواه فهذا مرفوض البتة لا يقبله فمصدر التشريع عندنا واحد وهو الله عز وجل فيما أنزل من كتاب وأرسل من رسول يوحى إليه وليس لغيره سبحانه

الشيخ عبد الفتاح أبو غدة

في أحد هذه المجالس كان الشيخ يجيب بما فتح الله عليه - وهو عبد الفتاح - فأتى بحديث للمناسب من الإجابة وذكر لفظه وسنده وأنه في صحيح البخاري كعادته وثبت نظر الشيخ نحو باب القبلية تقريباً - وهو يتابع جوابه - وكنت من بعض من التفت فرأيت سلفياً واقفاً داخل القبلية قريباً من بابها - فعاينه يستأذن في الكلام والكل يعرف سمت السلفي - واختصر الشيخ الإجابة وأذن له في الكلام فقال السلفي: يا أستاذ ذكرت الحديث الآن وقلت أنه في صحيح البخاري قال الشيخ نعم قال: ولكن هذا الحديث ليس وارداً في صحيح البخاري أبداً.

هذه المشكلة فما هو الحل الذي يعطي القول الفصل في الموضوع المدرسة مكتبتها عامرة لكن المنشآت الحديثة مغلقة يوم ولا وقت متسع لأن يذهب أحد إلى بيته القريب فيأتي بصحيح البخاري إن كان عنده .. ما العمل؟

قال الشيخ: هل تحفظ صحيح البخاري كي تقول ان الحديث غير موجود فيه؟ قال السلفي: نعم فقال الشيخ: إني سائلك عن حديث وسرد حديثاً يناسب الموضوع الذي

كان يتكلم فيه قبل قليل ومنطرقه يرافق بعضهم وحاورهم
وقال: هل هذا الحديث في صحيح البخاري؟ فقال السلفي:
نعم. فقال الشيخ: الله يشهد أن هذا الحديث لم يقله النبي
صلى الله عليه وسلم، وإنما هو حديث أنا أبحث عنه من عشرين
لم يعرفه صحابي ولا تابعي ولا أحد من أهل الحديث أسنده
يحفظ البخاري. ثم التفت الشيخ وأخذ ورقة فكر فيها وقرأها
فيها وتابع درسه بينما كان ذلك السلفي كان أنه مطرقا
برأسه وقد أدار ظهره وغادر من المجلس يجر خزي الجاهل المتعلق
بالسنة والحديث الشريف وعلومه فالشيخ هو من أهله فيه
وعندما ابتدع حديثاً من عنده وهو أيضاً في اللغة وعلومها
من ذوي الباع، واشتغاله بالكتاب والسنة وفقهه والاطلاع
على اللغة وعلومها أكسبه فصاحة وبلاغة ومحصولاً لغوياً
كبيراً مما جعله يلبس بكل يسر وسهولة على ذلك المدعي.
ولا عجب في هذه القصة ولا غيرها فبين الشيخ وبين
شيوخهم حروب في هذا المجال ولهم تحامل غريب عجيب عليه
فهو الكبير الذي تؤلمهم ردوده وعندما رد على شيخهم في
سورية ناصر الدين الألباني انبرى ناصر الدين بعمل مقدمة

كتاب شرح العقيدة الطحاوية الذي خرج أحاديثه طعناً في الشيخ عبد الفتاح أبو غدة وفي شيخه الإمام الكوثري وقد خصص المقدمة للرد الزاخر بالطعن وأسهب في نحو من ستين صحيفة فيا ـ فأين ذلك مما عهدناه من الردود بين العلماء الأجلاء الذين يأتون بالحجة والبرهان ويلتمسون العذر لمخالفيهم ولا ينالون من شخصه ولا من أخلاقه ولا من شيوخه فهم لا يعنيهم سوى موطن الاختلاف الذي اقتضى الرد كل ذلك للوصول إلى الحق وحسب.

لم أجد في رد الألباني تقريباً إلا التجريح بالشيخ عبد الفتاح وشيخه وأتمنى من كل مريد أن يتعلم أدب الرد أن يرجع إلى الردود في مسائل التأمين لأعظم فقهاء العصر الشيخ مصطفى الزرقا والشيخ محمد أبو زهرة وكتاب ردود على أباطيل للشيخ محمد الحامد ... رحمهم الله جميعاً

وفي هذا الموطن ـ وقد اطلعت على كلاميهما ـ أقول: ليت الشيخ الألباني رد على الشيخ عبد الفتاح بنفس أسلوبه إذ أنه لم ينتقص علم أحد ولم يهاجم شخص أحد ولا شيوخه واقتصر على نقطة الخلاف وموطن الملاحظة.

الشيخ عبد الفتاح أبو غدة

قلت إن الشيخ عبد الفتاح كان أستاذي في العام الدراسي المذكور وقد دعي إلى مؤتمر إسلامي عقد في القارة السوداء فذهب ثم ارتحل إلى السعودية وجاء في صيف ١٩٦٦ وارتقى المنبر وخطب الجمعة ليذهب بعد ذلك إلى سجن تدمر حيث قضى فيه نحواً من سنة وخرج منه بصدور عفو عام إثر حرب ١٩٦٧ فذهب إلى السعودية وأتى في سنة ١٩٧٧ وحضرت عقد قران صديق لي على ابنة الشيخ في منزله الجديد في الموكامبو وكان قبلاً يسكن في طلعة الأنصاري .

وصفت الأحداث أواخر السبعينات وأول الثمانينات بسورية قام بها الجيل الجديد من الإخوان وكان ذلك سبباً يمنعه من الحضور إلى وطنه إذ هو من الجيل القديم وتفاصيل هذه الأمور خارج المرتشات المباركة فأضرب صفحاً عنها .

ودارت عجلة الزمن إلى تسعينات القرن العشرين وقيل بأن مؤتمراً إسلامياً كبيراً أقيم وكان من المقدمين فيه الحائز على قصب السبق عالم سوري هو من كبار العلماء

والرواية تقول أن قائل هذا الكلام أحد الأشخاص من غير السوريين كانت له مقابلة مع الرئيس حافظ الأسد وأنه لفتاه بأن سورية كان لها حضور إسلامي كبير لما فيها من أفاضل العلماء .

سأل الرئيس عن هذه الشخصية الفذة وهو مثقف يحب العلماء ويجل النابهين فأتته المعلومات الكافية الوافية عن الشيخ فما كان منه إلا أن أرسل وزير الأوقاف السوري وقتها بمهمة خاصة إلى السعودية ليخبر الشيخ بأن أبواب الوطن مفتوحة أمامه وأن أعلاماً كمثله تشرف بهم كل أرض ينزلون بها فكيف بأوطانهم وكانت هذه الواقعة بحد ذاتها التكريم الكبير للشيخ .

جاء الشيخ إلى بلده زائراً فحظيت بلقائه وسلمت عليه وبعد سنتين ربما أو أكثر قليلاً جاء بزيارة قصيرة أياماً معدودة وبلغني ذلك بعد رحيله بأيام حيث لا حيلة .

من خصوصيات الشيخ اللطيفة أنه عندما كان يدرس في مصر تعرف هناك على مجلد للكتب يعتبر شيخ الصنعة هناك فكان شيخنا يأخذ كتبه من حلب إلى القاهرة لتجليدها عند الرجل

الذي غاب اسمه عن ذهني الآن فكان الرجل يقول: أول مرة أشوف واحد يأخذ كتب من بلد إلى بلد لأجل التجليد ولهذه المقولة كانت سائدة أيضاً على ألسنة الدارسين هناك وعندما كنت أدرس هناك قيلت لي فبحثت عن مكان عمل هذا الرجل وقد هديت إليه بسهولة فهو معروف ورأيته طبعاً وكان ذلك في واحدة من الحواري الشعبية المتفرعة عن منطقة الأزهر .

ومن خصوصيات الشيخ اللطيفة أن الذي يزور مكتبته يقوم طبعاً باستعراض ما تحويه هذه المكتبة العامرة وعندما يصل إلى الباب للخروج يشير شيخنا إلى آخر كتاب على الرف المقابل ويطلب من الزائر أن يسحب هذا الكتاب وينظر فيه ويمتثل الرجل فيأخذ الكتاب ويفتحه فيجد أن قلبه المفرغ يحتوي على مفاتيح المكتبة .

هذا طرف من عشق شيخنا للكتب التي نهل منها علماً بتوفيق الله حتى بلغ غاية قل من وصلها في عصره فكان الداعية الكبير والأستاذ الذي خرج أجيالاً في سورية وفي كل مكان ارتحل إليه وفي العقد الأول من القرن الحادي والعشرين بلغنا ما لا بد منه لكل مخلوق وعلى مثل هؤلاء يبكي ويناح فهم ورثة

الشيخ عوني الأخلاصي

عالم جليل أدركته وأنا بين عقدي العشرات والعشرينات وهو مجاور في العثمانية وهو واحد من يخلو له قاعة الدرس لسماع الدرس الذي يلقيه المفتي على عدد من العلماء وهؤلاء العلماء لهم أجر على حضورهم الدرس لسماعهم إياه وهذا من تنظيم الواقف وواحد من الأنشطة في المدرسة العثمانية التي شرطها الواقف وخصص لها نفقة .

كان الشيخ منزوياً في غرفته غالباً فما رأيته مع أحد إلا نادراً وربما شاهدته غير مرة عندما يخرج من غرفته للوضوء أو للصلاة أو لقاعة الدرس وقد رأيته مرة أو مرتين يجلس على كرسي في ناحية من باحة المدرسة منفرداً يتشمس وهو يتلو محفوظات من قرآن ومتون وغيرها وما استطعت أن أتعرف في ذلك الوقت على شيء من أحواله أكثر مما رأيت لأنه تردد إلى العثمانية

كان قليلاً من ناحية ومن ناحية أخرى لأنه كان دائماً في وحدته هكذا رأيته ولو أنني عرفت له مجلساً أو درساً لدلفت إليه ولكنني في ذلك الوقت لم أعرف عنه أكثر من هذا الذي ذكرت .

في واقع الأمر كنت أرى في بعض أساتذتنا ومشايخنا حب الوحدة وكنت وقتها أتصور الواحد من هؤلاء دائم التجهم فكنت أكتفي بما أشاهده عن بعد مع أنني أتمنى أن أكون قريباً منه لكن أخشى أن ألقى منه صداً علماً أنني ما رأيت من أحد منهم إلا المقابلة الطيبة اللطيفة مع من يأتي ويوماً بيوم اضمحلت الفكرة الغريبة من ذهني ومع ذلك كنت أظل بعيداً عنهم فلا معنى لأن أقترب من أحدهم دون سبب يوجب ذلك طالما أنه يحب أن يخلو بنفسه وكنت أرى في مثل ذلك نوعاً من التطفل ولهو أمر لا أريده في أربابي مع الكبار على الأقل لكن وجدت الجرأة لدي في الاقتراب من هذه بحيثه إذا وجد الموجب من سؤال أسأله أو ربما خدمة أؤديها ولم أعتب على نفسي يوماً

لهذا السلوك فاحترام الخصوصيات من الأمور الواجبة .

كان هذا الجوار الظاهر الذي يمثل لي حاجزاً أريد دائماً اكتناه ما وراءه وهذا فضول طبعاً لكنه يدفعني لمعرفة ما يفعله هذا الإنسان وحيداً مع نفسه في خلوة يقضي فيها الأوقات الطوال ولابد أن لديه ما يدفع عنه السآمة والملل لديه وأن هناك شيئاً يشغله ثم هل هو هكذا أيضاً إذا أتاه زائر أو كان عنده ضيف أو أو .. أم هو غير ذلك ؟ كنت أتشوف إلى اختراق هذا الحاجز وسمحت لي جرأتي بذلك عندما أذن الله تعالى بذلك وسيأتي ذكره عندما أتشرف بأعتاب الواحد منهم واقفاً إن شاء الله تعالى .

وأعود إلى الشيخ عوني الإخلاصي وأنا أظنه من اسكندرون أو بعض جهات تركية إذ أن الاسم واللقب يوحيان بذلك فليس في مدينة حلب عائلة تحمل لقب إخلاصي - ولصاحب اطلاع على أنساب العوائل الأساسية في حلب - وأن اسم عوني في بعض الأحيان يطلق مختصراً على من اسمه عون الله فهل اسم الشيخ عون الله أم عوني ؟ هذا ما لا أعرفه لأن للشيخ ابناً واحداً لا صلة لي به وهو من أدباء حلب

اللامعين البارزين .

انحرفت صحة الشيخ ولم أعد أراه وعرفت بالسؤال أنه

لحق بقافلة السابقين ويراودني الشك في أن وفاته

كانت في العقد السادس أو السابع من القرن العشرين

رحمه الله .

الشيخ أحمد الأدلبي

هو ابن العالم الجليل والعبد الصالح الشيخ محمد سعيد الإدلبي

ولست ممن أدرك أباه لكن الشيخ كان جاراً لنا عندما

انتقل سكننا من زقاق النور إلى جنينة الفديين وذلك

في سنة أربع وستين وتسعمائة وألف .

عرفت الشيخ رجلاً صالحاً ورعاً وكان عالماً جليلاً

وهو واحد من علماء الدرس الذي يلقيه المفتي في المدرسة

العثمانية وللشيخ مجلس قرآن مشهود في الجامع الأموي

الكبير على يمين الداخل من باب حضرة سيدنا زكريا

عليه السلام وذلك بعد صلاة الفجر في رمضان وكان

والدي رحمه الله يزور هذا المجلس مرات في الشهر لفضيل وللشيخ مجالس أخرى وكان يخطب الجمعة في جامع الموازيني(1)

1- جامع الموازيني: اسمه جامع الموازيني بناه العلامة ابن تغري بردي وقيل بناه والده تغري بردي كافل الديار الحلبية وبه استقر ابنه المعروف بابن تغري بردي في أربعينات القرن العشرين تم ترميمه ولزم الأمر فك المئذنة وإعادة بنائها روى لي ذلك من رآها بعينه وهو الشيخ محمد المخللاتي وبجانب الجامع دار لها باب إلى الجامع - وهو الآن مغلق بأثر الحرب - يسكنها الإمام وهو يحمل لقب الموازيني ولا تزال العائلة تشغل الدار إلى يومنا هذا وقد تم توجيهي للخطابة في هذا الجامع إلى الآن وفي سنة ٢٠٠٩ قام فاعل خير بعملية ترميم عامة شاملة للجامع بموافقة الأوقاف وإشراف الآثار وأزيلت منه الإضافات وأعيد إليه ما أزيل وعندما شارف على الانتهاء في سنة ٢٠١١ نشبت الحرب الأهلية فهاجر الرجل دون أن يتم وصارت منطقة الجامع مواجهة ما أسفر عن هجرة أهالي هذه المناطق وأنا واحد منهم . أسأل الله الفرج

بالقرب من داره وقد آلت الخطابة إلي فيما بعد .

في طبع الشيخ أنه لا يعطي يده للمقبل ويلبس في كفيه قفازاً قطنياً أبيض اللون والشيخ نسيج وحده .

كنت وعبد اللطيف ابن عمي الشيخ نجيب رحمه الله سائرين حول القلعة فالتقينا الشيخ فسبقنا بالسلام ووقف - طبعاً لم يسمح لنا بتقبيل يده - وقال لعبد اللطيف : إن والدك رحمه الله منتوب لي عليكم تجويد وأنا أقرأ وكان الجو معه فوالدك أستاذي وشيخي في مسألة واحدة نقرأ له الفاتحة فقرأناها ومضى كل في طريقه .

ويوماً كنت وصلاح ابن عمي الشيخ نجيب سائرين فالتقينا الشيخ في الساحة بين باب خان الوزير وباب مطبخ العجمي فألقى السلام علينا وطبعاً لم يسمح بتقبيل يده وقال لابن عمي صلاح نفس العبارة التي قالها عندما كنت وعبد اللطيف والشيخ ينسحب بعد قراءة الفاتحة مباشرة مسلماً قال لي صلاح كلما التقيت الشيخ يتكرر الموقف بعبارته ثم الفاتحة والسلام .

لقد لاحظت عند مشايخنا رحمهم الله ثناءهم على

ممن كان له فضل عليهم، وقراءة الفاتحة كما يفعل شيخنا الفاضل الشيخ أحمد الادلبي أو بنية مسألة إذا مرت مع أحدهم إذ يقول: هذه المسألة سمعتها أو قرأها شيخنا فلان رحمه الله إلى آخر ما هنالك مما تطيب به المجالس، وكنت أرى في هذه اللفتات روح الإنسان المحب لشيخه، وهل تحصل إفادة التلميذ من شيخه إذا لم تكن المحبة في الله للشيخ وللعلم قائمة.

عندما توفي والدي رحمه الله جاء الشيخ معزياً وعند خروجه وقف عندي وقال: أنا أعرف أباك أكثر منك ثم وجه الكلام إلى الواقفين قائلاً: الفقه في حلب لا أدلة لا يؤخذ عن غيرهم: الشيخ محمد السلقيني وابن خالي الشيخ عبد الله سراج الدين والمرحوم الشيخ عبد الرحمن زيادة هؤلاء ثلاثة ثم أشار بسبابته اليمنى إلى صدره قائلاً: ورابعهم، وفي ذلك إلماح إلى ما في سورة الكهف وتمتم الواقفون بكل حياء وخجل استغفر الله يا سيدي أنت شيخنا.

تهيأ لوالدي أسباب اختراع الحاجز الذي كنت أذكره والشيخ له مجالس عامة كنت أحضرها لكن هذه

المجالس لها عموميتها التي تكون ظاهرة المعالم وما أريده المجالس الخاصة فقد حصلت غير مرة من ذلك ذهبت بصحبة والدي وعمي الشيخ محمد إلى بيت الشيخ للزيارة وبنفس الوقت التهنئة بعودة ابنه الشيخ بشير من مصر حيث يدرس آنئذ وقد رحب الشيخ بنا غاية الترحيب وسر بالزيارة غاية السرور وكنت الصغير الوحيد في المجلس لأنني مع الكبار فلست بالذي يبدي حراكاً ولا الذي ينبس ببنت شفة ولكنا رأيت الشيخ وسمعته وأنا أجلس معه وراء الحاجز فكان حديثه مع زائريه بين الوعظ والسؤال عن مسألة والاستفسار منهما عن مسائل وقد لا تخلو عبارة من واحدة من اللطائف والنكتة الشفافة من روح المملوء بالسرور والحبور والملح والطرائف ما جعل جلستنا معه غاية في الأنس ولم يقبل أن يترك الابتسامة تفارق شفاهنا حتى بعدنا وحنا من عنده .

أقول في نفسي : لهذا الرجل الذي لا يسمح لك بالاقتراب منه دون أن يكون بينك وبينه نصف متر تقريباً وإذا سألته سؤالاً أجابك فبإذا تقتنع بأنك فهمت

الإجابة سلّم ومضى . هذا الرجل صاحب الطباع الغريبة كما نظنه أو نرى . هو في الحقيقة غيره عندما كان يجلس مع زواره حيث كان كما وصفت وهو كذلك مع البعض من محبيه الأتقياء . وغير واحد منهم ذكر لي هذا الوصف وخلصت إلى نتيجة واضحة وهي أن حلاوة اللطائف وشفافية الروح والأنس الأخاذ هي طبائع الشيخ التي لا تظهر إلا مع أهل العلم وأهل الصلاح والتقوى أما الآخرون الذين لا يعرف كنههم فلقاؤه بهم رسمي وبقدر الحاجة . ولولا أن النقيضين لا يجتمعان لقلت قد اجتمعا في الشيخ .

لزم الشيخ بيته لفترة أقعده فيها المرض . لم تطل هذه المدة وكان ذلك في آخر العقد السابع أول الثامن من القرن الهشيمي . يرحمه الله

الشيخ بشير الشيد

حافظ متقن وعالم المعقول والمنقول وله

بخط جيد وأحسن خطاطاً فقد رأيت خطه في مخطوطة كتبها نافلاً
بتكليف من عمي الشيخ نجيب وهي عبارة عن منظومة في علم
الفرائض للشيخ بشير الموقت الحلبي وقد شرحها الناظم نفسه
وفي ذيلها كتب الشيخ بشير بأنه قد نقلها بأمر الشيخ نجيب
خياطة وكنت أخذتها عندما رأيتها وصورتها وهي عندي
لكن عندما وقعت الأمور تحت طغيان الحرب الأهلية لا
أدري ما حل بمكتبتي وهل بقي منها شيء أم لا ولذلك فأنا
لا أعرف شيئاً عن الصورة بطبيعة الحال أما ما آل من
كتب عمي لأولاده فقد كانت هذه المخطوطة لدى ابن عمي
الأكبر رحمه وأولاده تبرعوا بالكتب للمكتبة (١) الوقفية
العظيمة التي جعلتها الحرب الأهلية رماداً متطايراً وحجارة
متفحمة وقد حصد الدمار والنيران ما يقارب ثمانين

---

١ - المكتبة الوقفية : كان مقرها الأساسي المدرسة
الشرفية ومكانها قائم إلى يومنا في مقابل الزاوية الشمالية
الشرقية لجامع حلب الكبير وقد جعلت مقراً للمكتبة الوقفية
لأكثر من خمسين سنة حيث نقلت إليها الكتب الموقوفة للمدارس

بالمائة منها فهل سلمت مخطوطة الفرافصة هذه؟

أعود إلى الشيخ بشير أحمد هذا الرجل الوادع البشوش

كانت لي معه جلسات كثيرة لا يضن فيها بعلمه ولا تخلو من

قفشاته الدقيقة الناعمة التي تبهج الحاضر والسامع والناظر

الشرعية على كثرتها وذلك بعد إيقافها وهدمها في المدرستين الشعبانية والخسروية. وفي هذه المكتبة مخطوطات نادرة جداً وقد تم تجهيز مقر جديد لهذه المكتبة بباشر الواجهة الشمالية للجامع الكبير حول هذا المقر عطية الشرف في زخرفته وفرشه وتجهيزه وحمل عبء إدارتها د. محمود مصري والطبيب حسن مجاز في الشرعية فنهض بها أيما نهضة وكنت واحداً من أعضاء جمعية أصدقاء المكتبة الوقفية التي حوت مقتنيات البعض منها ليس له نظير في العالم وفيها الاسطرلابات والخرائط والأرباع الناقصة وجهاز فلكي عمل ابن الشاطر وفيها من نفائس السجاد العجمي والخرائط الجغرافية والساعات واللوحات الخطية النفيسة. لقد أخنت الحرب الأهلية في سنة ٢٠١٣ على هذه المكتبة الكنز وعلى المسجد الأموي حيث هدمت مئذنته الشامخة منذ صدر الإسلام. رحم الله المكتبة الوقفية

لم يتوجه الشيخ بشير إلى إلقاء الدروس العلمية أو الخطابة أو الإمامة وإن كان يقوم بها أحياناً وكالة وسبحان الله كان يتكسب من القراءة في المقابر وفي أمسيات العزاء.
لقد أفدت منه علماً مسائل في الفقه واللغة وغيرها وأتمنى كثيراً أن تكون الوجهة العلمية هي المنهج الحياتي للشيخ ولكننا نقول: أقام العباد فيما أراد.
توفي الشيخ بشير أسعد في أواسط العقد السابع من القرن العشرين رحمه الله

الشيخ بشير الإجابي

رجل عالم على درجة من الصلاح كان إماماً في الجامع المعلق في حي أبو رجيج في منطقة الجلوم الكبرى أدركته في يفوعتي وهو إذ ذاك طاعن في السن ولا عجب فابنه الشيخ محمد زميل والدي في الدراسة ومع هذا فإن الشيخ بشير كان صديقاً ودوداً جداً لوالدي وقد لاحظت ذلك من لقائهما إذ إنني كنت مع والدي

الشيخ بشير الأجاقي

لا أذكر أنا شخصياً إذا كانت للشيخ حلقات علم وما سمعت أنه قام بالتدريس ومصادر معلوماتي جافة من هذه الناحية لكنني ذهبت إلى جامع المصلحه في حي أبو درجين حيث الشيخ بشير هو إمام الأوقات الجهرية وذلك لكي أسمع أداءه وهو يقرأ في الصلاة على سجيته وهذا أمر أحب المداومة عليه إن تسنى لي ذلك كي أسمع قراءة علمائنا الأجلاء.

ذات يوم كان يصلي السنة فلاحظ جلوس أحد المصلين للتشهد وقدماه منبسطتان إلى خلفه فنصحه وألقى موعظة رأيت فيها نوع حدة إن في اللهجة أو في الحكم والذي أتصوره أن هذا ليس من طبعه وكان في جملة ما قال أنه إبهام القدم اليسرى يجب ثنيها حتى تكون متوجهة إلى القبلة وإلا فسدت صلاة من يتساهل بذلك وأقول إن صفة الجلوس للتشهد معروفة معلومة وأمر كهذا لا يفسد الصلاة.

في هذا يتوقف اثنين من الأمور :

أولها : أن الشيخ عندما عاين ما يراه مخالفة ولو صغيرة تكلم ونبه بالعموم ولم يخص بالملاحظة شخصاً معيناً حتى لا يوقعه في الحرج أمام الناس وهذه الملاحظة

لأنه من الصنف أحد من العلماء ولكنهم يعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك فيقول : ما بال أقوام ..الخ دون أن يخص أحداً .

ثانيهما : ولهذا أيضاً وقتها أنه لا داعي للحدة من رجل عالم يفظ الدهاء وأنا أؤكد أن الموقف كان في منتهى اللباقة سيما وأنه في أمر شرعي وفي بيت الله والغاية هي التنبيه على أمر من أمور الصلاة لكنه ما ضر لو جاء كيننا أسلوب سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي تلقاه من رب العزة سبحانه : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وكلما ازداد الإنسان تواضعاً زاده الله رفعة وجعله قريباً من أفئدة الناس أكثر وبذلك تدخل كل كلمة منه إلى كل قلب .

هذه هي الملاحظة التي مكثت قلبي من هذا الموقف والتي ترجمانها إذا أتتك الحدة فحاول في اضمحلالها وإذا كنت متواضعاً فحاول التواضع أكثر فقد قال صلى الله عليه وسلم في إرشادنا : إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم .

وذكري انه اراد بهذه الواقعة لأذكر الطريفة التي ذكرتها لنفسي .

توفي الشيخ في أواخر العقد السابع من القرن العشرين يرحمه الله .

الشيخ محمد الأجاتي

رجل عالم من زملاء الدراسة مع والدي ثم انه التفت إلى العمل الوظيفي حيث كان موظفاً في الدائرة الوقفية وكان مفتشاً للمعاهد الدينية وبقي في وظيفته هذه إلى آخر حياته .

كان الشيخ محمد يحمل لوالدي مودة كبيرة وكنت أراها كل مدة أكبر بل ورأيتها بعد وفاته أنها كانت اكبر واكبر مما في ذهني حيث ان عدداً من كانوا طلاباً عند والدي في الثانوية الشرعية أو في الشعبانية ذكر لي كل منهم منفرداً ان والدي أمسك بيده وأخذه إلى الشيخ محمد الاجاتي مفتش المعاهد الدينية - هكذا كانت تسميته -

الشيخ محمد آل الاحلاني

ويقول له سجل اسم هذا الشيخ عندك واعطه وظيفة دينية - إمامة أو خطابة - وكان الشيخ ينفذ ذلك فعلاً في أول فرصة دون تردد وذات يوم كنت قادماً إلى البيت فرأيت والدي واقفاً أمام باب بيتنا فسلمت على صاحب الأصول وأردت الانسحاب فقال والدي قف لا تذهب والتفت إلى الشيخ وقال أعطه إمامة وخطابة فقال لا أدرك فقلت يا سيدي أنا لدي أعمال ولن أستطيع القيام بأعباء الوظيفة فقال والدي: صحيح إذن أعطه خطابة فقط وعندئذ سكت ولم أفه بكلمة وبعد أيام جاءني تكليف القيام بمهمة خطابة وكان ذلك سنة ١٩٧٤ وأنا أكتب الآن سنة ٢٠١٤ وقد مضى على هذه الواقعة نحو أربعين سنة وطبعاً أنا لم أستطع القول أنا لا أريد وظيفة الخطابة أيضاً لأنه سيقول لي: أنا كان عملك فيوم الجمعة لا عمل فيه وستؤدي صلاة الجمعة فلتكن فيها إماماً وخطيباً كان والدي رحمه الله إذا على الأقل سيكون باعثاً على الطاعة والمراقبة.

كنت واحداً ممن أسهم والدي في تعيينهم بتوجيه من الشيخ محمد وبدأت أقوم بهذه الوظيفة احتراماً لرغبة والدي ثم رغبة في أن تكون باعثاً لي على الطاعة والمراقبة أكثر وكي

هل وراء الأكمة ما وراءها . فإن كان من شيء فلابد أن يسر
الخاطر والآن وقد رحل فكيف لي أن أعرف ؟

رأيت في الأمر علاقتين إحداهما بين والدي وطلاب
حيث كانت علاقته بهم هي المحبة للعلم ولأهله علماء كانوا أو
طلاب علم وكان يسعى في مصالحهم ورأيت في الذين رغب
والدي في أن يعطوا الوظيفة - وأنا أعرفهم عن قرب - أنهم طلاب
مجدون وأخلاقيون وفقراء الحال فهل من أحد أحق بالسعي
له منهم ؟ هذه هي العلاقة الأولى قلت وهي علاقة محبة .

أما العلاقة الثانية فهي المحبة أيضاً بين والدي والشيخ
محمد آل اجاقي وبحثت في خبايا ذاكرتي وزواياها عن عماد
هذه المحبة فوجدت لها أسباباً عديدة فقد كانا أبناء منطقة
واحدة ثم كانا زملاء دراسة والمحبة بينهما أكبر من هذين
السببين وتذكرت في معرض حديث ذات يوم مع والدي حيث
قلت له إن الشيخ محمد آل اجاقي اتصل ويرغب الحديث معك لأمر ضروري
ثم سألته - وليس هذا السؤال من حقي - ماذا يريد ؟ فقال : يا بني
الشيخ محمد رجل مستور الحال ولديه اثنان من الأولاد يدرسان في
مصر وهذا الذي يجعله في ضائقة وأنا أتكلم مع أبي ليرفده بمعونة

فربما كان اتصاله من أجل ذلك لأن حديثاً بهذا الخصوص جرى بيننا منذ يومين وليس من عادة والدي البوح لأحد وثم عندما انزلقت من لسانه هذه الكلمات لم تكن سراً بالنسبة لي فأنا ابن البيت وأعرف هذه المعلومات منه أيضاً فالشيخ محمد قال لي يوماً أن اثنين من أولاده يدرسان في مصر وأنه عندما يحتاج مبلغاً من المال لا يعرف أحداً يقترضه منه سوى والدي لأن والده الشيخ بشير - وهو ميسور الحال - لا يعطيه ولا يساعده وقال لي الشيخ محمد: إن والدك ترياقه فكم من شخص حاولوا الحصول لي على مساعدة من والدي الشيخ بشير ولم يفلحوا إلا والدك فإنه ما من مرة ذهب إلى والدي إلا وأتاني بمساعدة فوق ما أتوقع لقد كان والدي يحب والدك محبة عجيبة وختم الشيخ محمد حديثه لي عن والده بكلمة أحدثت زلزالاً في قلبي وذلك عندما قال لي: إن زوجة أبي جعلته بعيداً عنا ولكن إلى متى؟ هو الآن في الثمانينات وبكرة يموت ونأخذ الأموال والأملاك ونترصع قلت: أرجو الله أن يمد في عمره مع الصحة والعافية وأن لا يجعل لنا حاجة إلا في باب الكريم عز وجل وخرجت من غرفة الشيخ في دائرة الأوقاف وأنا أقول في نفسي ما من خسارة

فعدل خسارة الإنسان أبويه أو أحدهما. أتراه يقول هذا الكلام من قلبه وهو الرجل العالم الذي علم قبل غيره أن الله قرن شكرهما بشكره فقال: أن اشكر لي ولوالديك. كما أنه تعالى جعل الإحسان إليهما أولى بعد الإيمان بالله حيث يقول عز وجل أن اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً. أم تراه يقول هذا الكلام بلسان من ألم ضميره ذات اليد؟

لو أنني فيما عرضت كنت كاتباً لموضوع لجعلت عنوان الحب والكره وأثرهما في المجتمع والفرد. لقد التقيت منذ ما يقارب شهراً الشيخ عدنان الذي نشأ يتيم الأب فكان فيما قال لي: إن والدي كان والدنا وقد أمسك بيدي وأخذني إلى الشيخ محمد آل الاحسائي وطلب منه أن يعطيني الإمامة والخطابة وأنا أقوم بها إلى الآن. وخلال أيام التقيت الشيخ عبدالله عطاء الله فقال لي نفس الكلام ونحن اليوم وقد مضى على وفاة والدي ثمان وثلاثون سنة وهم يذكرونه على أنه والدهم أليست محبته لهم ولدت محبتهم له إذ أن المحبة لا تولد إلا المحبة. ثم أليست هي المحبة من الشيخ محمد آل الاحسائي لوالدي هي التي جعلته ينفذ رغباته التي يرجع نفعها للآخرين. وأن محبة والدي للخير جعلته يسعى في فك ضائقة

الشيخ محمد ألاجاتي

محمد الألاجاتي كلما حلت به لا بد المحبة التي ألقاها الله تعالى لوالدي في قلب الشيخ بشر حيث كان يلبي طلبه بأكثر من حاجة ولده الشيخ محمد والنظر من زاوية أخرى كيف وضعت امرأة الأب بذر الفرقة والكراهية بين الأب وأولاده ما ضرها لو أحسنت كما أمر الشرع الحنيف فنالت بذلك في الدنيا - إن فعلت - محبة ومحبة أولاده وفي الآخرة محبة الله إن بذرة البغض والكراهية هذه جعلت هذا الولد وهو عالم أن ينطق بما سمعت منه ورويت .

لولا المحبة لما كانت حياة لولا محبة الأم لأولادها ورعايتها لهم وعنايتها بهم لماتوا صغاراً ولولا محبة الحيوان لفلوه وفرخ وجروه لنفق من أيامه الأولى ففي الحب الحياة وصلاحها وفي الكره فسادها وموتها .

لم ينعم الشيخ محمد بما آل إليه من ثروة أبيه كثيراً فقد توفي في أوائل العقد الثامن من القرن العشرين أي بعد وفاة والده بسنوات أقل من أصابع اليد الواحدة يرحمه الله فقد عرفته رجلاً صالحاً طيباً غفر الله لنا وله

الشيخ سامي بصمه جي

عالم متكلم وفرضي مليء كان إدارياً ومدرساً في المدرسة الشعبانية التي أسسها سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين رضي الله عنه فهو ليس من أساتذتي إذ ذاك وترى الشيخ سامي الإنسان الجاد المستلئ نشاطاً يقوم بأعماله وواجباته على وجوه الكمال وليس غريباً لهذا الأمر من عالم لأن العالم يعمل مبتغياً وجه الله في عمله ومن الطبيعي أن يكون هذا شأنه .

كان وجهي مألوفاً لدى الشيخ سامي لأنني كنت أتردد على المدرسة الشعبانية لزيارة سيدي الشيخ عبد الله كلما سنحت لي الفرصة أو إذا طلبني سيدي الشيخ ويوماً دخلت إلى المدرسة - والكل يعرفني - ووقفت في طرف الباحة قرب غرفة الأساتذة حيث يستقبل سيدي الشيخ زائريه عادة وقتها كان الشيخ في مقر الجمعية في المدرسة وهناك يدارس الشيخ أمور الجمعية والمدرسة فهي جلسة عمل لا يجوز اختراقها لكنه سيأتي إلى غرفة الأساتذة عند انتهاء الحصة الدرسية ليلتقي الأساتذة والدارسين خرج الشيخ سامي من غرفته المجاورة لغرفة الأساتذة ورآني

فطن لأول وهلة أني حضرت إلى المدرسة لأمر ما فقال لي: ماذا تأمر يا أخ؟ فقلت: أنتظر سيدي الشيخ فقال أهلاً وسهلاً وفي هذه اللحظة ظهر سيدي الشيخ فقال لي الشيخ سامي والسرور يبدو في وجه الشيخ: هذا بقية السلف الصالح حفظه الله.

كان هذا اللقاء أحد لقاءات عديدة لي بالشيخ سامي وهي ليست كافية لأن أدخل في عالمه وعالمه خاص دائماً. لكنها كنت أراه.

لقاء آخر عندما جاء زائراً لوالدي في البيت فدخلت محيياً بمقدار أداء واجب ضيافة الزائر أصولاً واستمعت قصة الزيارة من غير وقفة طويلة والمسألة كانت في ملاحظة والدي يوماً للشيخ سامي وقد ألهمه أمر والشيخ إذا لاحظ أمراً غير شرعي يحتد مباشرة ورأى والدي بهدوئه ورويته أنه يفهم ما يهم الشيخ فبينهما مودة خاصة وكانت مشكلته أنه باع داره على أنه يسلمها بموعد مضروب واشترى داراً على أنه يستلمها بتاريخ سابق لتسليم داره لفترة تكفي للانتقال إلى الدار الجديدة ومن ثم يستطيع الوفاء بتسليم داره في الموعد المتفق عليه والذي حصل أن الذي ابتاع منه الدار لم يسلمها وهذا يعني أنه لم يستطع

الوفاء باتفاقه مع مشتري داره وعدم الوفاء بلية أقضت مضجعه وانقضت مدته بسرعة وكان هذا مصدر همه وقتها وبعد أن سمع والدي قصته استأذن لتفويضه بالتوسط لحل هذا الإشكال فالرجل رفض التسليم لأنه بحاجة إلى قبض بقية قيمة داره وهذا متوقف على من اشترى دار الشيخ لأنه لم يدفع المبلغ كاملاً للشيخ والتسوية هي أخذ المبلغ ممن اشترى دار الشيخ ودفعه إلى من باع داره للشيخ لكن لماذا تأخر الرجل بدفع المبلغ أو هل كان رافضاً؟ لا أدري والمهم تمت التسوية وقبض والدي المبلغ وهو عشرة آلاف ليرة.

أتى الشيخ إلى دارنا وقبض المبلغ وكما أسلفت عندما دخلت الغرفة كان الشيخ يعد النقود.

كانت والدتي تقوم بملاحظة ترتيب غرفة الضيوف كالمعتاد بعد كل زيارة فوجدت على أحد المقاعد خمسمائة ليرة أعطتها لوالدي عندما رجع من الصلاة إلى البيت وأشارت إلى مكان وجودها على المقعد الفلاني فظن أنه هو المقعد الذي جلس عليه الشيخ وفي اليوم الثاني دخل والدي في المدرسة إلى غرفة الشيخ سامي وسأله إذا كان

المبلغ كاملاً فسكت ثم تمتم لقد قمت بعد المبلغ أمامك .. وظاهر في وجهه أنه في سريرته مالم يبح به فعاوده والدي بالسؤال هل كان المبلغ كاملاً؟ فقال: والله يا شيخ عبد الرحمن عندما قمت بعد المبلغ عندك في البيت كان كاملاً وذهبت مباشرة إلى الرجل وأعطيته إياه فكان ناقصاً ٥٠٠ ليرة فأعطاه والدي المبلغ وبين له كيف وجد المبلغ في البيت على نفس المقعد الذي كان جالساً عليه فانفرجت أساريره ولنا أن نلاحظ أن هذا المبلغ يعادل في ذلك الوقت الراتب الوسط للمدرس لمدة شهرين إلى شهرين ونصف تقريباً.

في مطالعاتي ومراجعاتي توسعت في علم الفرائض فعرضت لي بعض الإشكالات استعصى فهمها علي فكانت بعيدة عن التصور فأتيت عمي الشيخ نجيب فرضي حلب وأتيت والدي الفرضي أيضاً رحمهما الله سألت عدداً من علمائنا الأجلاء فلم ألق منهم جواباً سوى: هذه المسألة تحتاج إلى مراجعة وأنا أعلم أن هذه الإجابة مكرمة في العالم وليست نقصاً لكنني أريد الجواب فماذا أفعل؟

في السفاحية وأنا ذاهب إلى البيت يوماً نظرت يساراً إلى الشارع الفرعي للثانوية الشرعية فرأيت ظهر الشيخ سامي وهو يسير فيه فقلت في نفسي: كيف غاب هذا الرجل عن ذهني إن لقائي له في الطريق فرصتي لأنني أتصور أن مقابلتي له في الطريق وأنا أسير بجانبه تجعلني على ثقة بأنني لا أضيق عليه وقته في عمل ما فغذيت السير باتجاهه عاداً لأعود طريق البيت إلى أن صرت بجانبه قريباً من الباب الفرعي للثانوية الشرعية وهو - كعادته - مطرق برأسه أمامه لا يلتفت يمنة ولا يسرة يتلو شيئاً من محفوظاً ومع ذلك قلت: السلام عليكم فرد السلام وهو مطرق وعليكم السلام قلت ياسيدي لدي إشكالات في علم الفرائض أريد أن أعرضها عليك في الوقت الذي يريحك قال: مالي فاضي قلت: ولو في الأسبوع أو الأسبوعين دقائق معدودة قال مالي فاضي قلت في نفسي: أنا لا ألحف أبداً لكنني الآن مضطر لأنها فرصتي التي إذا أضعتها فقد لا أفلح في غيرها فقلت له: ياسيدي أنا مستعد لأي وقت تحدده في أي وقت تحدده في أي مكان ليلاً أو نهاراً فلا

بن أنه تحل لي هذه الإشكالات كل هذا وهو على مشيته لا يرفع ناظره من أمام خطوه وهو يتمتم بشيء من محفوظاته .

عندما كررت الطلب مراراً لاحظت ظهور ما أعرفه من حدته فقال بلهجة قاسية وهو يلتفت إلي : مو قلتلك ماني فاضي ووقع عندئذ نظره على وجهي فتوقف عن السير وقال : وجهك ليس غريباً علي ما اسمك ؟ قلت : أنا محمد أمين خياطة قال : نعم أنت ابن الشيخ عبد الرحمن تذكرت وتكلم بهدوء ودعة قال : يا بني لِمَ لَمْ تعرفني بنفسك يا ابني أناس بمثل هذه الطلبات لكنهم في النتيجة غير جادين لا يثابرون ولذلك لا أريد إضاعة الوقت مع مثل هؤلاء لكن أنت ابننا وأنا أستقبلك في أي وقت تريد وأنا لي وقت محدد لا أغيره وهو أني أجلس في غرفتي في المسجد بعد صلاة عصر كل يوم إلى مغربه عدا يوم السبت فأنا أذهب فيه إلى مزرعتي قلت : يا سيدي أنا لن أشغل من وقتك الكثير فربما أحضر في الأسبوع أو الأسبوعين مرة أعرض ما أشكل علي فأنا دارس للفرائض والآن أراجع هذا العلم

أعاد الشيخ قوله أنت إقالة عشرات فالمسألة حيناً واتفشرت
ابننا وشوف اللي يريحك وأهلاً وسهلاً بك في كل وقت،
هذا الموقف رأيت فيه أموراً عدة وأنا أتكلم وأعيد
وألحف في الطلب على الشيخ بكل أدب طبعاً رأيت الحدة فيه
تتصاعد ولاحظت ذلك في إجاباته المقتضبة .. مالي فأنني
رأيت رتابة سيره ونظره أمامه وهذا أمر أعرفه .. لكنه
ظل محافظاً على هذه الرتابة لأنه يتكلم مع شخص غريب ..
رأيته عند تصاعد الحدة لديه كيف تحرك هذا التصاعد عندما وقع
نظره علي .. رأيت اضمحلال هذه الحدة بمجرد سماعه اسمي
وأنني ابن صديقه حيث وصلت لهجة حديثه معي إلى الغاية في
اللطف والهدوء لقد حصل القبول أخيراً وافترقت عن
الشيخ بكل إجلال وتقدير ..

لقد اخترقت الحاجز الأول بتقدير الله وتوفيقه
والشيخ بالنسبة لي مجموعة حواجز لأنه ما من صلة شخصية تربطني
به كأن يكون أستاذي مثلاً أو يكون جاراً لنا .. الخ أما
الصداقة الحميمة بينه وبين والدي وأعمامي فهي لا تجعله
بالضرورة يعرف أولادهم جميعاً لكن الله تعالى يسر الأمر

لملمت أوراقي وراجعت مخباتي وجمعت في الفرائض إشكالاتي وذهبت عصر يوم إلى مسجد الشيخ الكائن في باب الحديد والموملاصق لباب المدينة الأثري على الشارع العام واستأذنت الدخول إلى غرفته فاستقبلني بترحاب وعرضت عليه مواطن الإشكال فأجاب وأجاد بكل تمكن وبما يرسخ في الأفهام وتكررت اللقاءات في الأسبوع مرة أو في الأسبوعين مرة وكان المجلس لا يخلو من لمحات شرعية أو عامة سريعة في غير الفرائض كنت مرتاحاً جداً فرأيتني وجدت من يرد علي حيرتي ويجمع لي شتات فكري في هذا العلم.

أمام الشيخ مرة أنا جالس أسمعه وهو مسترسل في الشرح وما أن انتهى حتى قال لي فهمت؟ فقلت له بسرعة: لا. فقال بسرعة هو أيضاً: أنت ما بتفهم فقلت له بأدب المتعلم: نعم ولذلك جئت إلى حضرتك حتى تفهمني فأعاد التقرير واستوعبت منه فقال لي: فهمت؟ قلت نعم فقال أعد ما فهمت فأعدت سكت الشيخ قليلاً ثم قال بعبارة التواضع: يا محمد أنا أحياناً تنتابني حدة لكون ذهلت مني. قلت يا سيدي أنت شيخي وأستاذي

وقد أتيت لغاية هي العلم .. وإن شئت أن تجد أصحابك لتفرك أذني فافعل .. وإن شئت أن تضربني بهذا الخيزران فهو شرف لي يسعدني - وكان يلوح جانبه قضيب خيزران - أيته يحك به ظهره في مرة - .

بعد هاتين الكلمتين اللتين أجبت بهما الشيخ رأيت أنه تغير فيما بعد عما قبل ففي الجلسات اللاحقة كان يحدثني وهو أقرب إلى كونه صديقاً بينما كان في السابق أستاذاً وحسب لقد شعرت أن هذا الموقف كسر حاجزاً آخر وجعلني أقرب إلى قلب الشيخ وصار في حديثه المباسطة والملاطفة أكثر ولنقل أن الحدة لم يعد لها وجود تقريباً .. لقد تغير الشيخ وأنا لم أتغير فأنا لا زلت جاداً في الاحترام له وللعلم أحسب كلماتي معه وأنتقيها وألاحظ حركاتي أمامه كما يقتضيه أدب المجلس من تلميذ أمام أستاذه .

لقد قلت إن حدة الشيخ تكون حاصلة إذا كانت هناك مخالفة شرعية أو أدبية أو سلوكية .. هكذا طبعه وهذا ليس نقصاً وأرى أن مرده إلى كون الشيخ وهو الرجل الصالح التقي مشفقاً ويحب ذلك في الآخرين فإن وجد غير ذلك فإن حفيظته

تحرك ولهذا تقديري حسب معرفتي السابقة به واللاحقة فعندما رأى مني الأريحية في كل الأحوال أصبحت قريباً من قلبه وأكرر القول بأن هذا تقدير مني .

ونحن في مباحثنا بعد عصر يوم شعرت وكأن للشيخ ما يؤرقه والله أعلم فهناك نوع اختلاف في طبيعته فبحت له بما يجول في خاطري فقال : والله صحيح يا محمد عندي ساعة جدارية في البيت أخذتها لأحدهم على أنه معلم جيد وأصلحها كان ذلك منذ شهرين أو قال ثلاثة ورأيتها اليوم متوقفة عن العمل فهل كان إصلاحها غير متقن ؟ وأنا أحب هذه الساعة لأنها كبيرة وأرى الوقت فيها وإن كنت بعيداً عنها ولا أدري أين آخذها للإصلاح متقن قلت يا سيدي لا تشغل بالك بهذه المسألة أنا أصلحها لك وحضرتك تذكر أنني واحد في هذه المدينة من بضع أشخاص الذكر إتقاناً للمهنة وذات يوم جاءتني ساعتك الشخصية مع والدي رحمه الله وأصلحتها لك قال : هذا صحيح فمتى تأتي لإصلاحها أم أرسلها إليك إلى البيت قلت يا سيدي أنا آتي لرؤيتها وإذا اقتضى الأمر أخذتها فهي قريبة عهد بإصلاح وأنا جاهز في الوقت الذي تحب قال : تصلي الظهر عندي غداً ؟ قلت :

أمرك سيدي أفعل إن شاء الله .

حملت معي ما يلزم من الأدوات والعدد . بدأت بفحص الساعة والعمل بها وكلانا منشغل أنا غارق في أحشاء الساعة والشيخ يخرج من الغرفة ويدخل فترة في يده الشراب البارد إذ الوقت صيفاً ثم جلب الغداء ثم الفواكه ثم الشاي وأنا أرجوه في كل مرة أن يكتفي بجلوسه وأن لا يتعب نفسه وأنا أراه ما يفتأ يعمل من تقشير للفاكهة وصب للشاي و ... وهذا الأمر كان مخجلاً بالنسبة لي فأنا أتيت لخدمة شيخي بإصلاح الساعة فظن أنه قام هو منشغلاً بالضيافة وبغاية الكرم وكدت لمرات أن أقول له : حبذا يا سيدي لو جلست وأمسكت كتاباً أو استظهرت محفوظاتك ولكن لا يجوز أن أملي عليه ما يفعل ولو على سبيل الرجاء وكنت فقط أرجوه أن يستريح وأن لا يتعب نفسه والحال هذه والشيخ رأيته ولأول مرة وهو يفيض على مسمعي الطرائف والملح والنكات والنوادر بما لم أعهده منه من قبل مع المزاح اللطيف والابتسامات العريضة التي لا تنقطع ولفرط ما أفاض على جو المجلس من السرور والحبور أنه

بعد قليل سيرقص .. لقد ابتدأت أتصور فهل هذا معقول؟ طبعاً لا ولكن صورته هذه تبين إقباله الكامل على ضيفه وينطلق معه على السجية والفطرة المطلقة التي يجليها التهذيب ويبهجها الخُلُق ويزينها العلم .. الآن رأيت الشيخ بصورة لم أستطع تصورها من قبل لو أردت ذلك .. ما هذا الكرم ما هذا الأنس ما هذا اللطف هذا الإنسان الذي أعرف صداقته للعائلة كنت لا أعرف كيف سأطلب منه أن يفيدني علماً أهو بهذه البساطة وبهذا الطيب وبهذه اللطافة؟

الواقع هذا الأمر ليس عجيباً لأنني رأيته في عديد من مشايخنا رضي الله عنهم فهم أناس طيبون كفيرهم وأكثر ويمتازون عن كرام الناس بالعلم وأخلاق النبوة وأما ما نراه منهم ابتعاداً عن الآخرين ضمن الحواجز التي أصنعها فذلك لحرصهم على الإفادة من وقتهم وفي تقديري كأن لسان حالهم يقول: إن اقتربنا منكم كثيراً أيها الناس تسببتم في ضياع وقتنا الثمين وإن اقتربتم أنتم منا لسؤال أو علم فإنكم ستستفيدون فلتستفيدوا منا دون ضياع وقتنا

الشيخ سامي بصمه جي

انتهت الإشكالات في الفرائض والوقت صيف وربما زرت الشيخ مرة أو غير مرة إلا أنه ما مضى من الوقت إلا الأيام غير الكثيرة والتي لم تجاوز فصل الصيف حتى سمعت نبأ وفاة الشيخ سامي بصمه جي وكان ذلك في سنة ١٩٨٣ رحمه الله .

تأثرت كثيراً لفقد الشيخ رغم الفترة القصيرة التي دخلت فيها عالمه الخاص الذي حسب اطلاعي لم يدخله إلا قلة قليلة لهذا العالم الذي تمنيت أن أكون فيه منذ زمن بعيد لقد كان عالماً أنيقاً راقياً جذاباً غرس في نفسي أثراً منقوشاً في الذاكرة لا أنساه ما حييت أقول رحم الله شيخي الشيخ سامي العالم الجليل المتمكن .

أرسل إلي سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين يطلبني لمقابلته وكان على علم دائماً واطلاع بأحوالي من تحصيل ومطالعات ومراجعات ودروس إلى غير ذلك حيث كلفني سيدي الشيخ بإعطاء دروس الفرائض مكان أستاذي الشيخ سامي إضافة إلى مواد أخرى كالمنطق والأدب العربي والتاريخ والشمائل . رحم الله مشايخنا وعلماءنا جميعاً

الشيخ محمد عثمان بلال

مفتي محافظة حلب عالم فقيه كان جارنا الجنب

بحيث لو فتحت باباً في غرفة في بيتنا لدخلت إلى بيته بدأ حياته

موظفاً في القصر وهو خطيب الجمعة في جامع باب المقام ثم

ان نقل وظيفته من القصر العدلي مستبدلة إياها بدرس عام

ليس (درس محافظة)(1) وكان يقوم بهذه الوظيفة في عدد

من المساجد منها مسجد الخيزراني في حي بوابة النبي .

كان الشيخ دؤوباً جداً على المطالعة والمراجعة وكان

واحداً من عدد من العلماء يجتمعون ليتدارسوا علوم المعقول

١ـ الدروس الدينية نوعان : درس محافظة والقائم به يعتبر

موظفاً لدى الدولة ويتدرج في المراتب الوظيفية كأي موظف

عند الدولة ويتبع إدارياً لمفتي المحافظة فهو موظف حكومي .

النوع الثاني من الدروس الدينية درس أوقاف ويكون

بتكليف من مديرية الأوقاف والقائم به ليس موظفاً حكومياً

وإنما هو موظف ويجيء أجره راتبه ضئيل .

والمنقول في غرفة الشيخ محمد خليل بجامع الديري (1) في منطقة سراية اسماعيل باشا وأعرف أن والدي كان من أفراد هذا الدرس الذي استمر زمناً دون أن يبلغني نبأ وجوده فلما أن أنست قيام هذا الدرس حتى ذهبت إلى الجامع المذكور وأردت أن أنقر على باب غرفة الشيخ - حيث يجلسون - واستأذن بالدخول إلى

---

١ - جامع الديري : يقع على يسار الصاعد من باب قنسرين باتجاه سراية اسماعيل باشا أعرفه مسجداً صغيراً دون باحة يدخل الداخل إلى مصلاه مباشرة ويعرف بجامع الشماع حيث كان ذمام المسجد بيد الشيخ أحمد الشماع من أعلام علماء حلب وكان جدي يحضر درس الشيخ في المسجد حسب رواية والدي وقد هدم المسجد وضموا دارا ورااه للتوسعة وأعيد بناؤه بالشكل الذي عليه الآن حيث أضيف إليه ما لم يكن موجوداً سابقاً الموضأ والمنافس وفسحة سماوية صغيرة خلفية ولها بوابة أعلى للصلاة وفيه غرفة الشيخ محمد خليل التي يعطي فيها الدرس ولها فسحة سماوية صغيرة لكنه في العلوي فسحة سماوية تم استكمالها إلى غرفة كبيرة بعد وفاة الشيخ يعطي فيها الدروس ابنه الشيخ عبداللطيف

المجلس لكنني قفلت راجعاً من حيث أتيت لأن والدي سيبادرني بسؤاله عن سبب المجيء؟ وما من جواب لدي سوى أنني جئت لحضور الدرس ولهذا سبب أخوف لأن أصول اللباقة تقتضي الحصول على إذن مسبق فالدرس خاص وليس عاماً في باحة المسجد أو صالته ثم لا يوجد بينهم من هو في سن تقارب سني لا بل أنا في سن أولادهم لقد كان الدخول محرجاً لو أنه حصل.

كان للشيخ أيضاً مدارسات ومراجعات مع والدي وعرفت لهذا من تبادلهما الكتب بشكل دائم فذات يوم قال لي والدي اذهب إلى الشيخ وائت بالكتب وكان طلب من الشيخ ثلاثة من الكتب فذهبت إلى الشيخ فلم يعطنيها إلا بعد أن استضافني في بيته وتحديداً في المكتبة وأتيت بها إلى البيت كتباً ثلاثة تفحصتها فوجدت واحداً منها صالحاً للقراءة وأصلحت الثاني وأعدت تجليد الثالث حيث أن التجليد واحدة من الصنائع التي أتقنتها وبعد أيام وعندما انتهى والدي من مراجعاته فيها أمرني بإعادتها إلى الشيخ لإعطائه الكتب ويأبى الشيخ إلا استضافتي أيضاً وفي المكتبة نفسها وتفحص الكتب لأنها

تحمل نضرة شباب وكانت عنده وجها منه عنده تتوكأ العصا لم يخف سروره فقال شيئاً اليها ما الحكاية قلت يا سيدي لأني أحب الكتب تعلمت التجليد وأنا لا أحب رؤية كتاب فيه علة إلا وأبادر إلى علاجه حفاظاً عليه فقال الشيخ مبتسماً جزاك الله خيراً هذا شيء جيد ثم قال مداعباً ليتكم تستفيدون من مكتبتي كلها فقلت : أنا يا سيدي والله بالخدمة وأعطني ما شئت لأفعل اللازم .

ذكرت الكتب لا لذاتها وإنما لأمرين تقدم أحدهما وهو موضوع المدارسات العلمية للشيخ مع معاصريه من العلماء والأمر الآخر لأقول إن الشيخ رحمه الله في شخصه البسيطة التي تشعرني أنني أتكلم أو أجلس مع أي صديق حميم لي في مثل سني على السواء عندما ألتقيه أو أدخل بيته وما أكثر لقاءاتي به ولي أن أقول إن معظم أولاد الشيخ أكبر مني سناً .

بعد وفاة مفتي حلب الشيخ محمد الحكيم تقلد منصب الإفتاء الشيخ محمد عثمان بلال وحسب النظام الوظيفي يبقى بالوكالة إلى أن يأتي التثبيت .

الشيخ محمد عثمان بلال

في إحدى جلساتي مع الشيخ محمد عثمان بلال روى لي قصة تثبيته في منصب الإفتاء فقد أرسل إليه ليذهب إلى دمشق وقابل رئيس مجلس الوزراء وقتها الدكتور عبد الرؤوف الكسم فقال له: يا شيخ أنت لست بعثياً والمناصب الإدارية العالية لا يتبوؤها إلا من كان في الحزب عضواً عاملاً فإذا انتسبت إلى الحزب يتم تثبيتك مفتياً فأجاب الشيخ الحزب سياسة والإفتاء دين وأنا رجل علم ولست رجل سياسة قال رئيس الوزراء: إذن يمكن أن نعين أي شخص بهذا المنصب وتظل أنت أميناً للفتوى فقال الشيخ: إذا كان من سيعين مفتياً لحمص أهل للعلم الشرعي فجيد وإن لم يكن كذلك فعندئذ هو إنسان إداري وعملياً سيكون المفتي هو أمين الفتوى ولن يستطيع المفتي الإداري أن يكون له وجود في أي اجتماع للمفتين أو أي اجتماع علمي ... قال الشيخ: انتهت المقابلة بهذه الصورة وكنت بعدها المفتي كما ترى.

رغب الشيخ إلي المرة بعد المرة أن يقوم بتعييني في دار الإفتاء حيث يقول لي: أريد لك أن تكون أميناً للفتوى لتكون مساعداً لي وكنت أعتذر لأنه لدي معملاً للنسيج

ومحفظا للساعات فلا وقت لدي حتى أكون في دار الإفتاء ثم حصل أن توفي الشيخ عمر مكناس أمين الفتوى فقال لي الشيخ: يا محمد ما في غيرك تكون أمين فتوى - وكان هذا طلب عندما أقعد المرض الشيخ عمر عن القيام بوظيفته - قلت يا سيدي في البلد كفاءات كثيرة قال: نعم لكن أنا أرتاح إليك وعندي ما في غيرك فكررت اعتذاري.

في الطريق التقيت فاضل - ابن عمي - فقال: يا ابن عمي هل يعقل أن تضع واسطة إلي؟ قلت وما ذاك ولأي شيء ومن الواسطة؟ قال: المفتي الشيخ محمد بلال يقول إن لك طلباً لتكون أميناً للفتوى وفرع الحزب بحلب لم يوافق عليه حتى الآن فطلب مني أن أكلم أمين فرع الحزب ليوافق قلت: إن الشيخ مريض ورفضت بسبب أشغالي .. قال إذن الشيخ هو الذي كتب الطلب نيابة عنك وأنا تكلمت مع أمين فرع الحزب فوافق عندما عرفته لقد كان أستاذك وعمي من أصدقائه فوافق عندما عرف أن هذا الطلب يخصك.

هذه الوظيفة لاحقتني حتى تعبت وكلّت وأقعدها المرض عن العمل بي وبقيت في أعمالي ولم أتقاعس عن حضور مجالس

العلم الحاصة لدى مشايخي وذات يوم حصلت

مشكلة التوقيت

ذهبت في الأيام الأولى من شهر رمضان المبارك لزيارة
خالي مساء أهنئه بحلول الشهر المبارك فرأيته في صحة انزعاج
لم تخف علي قلت له مريض فهل لمرضه شيء من الغفلة عليه
فبادرته بالقول أشد وكأن مظهرك غير دائم فهل مرد ذلك
إلى المرض؟ فقال: نعم لم أستطع إتمام صيام اليوم فأفطرت
لعدم طاقتي وبعد أن أفطرت بدقيقة واحدة أذن المغرب
فضاع النهار من أجل دقيقة واحدة وهذه مئذنة الجامع
الأموي أمامي قلت: اطرح الأسف جانبا فإن يومك
صحيح ولا قضاء عليك لأنك أفطرت بعد المغرب فالتوقيت
في رمضان لهذا كتبوا وقت الأذان فيه بعد غروب الشمس بأربع
دقائق ومن عادة المسؤول عن التوقيت محمد سريو يؤخر
الأذان بإطلاق الأذان دقيقتين في رمضان ولهذا يسمى
عنده التمكين فأنت عندما رأيت الإشارة بالأذان كان قد مضى

على غروب الشمس ست دقائق وهذا يعني أنك أفطرت بعد الغروب بخمس دقائق وصيام يومك كامل فقال : الحمد لله لقد طمأنتني .

هذه الواقعة حفزتني للإثارة فأذان المغرب في التوقيت بعد الغروب ب ٤ إلى ٧ دقائق في شهر رمضان أما الإمساك فهو قبل الفجر الصادق بين ٦ إلى ١٤ دقيقة في هذا الشهر وفي أحكامنا يكون الوقت فاصلاً بين الصحة والبطلان بدقته ولهذا إشكالان هما تأخير أذان المغرب وتقديم الإمساك فأما تأخير أذان المغرب فالواقعة التي ذكرتها والنظائر لا يعلم حصرها إلا الله تعالى وأما تقديم الإمساك فالإشكال فيه لأن في أحكامنا العملية أحوال كثيرة منها :

من لا يعطف دخله في السنة ليوفر مؤونة شهر رمضان وكان عمله شاقاً فعليه أن يتناول في سحوره ما ينهضه بأوده من طعام وشراب ودواء إن كان بحاجة ويمسك فإذا نال منه الجهد نهاراً أفطر وعليه قضاء بلا كفارة - حنفي - فإذا نهض لهذا الإنسان وسمع المؤذن يؤذن بالإمساك وقع في الحرج مع أنه لديه متسع من الوقت لبضع دقائق حسب الذي ذكرت .

ومقرر في الفقه لدينا أنه إذا كان متلبساً بالوقاع وسمع المؤذن فعليه النزع وإلا فالحكم معروف وحسب التوقيت فالوقت له والانزاع واجب .

لكن الداهية الأكبر التي نعم معظم الناس أنهم يتهاونون بالأذان بالمفطرات ويصلون الصبح بعد الأذان مباشرة فهم والحال هذه يصلون قبل دخول الوقت وبذلك يضيع أحد شروط الصلاة فتضيع الصلاة - لا أؤثم الناس فهم لا يعلمون - فما العمل ؟

ذهبت إلى الدرس الصباحي الذي يلقيه علينا الفقيه الشيخ محمد الملاح وطرحت الموضوع وما يترتب عليه من إشكالات شرعية مما تقدم في ذهني فوافقني الرأي والمسألة من أوضح الواضحات وقال : أنا أثق بعلم عمك الدكتور وأنت وابن عمك الشيخ صلاح تلميذا عمكما في الفلك موضع ثقة لذلك يجب عرض المسألة على المفتي ليقوم هذا الاعوجاج ثم انه طلب منا نحن رواد حلقة درسه الخاص أن نعرض الأمر على المفتي بأقرب فرصة سانحة .

كان الشيخ الملاح أول من التقى المفتي في الجامع الأموي

بعد صلاة الصبح في اليوم التالي فطلب الشيخ من المفتي بعد عرض الموضوع أن يقوم الاعوجاج لتسير الأمور في نصابها الشرعي وكان فيما قال المفتي أنا أؤخر صلاة الصبح هنا في الأموي إلى دخول الوقت فقال الشيخ الملاح وبقية الناس في المدينة ؟

بعد طلوع شمس ذلك اليوم بفترة قصيرة حضر شيخنا إلى المدرسة العثمانية من أجل الدرس الخامس وقص علينا ما جرى بينه وبين المفتي من حوار كان آخره متشنجاً المهم الآن أنني راجعت نفسي فقلت أنا أردت الإصلاح في أمر شرعي وقمت بما يجب علي القيام به حسب علمي واطلاعي ولم أبغ إفساد ذات البين فمن الواجب أن أحاول الإصلاح ما استطعت لتصل السفينة إلى البر بأمان .

قابلت سماحة المفتي - وكنا جارنا ولي عنده حظوة - وسألته أكثر من سؤال تمهيداً للدخول في الموضوع ثم طرحت مسألة خالية فدخل في موضوع التوقيت وإشكالاته وما جرى بينه وبين الشيخ محمد الملاح وأسهب في الموضوع وليس ذلك بغريب فبيني وبينه أريحية ومباسطات في الحديث في مواضيع شتى وأنا أصغي وأتجاوب

وكان هذا الموضوع واحداً منها وأنا أحب السماع من العلماء أكثر من الكلام ولا بأس إن استفسرت أو كان هناك تنويه وفيما قال لي المفتي : يا محمد أنا أثق بعلم عمك وهذه المسألة لا أستطيع الفصل فيها وحدي بل لا بد أن يكون عمك بجانبي وعدد من العلماء ، ونأخذ التوقيت الذي وضعه عمك والشيخ صبحي طبنجات ونجمع عدداً من العلماء نخرج عدة أيام ونلاحظ التوقيت على الرؤيا ونكتب بذلك إلى الجهات المسؤولة في العاصمة ونأخذ الموافقة وعندئذ نستطيع أن نفرضه دون أن يعارضه أحد فليس من اللائق بمنصب المفتي أن يصدر أمراً ولا يجد له صدى وأنت تعلم أن عمك عندما طبع توقيته وعممه عن طريق الأوقاف لم يأخذ به أحد حتى الآن أليس كذلك ؟ قلت بلى قال سماحة المفتي : وأنا أعلم أن الشيخ محمد الملاح صاحب العلم والغيرة الدينية لم يكن مقتنعاً بنتيجة لقائنا في المسجد الأموي الكبير وأنا كنت مضطراً لاختصار الموضوع لأن الناس تجمعوا ورأيي أن هذه مسألة علمية شرعية يتم تدارسها بين العلماء ولا ينبغي أن تكون تحت سمع العامة وبصرهم قلت : فما الحل الآن يا سيدي؟ قل لعمك يكتب كتاباً ومن ثم تتم الأمور إن شاء الله تعالى

كما ذكرت الآن وعليك كذلك أن تذكر للشيخ الملاح ما قلته لك ليعلم أني لا أتخلى عن مسؤولياتي من ناحية ومن ناحية أخرى كان اختصاري للحديث معه بسبب الجمهرة ولكن يا محمد كيف نبلغ أصحاب التقاويم وهم كثر ونحن لا نعرفهم ؟ قلت يا سيدي المسألة سهلة جداً فيمكن أن يصدر عن دار الإفتاء كتاب إلى مديرية الإعلام بهذا الخصوص والمديرية عندئذ لا تعطيهم موافقة على الطباعة إلا بعد موافقة الإفتاء وكتاب ثان إلى الجمعية الحرفية للطباعة أن لا تقوم أي مطبعة بطباعة أي مؤقتة إلا أن بعد موافقة الإفتاء والجمعية عندئذ تعمم على جميع المطابع .

لقاءان أحدهما مع شيخي الشيخ محمد الملاح وذكرت لقائي مع سماحة المفتي وما جرى من حديث فقال : جزاك الله خيراً أنت أرحت قلبي الآن فما دامت نية المفتي بهذا الشكل فأنا أدعو له بالتوفيق .

أقول والفقير لا يمكن أن تكون نية المفتي غير ذلك قطعاً فهو رئيس ديني ولهذه مهمة ولعمر العبد الصالح .

اللقاء الثاني كان مع عمي الدكتور عمر فقال يا بني أنا أخشى أن تكون أخطأت ولو في حساب وقت واحد وعندئذ يكون أمر الناس

في رقبتي. قلت يا عم أنا وابن عمي الشيخ صلاح نقوم بما تأمر به حضرتك لإنجاز هذا الأمر وإذا وضعنا احتمال وقوع حسابي في وقت من أوقات السنة فهذا أهون من المؤقتات التي بين أيدينا إذ كل أوقات السنة فيها مضطربة وتوقيت رمضان هذا شاهد مؤلم قال لا حول ولا قوة إلا بالله يا بني كن أنت وعددًا من ذوي النظر الجيد وراقبوا الأفق غروبًا وشفقًا يومين أو ثلاثة وسوف نفيد حساب الأوقات مطابقة مع الرؤيا ونرجو من الله التوفيق.

حمدت الله أن عادت الأمور إلى مجاريها في اللقاء الأول بين شيخي الشيخ محمد الملاح وبين سماحة المفتي وفي الثاني مع عمي الدكتور محمد حيث سارت الأمور ضمن منهج علمي وعملي أما بالنسبة للأشخاص فقد اخترت ثلاثة أحدهم طبعًا ابن عمي الشيخ صلاح وصديقان لهما محمد فاتح أبو زيد والحاج عدنان علبي ودام رصدنا سنة كاملة عدا أيام العلة من غيم أو مطر كانت الرؤية مطابقة للتوقيت ولم يختلف فيها سوى يوم واحد وكان الفارق فيه دقيقة واحدة فقط وهذا طبعًا ليس بالفارق الذي يذكر.

الشيخ محمد عثمان بلال - التوقيت

كنت أبلغ سماحة المفتي والشيخ محمد الملاح تباعاً بما نقوم به مع ضبط النتائج وقد بلغنا الغاية بالنسبة للرؤية والحساب ويتم التحضير للانتقال إلى المرحلة الإجرائية عند سماحة المفتي.

كان يوماً أثار الحزن في كثير من النفوس المؤمنة المحبة للشيخ الدكتور عمر خياطة ولعلمه حيث أقيمت له أمسيات العزاء في عدد من الأقطار الإسلامية يرحمه الله.

لقد تابع هذه المسألة بعد ذلك مديراً أوقاف حلب الدكتور صهيب الشامي بتنسيق لجنة من علماء الفلك وقد تم ضبط الأوقات وتصحيحها وبذلك انتظمت الأمور في الحد المقبول والحمد لله.

عوداً إلى الشيخ محمد عثمان بلال

كل المودة كان الشيخ يحملها لنا جميعاً كباراً وصغاراً وما من مناسبة تحصل في العائلة عندنا إلا والشيخ من أوائل الحاضرين حتى عندما استبدت الأيام بقواه وسلبت منه شيئاً من نشاطه وحيويته.

كم من مرة طلب أن أزوده بالكتب من مكتبتي وكم من مرة كلفني ببعض المراجعات وببعض الأمور.

لقد رأيت في الشيخ محمد عثمان بلال صورة مشرقة جداً

فقد كان هو الإنسان العادي في كل شؤونه عندما كان موظفاً وظل هو الإنسان نفسه عندما صار مدرساً ولم يتغير فيه شيء عندما صار في الإفتاء وكان هو هو عندما صار مفتياً لمحافظة حلب وأعني بقي هو هو يقوم بخدمة الناس ويسعى في مصالح قاصديه لقد عرفت هذا الإنسان لعدة عقود ونحن جيران والجار أعرف بجاره .

أعدّ الشيخ فتاواه للطباعة ونفذ أولاده ذلك بعد وفاته

نقل الشيخ سكناه إلى منطقة الموكامبو لسنوات قليلة ثم زوى عوده وانطفأ سراج عمره وكان من الراحلين في العقد الأخير من القرن العشرين يرحمه الله

الشَيخ مُحَمَّد بلنكو

عالم جليل من أعلام هذه المدينة تقلد منصب الإفتاء فكان مفتي محافظة حلب لفترتين أعرفهما فهل كان قبلهما مفتياً ؟ لا أدري لأنني كنت صغير السن وفي ذلك الوقت كان يتم شغل هذا المنصب بالانتخاب حيث يدعى العلماء أرباب الشعائر إلى اجتماع لانتخاب شخص ممن يرشحون

أنفسهم لهذا المنصب والفائز بالأصوات الأكثر ينال المنصب
كان هذا النظام متبعاً حتى أواسط الستينات ولمرة
واحدة حضرت هذا الاجتماع في قاعة المحاضرات في
الثانوية الشرعية ورأيت عملية الانتخاب بعد أن تقدم
ثلاثة للترشيح وقد فاز الشيخ بالمنصب وقتها .

وبتقاعد الشيخ محمد بلنكو ضربوا صفحاً عن هذا النظام
وكان أول مفت تم تعيينه دون انتخاب هو الشيخ محمد الحكيم
وذلك في بداية السبعينات .

كانت معرفتي بالشيخ طيبة وعلاقتي معه كذلك - حسب
سني - وقد رأيت فيه العالم الذي ابتعدت الألسن عن ذكره
إلا بكلمة صالحة ولم أسمع يوماً وقوع إشكالات علمية بينه
وبين أحد من علمائنا المعاصرين .

رأيت في هذا الرجل واحداً من الدهاة وانظر عينيه
وكأن فيها شرر يقدح لكن الذي رأيته من الواقعات
الحاصلة وما سمعته أن دهاءه وذكاءه كانا مسخرين دائماً لخدمة
المصلحة الشرعية وفي خدمة الآخرين ورأيت في طبع الشيخ
كل الوفاء في حضورهم وغيبتهم ومن ذلك حديث عرضي

وأنا أسير بجانبه قريباً من المسجد الأموي في حي خان الحرير قلت في عرض الحديث أن غرفة يشغلها أحدهم في مسجد وهناك من أراد أخذها منه - والخبر شائع - قلت يا سيدي لكن الشيخ له غرفة في مسجده وتوليت له وظيفة في هذا المسجد فما المانع إذا أخذ وها منه فربما كانوا بحاجة إليها فقال لي وكأن في عينيه الشرر وبرتابته المعهودة: لا يا محمد هذا رجل عالم والذي يريد أخذ الغرفة أياً كانت صفته فهو دون مرتبة العالم ولن أسمح لأي كان أن يأخذها منه العلماء محترمون للغاية لأنهم ورثة الأنبياء.

بمثل هذا الوفاء والمودة والمحبة نفهم الصورة المثلى التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ولنا أن نقول إنه مجتمعاً أفراده متعاضدون كما وصف عليه الصلاة والسلام ومثل هذا لا أحد أنه يتمكن من إلحاق ضيم بفرد من أفراد هذا المجتمع لقد فهمت من الشيخ في هذه الصحبة ومن حديثه العرضي أموراً جوهرية من مثل احترام الإنسان

لعالمه وأن العلم مرتبة هي أعلى المراتب وأن علينا أن نحفظ إخواننا في غيبتهم كما في حضورهم وأننا إن فعلنا ذلك كنا وإياهم جسداً واحداً. وليت شعري لو كانت لي مع الشيخ صحبة أطول ما الذي كنت سأفيده منه علماً وعملاً لا ريب في أنني سأكسب الكثير ومع ذلك أقول ما ينبغيه من علمائنا الأفاضل من العلم الصافي والعمل الصالح كله مستمد من حضرة السيد الأعظم والشرع الحنيف ونحن نرى في هذه الصفوة من خيار الناس المثل الحي والمثال القائم والقدوة التي تمسك بيدنا موجهة إلى سبل السلام الشرع الحنيف الهادي لكل الأنام.

قال لي زميلي الشيخ عبد الرحمن يوماً: هل تعلم أن الشيخ محمد بلنكو أبو عمر هو من رواد الجن أيام صباه وأنه هرب من الجن ومن ثم أعيد إليه وفيما بعد درس العلم الشرعي إذ هداه الله فتسنم منصب الإفتاء فقلت يا شيخ عبد الرحمن كون الشيخ في صباه هرب من الجن فهو الآن على كبر سنه لا تزال فيه حيوية الشباب وأما كونه دخل الجن فهو كما دخل نبي من قبله وليس من يدخل الجن مجرماً بالضرورة

دائماً كان سبب دخوله السجن فإن المرتدع لا يعيبه ماضيه فالله عز وجل في سنة التوبة وقد قال لمن أسرفوا في تقصيرهم: ثم يتوبون من قريب فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ونحن نرى خير القرون الذين رضي عنهم عز وجل صحبة سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أحد عيّرهم بما كانوا عليه من معتقد قبل دخولهم في الإسلام ونحن أنا وأنت ما من أحد يعيرنا بقصور عقلنا وتصرفاتنا الرعناء عندما كنا صغاراً لم نبلغ سن الرشد.

لم أحاول معرفة سبب دخول السجن من الشيخ عبد الرحمن فكلامي أخجله عن ذكر السبب ومنعني من محاولة السؤال عن ذلك - هذا على فرض صحته - لأنني لم أسمع بمثل هذا عن شيخنا من جهة أخرى فهو خبر آحاد ولم أوفق الآن بالسؤال عن هذه المسألة تحديداً لأن أحد مهدي الشيخ وهو محمد قدري سنجقدار هو الآن نازح إلى مصر بسبب الحرب الأهلية عندنا نسأل الله أن يرزقنا الفرج ويزيل البأس والصهر الثاني الأستاذ تركي النجار المحامي - وكلاهما زميلي في الدراسة - وقد اتصلت به البارحة قبل الإفطار إذ هو

يوم عرفة أسأل الله أن يعيده على الأمة بفضله أمانا وسخاء
ورخاء إلى يوم الدين وسألته عن معنى بلنكو هل هي كما
أعرف وسبب كونه لهذا اللقب بالعائلة وما كان لقبهم قبلها
ولم أجد لديه إجابة فهو ليس ممن يتتبع لهذه الأمور المهم
نسيت طرح السؤال الذي اتصلت من أجله وهو: هل دخل
الشيخ السجن ولماذا؟ بعد قليل قلت في نفسي لقد نسيت
طرح السؤال الذي اتصلت من أجله على كل حال الحمد
لله فهذا من توفيق الله لي أن أذكر الرشحات فقط فهي
الوصف وأن أبتعد عن السقطات إن وجدت فليس لهذا
مكانتها ولسنا نحن من دونها أو ذاكروها واكتفيت فقط
بالإشارة إليها لأقول مكررا النصح الإنسان لا يعيبه ما فيه
ولا يعير به إذا أقلع وسلك الطريق السوي وأنا لم
أذكر هذه القصة إلا لأقدم بعدها النصيحة.
كنت عندما أرى الشيخ من مسافة بقوامه الفارع الممتلئ
وأنظر إلى طلعته البهية فأرى وجها يفيض نورا أقول في
نفسي عجبا لهذا الوجه تظهر فيه مخايل الذكاء والدهاء ويظهر
فيه جمال العلم ونوره والواقع أن لقائي بالشيخ كانت من

بواعث سروري فهو ذاك الرجل الذي يحظى بالاحترام بأنواع ما يخطر في البال بشخصه وبخلقه وبعلمه وبخدمته للآخرين.

بعد تقاعده عكف الشيخ على متابعة تسيير أمور جمعية المقاصد حيث كان رئيسها منذ أن كان عقوداً عندما كان في الإفتاء وبعدها إلى آخر عمره حيث انتهى به المطاف في هذه إلى تلك وكان ذلك في سنة اثنين وتسعين وتسعمائة وألف يرحم الله الشيخ محمد بلنكو مفتي حلب.

الشيخ عبد الجواد بوادقجي

عالم جليل واسع الإطلاع وهو من تلاميذ سيدي العارف بالله الشيخ نجيب سراج الدين وكان في جملة التلاميذ الأكثر ملازمة له.

كان الشيخ منفتحاً على الناس الذين يأتونه زواراً أو طالبي علمه فهو على هذا لا يؤثر العزلة في ظاهر الأمر لكنه عملياً كان يألف العزلة إلى حد ما فقلما يخرج من غرفته في البيت من بين كتبه ويجاوز هذه الغرفة إلى غيرها

الشيخ عبد الجواد بوادقجي

مسجده أمام بيته في حي الجلوم الكبرى وهو مسجد السيد الهوته(1) فكنت لا تراه إلا وقت الصلاة وقلما يراه أحد في غير هذه الأوقات .

الشيخ عبد الجواد ليس من أهل الجفاء إذ كان الوصف المتقدم يوحي بذلك لا بل هو يستقبل زائريه ومحبيه على اختلاف مشاربهم وإذا دخلت لزيارته أول مرة تشعر بإقباله عليك وكأنك صديقه منذ زمن .

كانت للشيخ حلقات درس صغيرة جداً وخاصة جداً في غرفة بيته وقد كنت عضواً في إحدى هذه الحلقات وقد كانت حلقتنا هذه ثلاثة أشخاص فقط أنا واثنان آخران وكان الشيخ يقرأ لنا فيها فصوص الحكم للشيخ الأكبر رضي الله عنه .

---

١ ـ مسجد السيد لهوته : مسجد صغير للأوقات الجهرية الثلاثة فيه قبلية للصلاة صغيرة وشماليها فسحة سماوية بقدر القبلية تقريباً تتوسط المسجد بين القبلية وغرفة الشيخ ويقع المسجد على يسار الذاهب من منعطف الجلوم إلى العقبة في وسط الزقاق .

الشيخ عبد الجواد دبوادجي

كانت لي مع الشيخ عبد الجواد جلسات خاصة وأعني أنني أكون وحيداً عنده في أحيان كثيرة وأتوخى أن تكون قصيرة إلا إن تمسك بي وذلك لأنه أصبح قعيد الفراش عندما كسرت ساقه إلى آخر حياته ومن يكون هذا حاله فهو لا يستطيع القيام بشؤونه كلها فلا بد من ملاحظة أهل بيته الدائمة له لهذا السبب ولقد أفدت من الشيخ كثيراً في اللغة والتصوف والحديث الشريف وغيرها وكثيراً ما كان يذكر صداقته لوالدي وأعمامي ومحبته لهم حيث كانوا هم أيضاً زملاءه في التلمذة عند سيدي الشيخ نجيب سراج الدين وكان الشيخ عبد الجواد يعقب بعد ذكره لهم بقوله : وأنت جدك الشيخ الفرد وهي الرجل الصالح .

رأيت في الشيخ حبه للعلم وحبه لأهل العلم ورأيت في هذا الإنسان ملاحظة الجانب الإلهي كثيراً في دقيق الأمور وجليلها وأذكر لهذه الملاحظة لأنني ساعاتي وهو يعرف ذلك طبعاً كنت عند الشيخ ولديه ساعة جدارية كبيرة في غرفته ومعه ساعة جيبه فسمعنا صوت مؤذن المغرب فنظر إلى الساعة الجدارية وإلى ساعة جيبه وقال هذه صحيحة حسب الأذان وهذه فيها فرق دقيقة بتعرف يا محمد ليش في فرق بين

الساعتين فقلت: الله أعلم تفضلوا سيدي قال: لأنهما من صنع المخلوق فصنع الخالق محكم قلت هذا صحيح ولا شك.

تقدمت السن بشيخنا ولزم فراشه قعيداً يستقبل رواده ومنهم طلبة العلم وهم قلة كما تقدم فإن سوية دروسه لا تناسب إلا القلة القليلة جداً من طلاب العلم وظل على ذلك إلى أن ودع الفانية مرتحلاً إلى الباقية وذلك في الثمانينات من القرن العشرين رحمه الله.

الشيخ عمر بوشي

عالم فاضل وواحد من شيوخ الطريقة النقشبندية حضرت له طرفاً من درس واحد في مسجده في حارات قاضي عسكر وحضرت عنده مجلساً واحداً من مجالس الذكر رأيت في درسه ما يدل على علمه رغم أن طلابه كانوا من العامة ولكن العلم لا يخفى وأنه كان الدرس على سوية أفهامهم.

أما من جهة الطريق فعرفته نقشبندياً حسبما أذكر الآن وقد حضرت مجالسه مرات قليلة معدودة وكان الانطباع عنه في نفسي

أنه الإنسان المحبب جداً لأنني رأيته مع إخوانه في حديثه وتصرفه ببساطة الإنسان الذي يلاطف صغار أولاده ورأيته وكأنه لا يستطيع الكلام إلا إذا كان مصحوباً بابتسامة عريضة ورأيت منه لازمه حال حياته أنه له اعتقاداً في الشيخ كمربٍ فاضل ومرشد صادق وقدوة رشيدة ولمن أخا لفهم في ذلك فهو ليس غلوّاً لطالما لاحظت لهذه المخايل بحضور مرات إن بلغت الثلاث فهي ليست أكثر.

توفي الشيخ في ثمانينات القرن العشرين رحمه الله.

الشيخ أحمد عز الدين البيانوني

عالم نشيط ولدوابن الشيخ عيسى البيانوني العالم الرباني الكبير كان الشيخ أحمد عز الدين من أساتذتي في الثانوية الشرعية ولقد من ذوي النشاط في الدعوة إلى الله وقد سخر لها حياته وكان نشاطه حسب رؤيتي في ذلك الوقت أنه كان متوصراً في الدروس للدارسين الشبان وكان الشيخ يقوم لدوبالتدريس وأولاده الكبار وربما كان هناك من

بعض تلامذتهم من يساعد في إعطاء الدروس، رأيت هذا المشهد مرة واحدة لأنني ذهبت في وقت الدروس لأشاهد المسجد وفيه حلقة الدرس في قبلية مسجد أبي ذر[1] وكانت الحلقات لمستويات مختلفة وحلقات للقرآن وللذكر على الطريقة النقشبندية وكان أستاذنا الشيخ أحمد يسكن داراً داخل الجامع وهي مستقلة لكن الباب الوحيد للدخول إليها من الجامع وهذا الأمر جعل متابعة الأمور العلمية والتدريسية القائمة في المسجد يسيرة عليه وعلى أولاده وكم من مرة دعيت لزيارة مجالس هذا المسجد ولكنني لم أذهب سوى مرة واحدة للاطلاع على مجريات الأمور في المسجد وكان الذي يلحف في الدعوة علي ابنه غياث أبو النصر الذي كان في صفي

---

١ - جامع أبي ذر: في آخر الجبيلة يوصل إليه من درج العوينة ويدخل إليه من باب الحديد وهو الطريق الأقرب والجامع أثري قديم لكن عمليات الإصلاح التي أزالها جائرة حاولت إكساءه حلة جديدة فاختلط الحديث بالقديم وتغيرت الملامح نوعاً ما لكن واجهة الجامع الخارجية التي يخترقها الباب ظلت على الرونق القديم.

وقتئذ وفي طبيعتي لا أحب السياسة ولا الانخراط في الحزبيات وهؤلاء لهم توجهاتهم الحزبية لذلك علاقتي مع أبناء الشيخ زمالة الدراسة فقط وعلاقتي مع الشيخ علاقة طالب مع أستاذه فقط في الصفوف الدراسية وهذا هو السبب في أنه لم تكن هناك واقعات هامة أذكرها بيني وبين الشيخ ولم أكن متتبعاً لواقعاته الهامة مع الآخرين لكنه في العلاقات المدرسية كان أستاذاً نشيطاً معطاءً ولا أذكر مرة استخدم مقاعد الدراسة ليدعو إلى وجهته السياسية أو يستقطب أحداً من الطلاب.

بعد أن خرجت من المدرسة زرت الشيخ عدداً قليلاً من المرات وكانت زيارتي عامة أي كنت أحضر المجلس النقشبندي وهو عام وأدخل بعد بداية المجلس وأخرج قبل نهايته فما من غاية عندي سوى زيارة أستاذي ورؤيته واطمئن أنه بصحة جيدة.

في مسيرة حياته قدم الشيخ عدداً من الأبحاث مطبوعات صغيرة الحجم لتحمل في الجيب وأذكر أن إحداها كانت بعنوان (القلب) وقد كتبها بيده بخط الرقعة الذي كان يجيده لكنه يخالف فيه مخالفة واحدة فقد كانت الباء وأخواتها تشبه الياء

كتابتها في بعض الأحيان وليس دائماً بالخط الديواني .

وإن الهم المرهف الشيخ عز الدين هياب لمقامه ومكانته العلمية وتحول من قامة الممشوقة وجسمه الممتلئ ولم يرحم وقد أحسن وظل على دأب حتى انتصر على حيوية الشيخ فأذابها وأقعده في الفراش طريحاً وما زال على ذلك حتى قهر البقية الباقية من قواه فكان الشيخ يعاني من الآلام ما لا يطاق وقد عجز الآسي ومن قلاه وتلاه وكأن الدواء وجد للبلاء لا للشفاء لكنه أمر الله تعالى وقد طالت جولة الآلام هذه بالشيخ إلى أن حان موعد اللقاء بالأحبة الآخرين عند رب العالمين وكان ذلك في سبعينات القرن العشرين رحم الله أستاذنا الشيخ أحمد عز الدين البيانوني .

الشيخ شهيد الترمانيني

عالم واعظ يغشى دروسه في حي باب النيرب الكثير من المستويات الشعبية الذين يعتقدون فيه أنه من الأولياء وربما نسبوا إليه الكرامات ولهذا كانت على مستوى العامة ولهؤلاء

تؤثر فيهم العواطف غالباً ومن المعهود عند كثير منهم المبالغات في وصف من يحبونه والشيخ في الواقع ممن يلامسونه شغاف القلب عندهم لما تراه من حرارة لقاء وبشاشة وجه ولين منطقه وعذوبة ألفاظه .

في الواقع لم أحضر أي درس للشيخ فلست مطلعاً على علمه لكن حدثني غير واحد أنه رجل عالم وواعظ ممتاز وكونه واعظاً هو الذي أراه أن الوعظ اختصاص وغير من يقوم به عالم وكلما كان العالم أوسع في علمه كان وعظه أرق وأجود وأبلغ وكوني لم أحضر شيئاً من مجالس الشيخ فذاك لصغر سني وبعد المسافة وقتها بين بيتي ومسجده أضف أنني لا أعرف أوقات مجالسه لكنني أدركته ورأيته لما أسمع عنه من محبيه الكثر وقد حصل ذلك مرتين أو ربما ثلاثاً .

أما عن موضوع الولاية وما يتبعها عادة من كرامات وخوارق فهذه لا نأخذ بها من [illegible] على علاتها وإنما نطلب كلاماً فيها عليها شرعياً وقلت [illegible] قالوا : إن لم يكن العلماء أولياء لله فليس لله ولي [illegible] عالم وهو معروف بتقواه وصلاحه أما بالنسبة للأولياء وكراماتهم أنه خصوصية علمية

الأولياء

نعلم أن كل ناطق بالشهادتين ولي من أولياء الله تعالى قال تعالى: (الله ولي الذين آمنوا) وكلما ازداد المؤمن طاعة ازداد من الله قربًا وربنا تبارك وتعالى الكريم المنان قد يخص أحدًا من عباده بكرمه وفضله ومنّه وما أكثر فضل الله على عباده وعوائد الخير والفضل من ربنا على عباده كثيرة وأنواع الخصوصيات عنده لا تحصى يختص برحمته من يشاء فقد يخص هذا بما لا يخص ذاك وكل ميسر لما خلق له ونحن نخوض في هذا البحث باختصار فإننا ننوه تنويهًا ينبغي منه تصحيح المفهوم الخاطئ إن وجد عند البعض فقد سمعت في مجالس الناس من القصص عجائب مختلفة فمنها قال وهو يحكي زيارته مع ثلاثة من أصحابه للشيخ فلان في غرفة في المسجد والوقت شتاء والبرد قارس .. وعندما أرادوا الخروج أقسم الشيخ أن يجلسوا قليلًا ... انتهت وهي ساخنة - ينوه إلى أنه ... خرج من باب الغرفة لحظة ودخل وهو ... بيده ... تفاحة من البساتين وهي ساخنة فأكلنا منها

قلت يا أخي هذه القصة كذب - هكذا قلت له - فالشيخ عالم .. نعم وهو رجل صالح .. نعم وأنت تريد أن تقول لي أن الجن أو الملائكة كانوا مسخرين فأحضروها من محل صانع الحلويات أو أن الشيخ طار في الهواء واختطفها وعاد باللحظة فهذا أمر لا يصدقه أحد وهذه ليست كرامة للشيخ بل طعن فيه لأنه عمل شيئاً غير جائز شرعاً لأنه أتى بها وقدمها للضيوف دون أن يشتريها من صاحبها وهذا تصرف محرم لأنه لا يوجد تمليك أو إباحة أو إذن .. قال: لا فالشيخ بخطوة واحدة يكون في محل الحلواني ثم خطوة أخرى تعيده إلينا ويكون الحلواني رآه وسمح له بأخذها.. ..إلى آخر هذه الترهات .

في شرعنا نؤمن بأن هناك خصوصيات لعلة هي حاصلة أو لغير علة ولنسمها كرامات أو أي تسمية أخرى فنحن نريد أن نصل إلى نتيجة معينة فقد قال تعالى في أم موسى (وربطنا على قلبها) هذه خصوصية من خصوصيات كثيرة وقال في السيدة مريم (وجد عندها رزقاً) وقص علينا قصة أهل الكهف وسيدنا الخضر .. الخ .. مما هو في الكتاب الأقدس والسنة المطهرة. من أتيت على ذكرهم علينا النظر إلى نوعية الكرامة

لكل فرد وسبب هذه الكرامة والوقت الذي حصلت فيه ولماذا حصلت؟ وإذا فرضنا عدم حصولها ما الذي تصير إليه الأمور في كل واحدة؟ هذه مسألة والمسألة الثانية أنظر إلى من كانوا محل العناية والخصوصية أو الكرامة كما هو سائد. الأولى يوكابد أم موسى فهي أم نبي والثانية السيدة مريم أم نبي وكفلها نبي هو زكريا زوج خالتها والصورة الثالثة: أهل الكهف نبذوا فراراً بدينهم وأكرمهم الله تعالى بكرامات منها طلوع الشمس تزاور عن كهفهم لتنال أجسامهم منها حظاً وتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال كيلا يتأثروا بوزن جسمهم على الأرض في نومهم، الرعب الذي يلقيه على من يراهم (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً) وجلوس الكلب باسط ذراعيه بالوصيد إلى آخر ما هنالك من الكرامات والرابعة الخضر عليه السلام وهو أستاذ موسى عليه السلام الذي جاءه العلم اللدني (وعلمناه من لدنا علماً) وقال من لدنا مباشرة دون واسطة ملك أو غيره أليست هذه الاتحافات ربانية عظيمة أكرم بها هؤلاء الصفوة من العباد.

وأرى العلامة بعضهم له اعتقاد في البعض ممن في عقله مس وفي هذا عجب أنه تنسب إلى الله وضع أسراره في أمثال هؤلاء ونحن نرى أكابر الأمة صحابة سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أعقل الناس وأعلمهم.

ومن لطف التقدير الحاصلة أننا في جامع سليمان ننتظر خروج سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين رضي الله عنه من صلاة الجمعة وكان بجانبي في جملة الواقفين أحد هؤلاء المجاذيب يقف ليستجدي وبقدوم الشيخ أقبل ولهو يرى أحدهم يحاول تقبيل يد المجذوب بينما شخص آخر ينهر المجذوب ليفسح الطريق لقدوم الشيخ ولهنا توقف سيدي الشيخ وقال: هؤلاء أهل ابتلاء أكرموهم لا تحبوهم ولا تسبوهم وتابع سيدي الشيخ المسير إذن فهم أهل ابتلاء وإكرامهم مطلوب لا إشكال في ذلك أما قوله: لا تحبوهم ولا تسبوهم أي لا تعتقدوا فيهم أكثر من أنهم أهل ابتلاء ولا يحاول أحد الإساءة إليهم ونفيد القول هؤلاء ليسوا أولياء وإنما هم أهل ابتلاء أما أهل الكرامات الذين ذكرت بعضاً منهم وطرفاً مما ورد

من أكرامهم لا تجد فيهم ولا في كل ما جاء ذكره في الكتاب والسنة على شاكلتهم لا تجد المجنون فيهم ولا المخبول من النساء أو من الرجال بل هم دائمًا من صفوة خلق الله وأنا لا أدري كيف يقتنع إنسان بأن المجاذيب والمجانين هم أولياء الله وأنهم أهل كرامات لعل تخذ الله - وحاشاه - الولي ليجعل منه أضحوكة الأولاد في مظهر كث رث استغفر الله من فكر كهذا.

لقد قدمت أن من تأمل كرامات من ذكرهم ربنا عز وجل في كتابه وكذا ما ورد في السنة يجد الإنسان فيها العظات والعبر ويجد فيها منهجًا روحيًا وفكريًا وأدبيًا ومنهج حياة لنا جميعًا كيف وهو القائل سبحانه (لقد كان في قصصهم عبرة) أي في كل ما قص علينا من أخبار الأمم السابقة أو الأنبياء أو الأولياء .. الخ

قصة الكنافة على لسان الشيخ عبد الفتاح صديقي وأنا لم أكن موجودًا وسردتها لكن قصة حصلت معي بالذات فآثرت ذكرها قال لي صديقي الشيخ عبد الرحمن ونحن سائران ها قد وصلنا قريبًا من دار الشيخ فلان فما رأيك في زيارته؟

قلت: لا بأس فقد رأيته يوماً مرة أو مرتين لكنني لم أجلس معه فلا مانع من سماع حديثه والشيخ المقصود رجل كفيف وهو شيخ طريقة وليس من أهل العلم ..

واستقبلنا الشيخ في بيته بالترحاب فهو يعرف صديقي الشيخ عبد الرحمن والحديث مجاملات والوقت صيف والجلوس في صحن الدار تنسم الهواء العليل ولا أحد في الدار عنده وقتها سوى زوجته التي قدمت لنا شراباً بارداً مرحبة بنا بحشمة الكبار ونحن في سن أولادها.

ظل الحديث عاماً بينهما وليست لي من غاية سوى لقاء الشيخ والتعرف إليه والزيارة كانت عارضة غير مقصودة كما عرفت .. غمزني الشيخ عبد الرحمن بطرف عينه أنه انتبه فهو سيطرح أمراً مع الشيخ فقال عبد الرحمن: يود(1) احكِ

---

1 - يود: أصلها في عاميتنا يوب و يوب مأخوذة من لفظ أب في اللغة والاشتقاقات عجيبة ليس لها من ضوابط سوى [redacted] ولفظ يود سمعته من كثيرين من العوام عندنا لكنه اضمحل فلم يطرق أذني منذ سنوات.

لنا كيف حاربت إسرائيل في قناة السويس؟ فتبسم الشيخ وقال: اسكت يا شيخ عبد الرحمن وخليها مستورة الله أمر بالستر فقال صديقي: يا شيخي الله أمر بالستر نعم لكن هذه مكشوفة فهناك من جيشنا عسكر شافوك شايل السيف وعم بتحارب عند القناة ولولا أنت واقف في وجه إسرائيل كانت وصلت القاهرة (1)

١- الشيخ عامي ولا ثقافة لديه وعبد الرحمن جعل صيغة سؤاله متأرجحة بين حربين: الحرب الأولى في سنة ١٩٥٦ عندما أمم جمال عبد الناصر قناة السويس فنشبت الحرب من أجلها بين مصر من جهة وبين انكلترا وفرنسا من جهة لأنهما تملكان معظم أسهم القناة تعضدهما إسرائيل. أما الحرب الثانية فهي حرب ١٩٦٧ وكانت بين سوريا ومصر والأردن مع إسرائيل خسرت فيها سوريا هضبة الجولان وخسرت مصر سيناء وخسرت الأردن الضفة الغربية. والشيخ يعلم فقط أن حروباً جرت بيننا وبين إسرائيل والشيخ عبد الرحمن يقول عسكرنا في سوريا رآه يحارب في قناة السويس وهذا طبعاً غير معقول ثم إن الشيخ أعمى يقاتل بسيفه دبابات وطائرات وكلامه يوافق حرب ٥٦ لأن مصر وحدها كانت ⟸

فقال: هذا صحيح يا شيخ عبد الرحمن لكن نحن ما بيصير نحكي نحن مأمورون بالستر ... والحديث يجري بهذا الشكل وأنا أحسب في ذهني أن المشركين في بدر كانوا نحواً من ألف فأرسل الله عز وجل خمسة آلاف من الملائكة وحروب اليوم جيوشها عشرات الآلاف ولهذا يعني نزول مئات الآلاف من الملائكة لا رجلاً أعمى يحمل سيفاً مع يقيننا بأن النصر من

في الحرب من بين الدول العربية ولو أن كلامه يوافق حرب ٦٧ لكان من الأولى أن يحارب في الجبهة السورية أو إذا كان كما يصور نفسه لتنقل بسيفه في الجبهات الثلاث سوريا والأردن ومصر .. ومع ذلك خسرت الدول الثلاث في الحرب رغم أن الشيخ يحارب وإن كان الأمر على القناة فقط فإن مصر خسرت حربي ٥٦ و ٦٧ فباءت ولاية الشيخ بالخسارة لمصر في الحربين ونظرت إلى هذا الموقف البائخ وأقول في نفسي إن الملائكة التي نزلت في بدر موجودة فهل من حاجة لهذه الترهات وأشرت لصديقي بالقيام فقال لي ماذا تريد؟ فقلت: أريد أن أرى السيف فانقطع الكلام

عند الله بلا سبب إن شاء أو بأي جند من جنوده (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وإذ أشرت لصديقي بالقيام قال لي بصوت مسموع ماذا تريد؟ قلت: أريد رؤية السيف فانقطع الكلام ونهضنا نمشي باتجاه الباب وقبل أن نخرج قال الشيخ عبد الرحمن: يود ما شفنا السيف قال: يا شيخ عبد الرحمن مثل ما عطوني إياه أخذوه لأنه انتهت الحرب. وفي نفسي قلت: من الجهة التي أخذت السيف ترى كم سيفاً عندها ألم تقرر لهذه الجهة استعمال الأسلحة النارية والذرية وفي خواطري التي قطعها الشيخ عبد الرحمن بقوله وقد صرنا على مسافة من بيت الشيخ ما رأيك؟ قلت: كلام الشيخ ينطلي على العوام وأنا رأيته لا يميز في حديثه بين العوام الذين يأتونه وبين واحد من العلم الذين يميزون الخبيث من الطيب.

شتان بين عطاء الله ومنحه التي تفيض وتفيض مواعظ وعبراً وحكمة وبين الادعاءات والتخرصات التي لا تجد فيها إلا ما يثير الشفقة على أحوال السذج والبسطاء الذين نتمنى أن يكون لديهم الفهم لدينهم فهماً صحيحاً وأن يجيرنا الله من ادعاءات المدعين. وأعود إلى الشيخ شهيد

الشيخ شهيد رجل عالم كما قيل لي فأنا لم أحضر مجلساً لكنه واعظ ويلقي الدروس وقد عرف بالتقوى والصلاح أما بالنسبة لما ينسبونه إليه من كرامات فهذا ما لا أعرفه شخصيّاً عنه وإنما أذكر ما أسمعه .

التقيت الشيخ شهيد حول القلعة يوماً يسير وئيداً فأتيت وسلمت عليه وقبلت يده فقال لي : أنت متزوج ؟ قلت : لا - وكنت وقتها في أول مراحل الدراسة بعد الابتدائية - فقال : ستتزوجك ويأتيك أربع صبية وتابع الشيخ سيره .

كانت النبوءة ذات بندين أولهما الزواج وثانيهما : الخلفة بأربع صبية قلت كوني يافعاً وقتها كان أخي في السنة الأولى من عمره أو الثانية وتحققت النبوءة بعد ما يقارب نحواً من ربع قرن لكن على الشكل التالي البند الأول وهو الزواج فالذي تزوج هو أخي أما أنا فبقيت عازباً إلى الآن وأنا أكتب وقد جاوزت السبعين من العمر بأشهر قليلة بقي البند الثاني من النبوءة وهو الصبية الأربع وقد تحقق هذا البند لكن لأخي وليس لي طبعاً لكن لا بأس فالعزاب وبكل لوعة أقول ليت أن هذا البند ظل كما قال الشيخ أربعة

فقد سلبتنا الحرب الأهلية عبد الرحمن وهو أكبرهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ونسأل الله أن يزيل هذه الغمة عن الأمة ويفرج هم العباد إنه على كل شيء قدير.

رأيت الشيخ شهيد مرات ليست كثيرة فترك في نفسي الانطباع أن من العلماء الربانيين وهو من عباد الله الصالحين يشهد على ذلك المحبة التي ألقاها الله له في قلوب العباد ورغم مرور عقود على وفاته أشعر بالأنس عندما أذكره وأترحم على هاتيك الروح الطيبة التي فارقت دنيانا في أوائل الستينات من القرن العشرين رحم الله الشيخ شهيد الترمانيني.

الشيخ وليس جبارة

رأيت فيه أثارة عندما كنت طالباً في مدرسة الحفاظ لفترة قصيرة جداً في أواسط الخمسينات بعد المرحلة الابتدائية وبعدها رجعت إلى مكتب الشيخ بدر الدين طحان وحفظت القرآن عنده.

كان الدوام في هذه المدرسة من الساعة السابعة صباحاً إلى الحادية عشرة قبل الظهر لأن بعض الطلاب وحتى الأساتذة

لديهم إجازة ولهذا الدوام على قسمين فالأول منه لسماع الحفظ الجديد لواجب اليوم والمسؤول عن هذه الفترة الشيخ وهو حافظ متقن وكانت إمامته في جامع العبارة ومجريات هذه الفترة تقضي بأن يستمع من كل طالب ما حفظه لهذا اليوم وكان المقرر أن يحفظ كل واحد في كل يوم صحيفة على الأقل فإذا كان الحفظ جيداً انتقل الطالب إلى التالية في اليوم التالي وإلا بذل الطالب جهده في ضبطها فإن ضبطت وإلا وجب عليه ضبطها مع الواجب الذي سيقدمه في اليوم التالي .. وهكذا .

كان الشيخ ديب مسؤول سماع الحفظ ويعطي أحكام التجويد ويدقق عند الاستماع على أحكام التجويد كثيراً وكان الشيخ يؤديها بإتقان عندما يصحح اللفظ لأحدهم وعرفت فيما بعد أنه أبو تقان وإن كان بالتلقي ومحاولة ضبط ما تلقاه الإنسان إلا أن خلقة الفم وما فيه لها الدور الأهم فإن خلقة الفم سليمة فأداء صاحبه يكون أجود من فمه غير ذلك سواء بسبب الخلقة أو تكوين الأسنان أو الشفتين أو اللسان .. الخ فلاحيلة مع الآفة كالألفت والأخنف ومن على شاكلتهما فقد رأيت أحدهم يلفظ التاء كافاً فيقول

إذا جاء نصر الله والفتح .. الخ وهذه العلة في اللفظ من أندر ما سمعت من آفات النطق وأغربها ولم يكن في الحفاظ عندما كنت أحد من هذه الفئة أو صفة نطقه غير سليمة .

بقي الشيخ وليس في هذه المدرسة إلى أن توفي عمي الشيخ نجيب وهدمت المدرسة في الستينات وكنت أحياناً أصلي وراءه في جامع العبارة وأقبل عليه بالتحية والسلام فقد كان أستاذ طفولتي وأنا الآن في سن الشباب بينما هو فقدها وذهبت به الأيام إلى الشيخوخة حيث اضمحلت تلك الحيوية الفياضة التي أعرفها فيه وهذا هو الحق من عند الحق سبحانه (ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة) وهي المحطة التي حط شيخنا فيها الرحال حيث توفي أوائل سبعينات القرن العشرين .

وذات يوم في أواسط الثمانينات سمعت أحد طلابي في قاعة الدرس ينطق باسم الشيخ وكنت أدرس الخط العربي تكليفاً من مديرية الثقافة نظرت إليه فقدرت أنه من عند وفاة الشيخ نحواً من سبع سنين فمن أين أتى اسم الشيخ على لسانه؟ قلت : تعرف الشيخ وليس جبارة؟ قال نعم هو جدي لأمي

قلت: يرحم الله فهو أستاذي في مدرسة الحفاظ،

كنت التقي لهذا الطالب وكلما لحظت سانحة كنت أقول له إنه جدك أستاذي فلنقرأ له الفاتحة ثم إني ميزت سبطي الشيخ بالعناية والاهتمام قدر الاستطاعة والإمكان احتراماً مني لجده واعترافاً بجميله يرحم الله أستاذي الشيخ ويس جبارة.

الشيخ محمد زين العابدين جذبة

عالم من أفاضل علمائنا وأجلائهم متمكن في علمه وضابط لحفظه لم أدرس عليه قط إلا أن جدي وجدي كانا يحضران في جامع أبي يحيى الكواكبي في حي الجلوم الصغرى وكثيراً ما ذكراه لي الشيخ مراراً لكن لقائي بالشيخ صار وثيقاً أكثر عندما صرت مدرساً في المدرسة الشعبانية وهذا أمر طبيعي بسبب اللقاء الدائم أما قبل ذلك فكانت المعرفة بيننا عادية وإن كنت أذهب في بعض الأحيان للصلاة وراءه في مسجده في زقاق الدولاب الذي يدخل إليه بعد جامع الحموي بنحو ثلاثين متراً وكذلك من حي البياضة حيث

بين هناك يواجه بيت القصبجي(1).

عرفت الشيخ في سن مبكرة جداً عندما رأيته في بيت عمي الشيخ نجيب حيث يقام مجلس للمولد النبوي الشريف وكان الشيخ حاضراً على شدة حضوره وكلفوه بقصيدة بعد وصلة مدائح فاعتذر

1- القصبجي: لقب اشتهرت به عوائل عدة في مدينة حلب ليسوا أقرباء بالضرورة لأن هذا اللفظ اسم لصناعة القصب وهي صنعة معروفة لكن هذه العائلة التي كانت تسكن أمام دار الشيخ هي نفسها التي ارتحل منها الشيخ علي القصبجي أو والده ربما إلى مصر حيث كان الشيخ علي على رأس فرقة إنشاد ولديّ تسجيل بصوته ومعه فرقته والشيخ علي هذا هو والد محمد القصبجي المعروف بأنه واحد من أعظم الملحنين في الشرق وقد توفي في سنة ١٩٦٤ وقلة قليلة نادرة من الناس في زماننا بل وفي زمنه يعرفون أن أصله من حلب.

لكن في الشيخ قال قصيدة وهي المرة الوحيدة التي سمعته فيها منشداً فهو لا يرغب أن يعرف بغير صفة العالم سمعته وأنا في تلك السن لم أكن قد درست الموسيقى فلا أستطيع تقدير المستوى الفني لأداء الشيخ لكن تتبعت الموضوع وسألت تباعاً هل الشيخ يعرف الإنشاد حتى كلفوه بالقصيدة فجاءتني الإجابات بأنه عالم موسيقي ومن هذه العائلة أفذاذ في هذا الميدان فمن الشيخ صالح الجذبة من شيوخ الإنشاد في عصره وهو صاحب السفر النادر الذي سماه : سفينة الألحان وأصولات السماع(1)

---

1 - سفينة الألحان وأصولات السماع كتاب ألف الشيخ صالح الجذبة أحد عمالقة الإنشاد في عصره والكتاب معروف باسم سفينة الشيخ صالح وضع فيه الشيخ النغمات بأصولها وما ينتج عنها من فروع كما وضع فيه أصول رقص السماع حسب الإيقاعات الأصلية والمركبة وتزامن الحركات واتجاهاتها وإذا كانت مع الخطى أو بدونها وذلك مع كل ضرب من ضروب الإيقاع على اختلاف زمنه والكتاب هذا وثيقة نادرة لحفظ السماع وقد حصلت على صورة لهذا الكتاب وهي محفوظة عندي .

وكذلك أسعد سالم مطرب وعازف لهو سبط الشيخ صالح الجذبة والمهم أن شيخنا لهو ابن العائلة لهذه والإنشاد ليس غريبًا عنه بل ولهو عالم بهذا الفن .

عُرِف شيخنا بعلوم المنقول والمعقول ولهو لا يريد أن يُعرف عنه غير ذلك لأنني عندما كنت فيما بعد النقيب في الحضرة الشعبانية وأنا مدرس لهناك سألته سؤالاً بسيطًا جدًا في لهذا الفن وعلى انفراد بيني وبينه فأشار بملامح وجهه ولهو يبتسم إشارة يمكن أن تفهم منها أنه لا يعرف أو أنه لا يريد الإجابة على أسئلة كهذه أو لهناك ما لهو أنفع لنا من لهذه الأمور .. الخ وسكت لهنيهة ثم دخل في حديث آخر مفيد في الواقع تمنيت لو أنه أجابني عن السؤال وأنا لم أطرحه إلا للتوسع في مجال الأحكام لأنني عندما سألته السؤال البسيط كنت دارسًا للموسيقى علمًا وعملاً وحفظًا وقراءة وكتابة وأنا واثق ليس قارئًا فيها وكاتبًا أي لا يعرف النوتة ولا الصولفيج لكن إحجامه جعلني أحجم عن التفكير باختراقه لهذا الحاجز احترامًا لوقاره وسنه فهو شيخ جدي وجدتي .

زرت الشيخ في بيته وشرفت بزيارته لبيتي ولم أحظ

بالجلوس معه بأكثر من غرفة المدرسين في الشعبانية عندما تكون له فيها حصص درسية والرغبة مني دائمة في أن أتمتع بالجلوس والاجتماع والاستماع لكل علمائنا الأفاضل لكن الاجتماع مقدر كما نعلم .

كانت أمور الشيخ رتيبة جداً في تصرفاته وفي ألفاظه وفي برامج وقته وكان يخصص يوم السبت لنفسه فيه يزاور ويذهب إلى قرية أورم حيث لديه هناك أرض فيها بيت يقضي فيه نهاره فيقرأ القرآن الكريم غيباً ويعيد محفوظاته من متون وغيرها ثم يعود مساءً إلى بيته وقد ظل الشيخ على ذلك إلى آخر حياته .

لقد كان الشيخ أستاذاً لأجيال من العامة ومن الدارسين للعلوم الشرعية في مدى عمر تقاصر عن قرن من الزمان ولئن لم يكن من أساتذتي في قاعة درس إلا أنني غنمت فرصاً كثيرة للإفادة من علمه ولي في شخص أمثولة عجب أراها في كل أحواله فهو رتيب عجيب بجوانب الحس رتيب في إشارات يديه أو أصابعه رتيب في كلامه إن تكلم في علم أو أجاب على سؤال أو تكلم في أمر عام

رتيب في نظره إن كلمك أو كلمته أو كان كلامه رتيب في سمعه يعرف كيف يستمع إلى محدثه، كما تقتضيه الأصول من الاهتمام رتيب في مظهره غاية الرتابة سواء في شخصه أو في لباسه كان رتيباً في مواعيده ولا أذكر أنه يوماً تأخر عن موعد سواء كان موعداً عاماً أو لمواعيد المدرسة لقد كان شيخنا رتيباً في كل شيء ويتمتع بالوقار المحبب وهو إلى جانب ذلك صاحب اللطائف التي تدخل نوعاً من البهجة وأطرافاً من السرور إلى مصغٍ إليه وكانت حاله واحدة من المواد المراقبة التي يجب على الإنسان أن يتلقاها في مدرسة الحياة .

نماذج ذهبية تنتجها مدرسة النبوة بما حباها الله من فتوحات وأسرار وشموع تضيء درب التائهين الحائرين وتزيد المذين اهتدوا الهدى لقد وصلت هذه الشمعة إلى الغاية فدنت في أجل محتوم معلوم في النصف الثاني من العقد الأول من القرن الحادي والعشرين رحم الله الشيخ محمد زين العابدين جذبة

الشيخ عاكف حبال

عالم متمكن حفوظ تجمعنا الجيرة والنسب فأما الجيرة فلأنه سكناه في شارع جودة الذي يتفرع عن زقاق النور حيث بيتنا وذلك في حي الجلوم الصغرى ثم إن بيته ملاصق لبيت عمي الشيخ نجيب وأما النسب فلأنه زوج إحدى بناته من خؤولتنا .

للشيخ درس عام لا أعرف أين مكانه إلقائه وله إمامة لا أدري في جامع الحي وخطبته أيضاً لذلك فقط كنت أراه في الحي خارجاً من بيته أو داخلاً إليه ولم أكن أراه في أي مجلس سواء في مجالس عائلتنا العامة أو مجالس الأغربين التي كنت أغشاها وقلت إن داره ملاصقة لدار عمي الشيخ نجيب ولدي مجلس المولد النبوي الشريف يوم الأحد قبل أن ينقل سكناه إلى سبيل الحسني حول القلعة .

في حياة الشيخ قصة زواج تذكر للملاحظة فقد تزوج الشيخ في أمان الله وهو في وداعته المعهودة وحياته الرتيبة جاءت امرأة من زيارة بعيدة للأبن في المغترب وتسأل بطبيعة الحال عمن تعرف وعن أحوال هؤلاء الناس وكان في جملة ما قيل لها أن الشيخ عاكف تزوج من فلانة لعهد قريب فقالت:

كيف وهي أخته من الرضاع فلما بلغه ذلك فارقها فوراً ثم إنه تزوج وأنجب فطامة ابنة البكر عمر أكبر مني سناً وكانت هذه الواقعة وما شابهها إحدى إشكالات

الرضاع

الرضاع ضرورة ولكون من الغير ضرورة في بعضها للأحياء فقد تأتي المرأة بالمولود ولا يأتيها رزقه من الحليب أو قد تموت في الوضع ويحيا الوليد .

وقد كانوا يبعثون بأولادهم إلى المراضع وهو المعلوم من أنه صلى الله عليه وسلم أرضعته المولاة ثويبة وأرسل مع حليمة من بني سعد للغاية نفسها .

وفي أيامنا كان الرضاع كثيراً بسبب الحجة الاجتماعية السائدة ثم تدنت هذه الظاهرة كثيراً بسبب وجود أنواع من الحليب الجاف تناسب سن الرضيع من حيث كمية الغذاء والدسم في هذه الأنواع .

والمشكلة التي تحصل أنه من يعلم حصول الرضاع

قد ينسى أو يموت أو يكون غائباً غيبة طويلة .. الخ فيقع محظور في بعض الأحيان كما حاصل مع الشيخ عاكف .

تقدم لخطبة إحدى فتيات الحي حيناً فقالت جدتي أم صالح كيف وقد أرضعته وهي أخته من الرضاع فظن أنهم يتعللون فسأل من بقي من عجائز النسوة في الحي فقلن نعم أنت رضعت من أم صالح كثيراً وأولادها إخوتك من الرضاع فأحجم .

سقتها مسألة حصلت مع بيت جدي الذي كان في حي الفردوس الذي يضم وقتها حوالي ثلاثين بيتاً مجتمعة حول بعضها وبين هذا الحي والأحياء الأخرى فاصل من الأراضي المشجرة كروماً وبساتين لمسافات تطول في بعض الجهات وتقصر في بعضها الأخرى فهم كأسرة واحدة في حيز واحد منعزل أضف أن صلة القرابة تصل بينهم إن لم تكن قريبة مباشرة فبعيدة نوعاً وأضيف إلى ذلك أن والد جدتي وهو الحاج سالم ابن عم جدتي وبين بيت جدي المفصول عن بيت الحاج سالم ثلاثة من البيوت فقط ومع كل ذلك تقدم لخطبة من لا يعرف أنها أخته من الرضاع .

لهذا عامل في الرضاع يضاف إلى العوامل السابقة حيث كانوا في الحي أسرة واحدة جمعتهم الجيرة التي جمعت آباءهم وأجدادهم.

جاء شرعنا الحنيف وحدد في الرضاع أحكاماً نعرفها ونعلم أن لعلمائنا أقوالاً في مناحيها أخذاً من النصوص الشرعية الكثيرة الواردة في ذلك. والخلاف الوارد لعلمائنا في جوانب الرضاع جعلهم على اتفاق في أن الرضاع يحرم كتحريم النسب لورود النصوص الصريحة في ذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أريد على ابنة حمزة فقال: إنها لا تحل لي إنها ابنة أخي من الرضاعة ويحرم من الرضاعة ما يحرم من الرحم وفي لفظ: ما يحرم من النسب. متفق عليه

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة. رواه الجماعة ولفظ ابن ماجه: من النسب

وفي الموضوع أحاديث كثيرة فمنها ما يحرم كمثل الحديثين المذكورين ومنها ما يحدد عدد الرضعات ومنها رضاع الكبير

ومنها شهادة المرأة الواحدة بالرضاع ، ومن ذلك ما ورد عن عقبة بن الحارث أنه تزوج أم يحيى بنت أبي إهاب فجاءت امرأة سوداء فقالت : قد أرضعتكما قال : فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأعرض عني قال : فتنحيت فذكرت ذلك له فقال : وكيف وقد زعمت أنها أرضعتكما فنهاه عنها . رواه أحمد والبخاري .

وعلماؤنا إن اختلفوا في عدد الرضعات المحرمة فلكل المرجوع إلى ذلك والأخذ بالأحوط أورع لكن على من يُرضع أن يذكر بالأمر دائماً حتى لا يقع محظور .

وعوداً إلى شيخنا الشيخ عاكف وعلمه وحفظه فقد حكى لنا شيخنا الفقيه الشيخ محمد الملاح أنه كان بصحبة علامة الزمان وفقيه الأمة الشيخ مصطفى الزرقا وذهبا إلى دائرة الأوقاف وكانت آنئذ في خان الجمرك وذلك لحضور فحص اختبار للمتقدمين إلى وظيفة التدريس الديني قال شيخنا الملاح : وكانت دائرة الأوقاف في الطابق العلوي من الخان فعندما كنا في ساحة الخان رأينا في المساحة المكشوفة العلوية أمام الأوقاف عدداً بيناً من المتقدمين ومن بينهم

الشيخ عاكف. فقال الشيخ مصطفى الزرقا: هذا هو الشيخ عاكف حبال يا شيخ محمد لا أحد يستطيع مزاحمة الشيخ عاكف فهو محفوظ يحفظ المتون وغيرها كحفظه للقرآن. فقلت يا شيخ مصطفى إن الشواغر متعددة ولئن كان الشيخ عاكف موجوداً كمتقدم لملء أحد الشواغر فإنه جدير بذلك.

كانت هذه القصة شهادة لاثنين من أساطين علمائنا في علم الشيخ عاكف وإنها لتزكية لم أسمعها منهما لغيره حسب ذاكرتي الآن.

توفي الشيخ عاكف حبال في سبعينات القرن العشرين رحمه الله تعالى.

الشيخ محمد الحجار

عالم ما عرفت من علمه شيئاً سوى ما سمعته من المجاورين في جامع المزكي حيث أنذر اثنين منهما وكانا ملازمين له ومنهما فهمت أن الشيخ هو إمام الجامع وهذا أمر أعرفه لكنه ما لا أعرفه أنه هو خطيب الجامع ويلقي فيه دروساً كثيرة

[illegible] بالتقدم [illegible] في حب
[illegible] على [illegible] الفائدة
[illegible] العلمية
[illegible].

ودخلت يوماً إلى جامع التكية(1) من باب المصلى مفتوحة
فرأيت طرفاً منه فيه درس، ودخلت إلى غرفة صديقي [illegible]
[illegible] في القبلة درس فقال هذا درس الشيخ محمد النجار فقلت
[illegible] ودخلت وحضرت طرفاً منه آخر الدرس
[illegible] محدودة وانتهى الدرس وكان موضوع
[illegible] الوعظ.

---

(1) [illegible] : جامع أثري قديم على يمين الذاهب من
[illegible] [illegible] الثانية وصلاة [illegible] بالنسبة
[illegible] وفيه عدد من الغرف تطل على الصحن
[illegible] وغربيه وشماله بشكل معظمها مجاورة
[illegible] وفيه موضعاً في الجهة الغربية
[illegible] والثاني احتفظ به لنفسي

رجعت إلى صديقي الشيخ حامد غريب وهو زميلي في الدراسة وقلت لقد انتهى الدرس ورأيت في درسه وعظ العلماء فقال: هو عالم ولعلك تعلم أن من أساتذنا الشيخ أحمد عز البيانوني فهو زوج ابنته قلت: لا أعلم هذا فأنا أعرف الشيخ أحمد عز الدين لأنه أستاذي وأعرف من أولاده البعض الذين هم زملاؤنا في المدرسة الآن ولا أعرف غير ذلك من أولاده أو من أصهاره .. والحديث يدور بيني وبين الشيخ حامد ففهمت من سماحة أن الشيخ له نشاط كعمه الشيخ أحمد عز الدين فقررت في نفسي أن أظل على مسافة إلى بعد نقطة بيني وبين الشيخ وأعني أن لا مانع لدي من الصلاة وراءه كبقية الناس أما المجالس المختلفة للشيخ فأظل بعيداً عنها وهكذا كان لكنت إذا زرت واحداً من زميلاي لا أدخل المصلى وإنما أقتصر على الجلوس في غرفة أحدهما فقط لأنني كنت لا أحب مجالسة من لهم وجهات سياسية أو حزبية على اختلاف أنواعها دينية كانت أو غير دينية لأن اهتمامي منصب على الدراسة والمطالعة وفي الشأن الخاص أتابع هواياتي في إصلاح والتمرين على الخط العربي.

ومرت الأيام بعد تخرجنا من المدرسة ورأيت الشيخ

حامد غريب فقلت يا شيخ حامد بلغني أنك تزوجت بنت الشيخ أحمد عز الدين البيانوني قال نعم قلت وأي نشاط لك الآن فقال: الكتب وهذا كما تعلم.

مرت أيام أوصلتنا إلى الثمانينات من القرن العشرين وثارت جموع لهذا النوع من الإسلاميين. وللأمانة بعضهم لا كلهم. فثارت جموع الفوضى وحصل ما الاتجاه عدو لعدوه وتشرذم لهؤلاء الناس ضمن لهذه الفوضى وقتل من قتل وسجن من سجن وهرب من هرب وبقي من بقي وقبض على الشيخ حامد أياماً وذهبت لزيارته بعد خروجه فكان أن قال لي انه لم يتعرض لأذى إزعاج والموضوع لم يكن أكثر من توجيه أسئلة إليه فهو غير متهم وأقول لهذا من جهة الشيخ حامد الذي ذهب فيما بعد بعقد إلى السعودية أما من طرف الشيخ محمد الحجار وهو صاحب نشاط كما أعرف فقد اختفى ولم يعد أحد يراه حسب اطلاعي لكن رأيت ابنه قتيلاً وقد ربطت رجلاه بحبل ممتد طرفه الآخر إلى سيارة تسحبه وراءها إلى الخدمات الفنية التي جعلت في ذلك الوقت مقراً عسكرياً وقد رأيت لهذه الحالة وقد جاوزت السيارة الجامع الأموي بالاتجاه المذكور وقال الناس وقتها

وفيما بعد بأن هذا ابن الشيخ محمد الحجار وأنا لا أعرف هذا الشاب ولا أعرف اسمه وأقدر أن سنه يقارب الثلاثين .

هذه نتيجة جهادكم فأي جهاد هذا يا أهل العلم وأنتم أعرف الناس بالجهاد ووقت وجوبه وأكثر الناس إدراكاً أنه ما سوى الجهاد الشرعي ليس إلا الفوضى التي ينبذها ديننا ويرفض أيا من جنباتها لقد خسر الشيخ الحجار ابنه في هذه الفوضى التي زرع فيها باسم الجهاد ولا أدري إن خسر أولاداً غير هذا؟ بل وماذا خسر أيضاً؟ لقد خسر وطنه وإن كان رحيله إلى مكة المكرمة التي هي والمدينة المنورة أحب بلاد الله إلى قلب كل مؤمن ولكن يظل الوطن أماً للإنسان .

وانتهى بالشيخ المطاف في بلد الله الأكرم في آخر الثمانينات أو أول التسعينات حسبما سمعت يرحم الله الشيخ محمد الحجار .

الشيخ حسن حسان

عالم واعظ مربٍ كانت له مجالس عدة في جوامع باب الشريب ومساجدها وكنت أغشى بعضاً منها في صغر سني

الشيخ حسن حساني

ثم إن الشيخ انتقل إلى حي الجميلية وتبعه مريدوه وحضوره لا يكفي طبعاً لأن انتقاله كان بسبب أن لديه أرضاً في باب النيرب كرم سري بنى فيها بيتاً له وبنى الباقي مسجداً يعرف باسم جامع الشيخ حسن حساني أو جامع كرم سري وقد حضرت مجالس الشيخ عندما كان في جوامع باب النيرب وعندما انتقل إلى الجميلية حيث كان مجلسه في بيته وفي جامع الصديق بعض المدة ثم حضرت هاتيك المجالس عندما استقر في مسجده الذي بناه .

لقد كان الشيخ راعياً لفئة من الناس في منطقة غارقة في عاميتها وبساطتها فألفته القلوب وتفتحت له الأسماع وكان فاعلاً في تلك البيئة فأغناهم بعلمه واجتذبهم بوعظه وجلبهم إلى مجالس ذكر الله التي لم تكن يوماً تخلو من الدروس أو المواعظ ولئن كان لهذا مقر الشيخ فإنه كان له مريدون من الأحياء والجهات الأخرى .

لقد حضرت وحضرت وسمعت علمه ومواعظه فرأيت فيه شخصية جاذبة فعلاً وفي مريديه وإخوانه عدد لا بأس به لهم أصدقائي ورأيت أن الشيخ كان لهم بمثابة الأب فعلاً فما من مشكلة أو مسألة أو معضلة عندهم تعرض عليه إلا ويسهل

الله جلها عنده .

كان الشيخ يذهب مع مريديه إلى بيت أي مريد يدعوهم لينال حظاً من زيارتهم ولنقل أنها مجالس متنقلة وهي غير ثابتة المواعيد لأنها حسب الرغبة أو حصول ولادة أو غيرها .

لقد آثر الشيخ أن يظل ضمن هاتيك الدائرة عالماً ربانياً ومرشداً ومصلحاً فاعلاً ووارثاً محمدياً متخلقاً بأخلاق النبوة وهل في هذا من عجب ؟ طبعاً لا عجب في شيء من ذلك فقد روى لي الشيخ عبد الفتاح وهو من تلامذة الشيخ الخواص القصة التالية :

جاء رجلان متقدمان في السن إلى الشيخ حسن وقالا له أمامي إن الشيخ عبد الله سراج الدين تكلم فيك كذا وكذا وأرادا إطلاق العنان للسانيهما فنهاهما الشيخ وبادرهما بالقول إن الشيخ عبد الله سراج الدين أن يتكلم بكلام كهذا فإذا فرضنا أنه تكلم فأنا أقول سامحه الله فهو أخي لأنه ابن شيخي فقد كنا أنا وإياه نجلس أمام والده سيدي الشيخ نجيب سراج الدين رضي الله عنه .. وبعد انصرافهما قال لي الشيخ يا عبد الفتاح إذهب غداً في الساعة كذا صباحاً إلى جامع الحموي

فالشيخ له درس صباحي هناك وقص عليه ما جرى فإنهما لابد ذاهبان إليه بمثل ما جاءا به إلينا والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: مهدوشي لك وشي عليك.

قال الشيخ عبد الفتاح فذهبت كما أمرني الشيخ حسن وحضرت الدرس وبعد صلاة الضحى خرجنا من جامع الحموي ونحن نسير باتجاه بيت الشيخ القريب من الجامع فسلمت عليه وعرفته بأنني رسول الشيخ حسن حسانين إليه فهش وبش ورحب بي غاية الترحاب وأكثر من السؤال عن الشيخ حسن ثم رويت له الحادثة وأن الشيخ حسن يقول: إذا جاءك الرجلان أو أحدهما وقالا إن الشيخ حسن تكلم فيك بكذا وكذا فلا تصدقهما.

قال لي الشيخ عبد الله سراج الدين لقد جاءني رجلان بالوصف الذي ذكرت وقالا بأن الشيخ حسن قال فيك كذا وكذا وقال: فنهيتهما عن متابعة الحديث وقلت: إن الشيخ لا يتكلم مثل هذا الكلام فإن كان قال فأنا أسامحه لأنه تلميذ والدي وهو بالنسبة لي أخ.

قال الشيخ عبد الفتاح فقلت في نفسي الحمد لله لقد

الشيخ حسن حساني

أراد الحذاذون من جهلاء الصف دبار بيقاد فتنة أطفأها الله
قلت يا شيخ عبد الفتاح ربنا عز وجل يقول: هل يستوي الذين
يعلمون والذين لا يعلمون. هل تتصور أن اثنين من السفهاء
يستطيعان مع إبليسهما أن يحرضا بين عالمين ربانيين استمد كل
ما لديهما من فضائل الإيمان والعلم من رب واحد هو الله
تعالى ومن نبي واحد هو سيدي رسول الله صلى الله عليه
وسلم ونشأا عند شيخ واحد هو سيدي الشيخ نجيب سراج الدين
رضي الله عنه. فانظر إلى المفسدين كيف باءا بالخسران هما
وإبليسهما وانظر إلى الشيخين الجليلين كجبلين راسيين
راسخين لم تهز هما الريح.

الشيخ حسن كان له نظم لطيف وقد طبع جزأين
صغيرين من الأناشيد هما عندي. وفي الواقع هي
قدود لأنهم كانوا يسمعون غناء لحنه محبب لديهم
فينظم المديح على قده لكي يتغنوا بالقدود بدلاً
من الغزليات وغيرها.

لم تدم صحبتي مع الشيخ حسن طويلاً فقد اختاره
الله لجواره في أواسط الستينات من القرن العشرين. رحمه الله

الشيخ أديب حسون

عالم وسالك وهو من أساتذة الثانوية الشرعية وكان

أستاذي فقد قرأ لنا السيرة النبوية الشريفة ويبدو أنه لم

يحصل من العلم ما يرقى إلى سدة أقرانه وعندما تم تكليفه

للتدريس في المدرسة الشعبانية لدى افتتاحها سئل عن المواد

التي يرغب تدريسها فذكر بعضاً وكان في جملة ما تم تكليفه

حسب رغبته مادة التوحيد فقرأ فيها درسا ثم اعتذر

والمقرر الذي اعتذر عنه هو جوهرة التوحيد للقاني

وهي سهلة المنال لا ترى فيها أي إشكال ويتلقاها

الطالب بالقبول دون أن يرى فيها صعوبة تذكر ثم إنه

انسحب من المدرسة الشعبانية نهائياً وظل مدرساً في الثانوية

الشرعية فقط .

الشيخ من ياقد العدس من الضواحي القريبة لمدينة

حلب وقد ترك القرية إثر خلاف بينه وبين أخيه في

ميراث وبنفسه الرضية ترك الجمل بما حمل وجاء إلى

حلب لطلب العلم .

كان الشيخ أديب واحداً من مريدي الشيخ محمد النبهان وكان يحضر مجالس الشيخ في جامع الكلتاوية بينما كان هو في جامع أسامة بن زيد (1) يقوم بالإمامة والخطابة وله بعض الدروس العامة فيه واستأذن شيخه الشيخ محمد النبهان في أن يقوم بالحضرة في جامعه - أي مجلساً للذكر والمولد النبوي الشريف -

---

1 - جامع أسامة بن زيد اسم محدث لجامع أغير وهو لفظ محرف عن لفظ آقيول التركية ومعناها الطريق الأبيض هذا الجامع لا أعرف بناءه القديم ولكن رأيت صورة لواجهته الأثرية يظهر فيها الباب الرئيسي المرتفع الذي يصعد إليه بدرجين اتجاههما من الشمال إلى الجنوب لأحدهما ومن الجنوب إلى الشمال للآخر ويلتقيان في ردهة أمام الباب وأقدر أن مراقي الدرج الواحد هي أربع أو خمس وقد هدم المسجد لدى شق طريق أقيول الموجود الآن ومن الممكن أن يكون الطريق الجديد أخذ على قسم من الجانب الشرقي منه فأخذ الواجهة وشيئاً خلفها وأعيد بناؤه بمساحات واسعة وأخذ اسم الصحابي الجليل أسامة بن زيد رضي الله عنه.

فأذن له في ذلك في أوائل الستينات وظل تصويته دون الشيخ كالعادة بل لقد وجه الشيخ النبهان تلامذته أن يحضروا مجالس الشيخ أديب في جامع أسامة فأصبحت مجالسه عامرة منذ ذلك الوقت وبعد وفاة الشيخ النبهان اتسعت مجالس الشيخ أديب أكثر بسبب افتقار الكلتاوية إلى المرشد فابنه الشيخ فاروق النبهان ليس عالماً ولا مسلكاً ومع ذلك خلف أباه فكان بحكم هذه الخلافة المسؤول الأول عن الجامع عن إمامته وخطبته وعن المدرسة الشرعية التي أنشأها الشيخ النبهان في هذا الجامع وكان هذا فراغاً علمياً ومسلكياً أدى إلى الإقبال على جامع أسامة بن زيد.

افتتح الشيخ أديب مدرسة شرعية في جامع أسامة فيما بعد وكان ذلك في الثمانينات من القرن العشرين وقد كلفني الشيخ بالتدريس فيها ففرحت بذلك لكن عمر المدرسة الذي امتد لسنتين فقط حيث تم إغلاقها بسبب الترخيص ونقل طلابها إلى الثانوية الشرعية وقد قلت لابنه الشيخ أحمد بدر الدين حسون وهو الآن مفتي الجمهورية وزميل دراستي أتمنى أن تنبت البذرة التي بذرها والدك فيقول: إن شاء الله.

كانت حياة الشيخ حافلة بالعطاء وكنت تراه يقوم بالتدريس ومجالس الذكر والمولد النبوي الشريف ودروس الإرشاد والوعظ بهذا الشباب الذي ودعه لكنه المعاني لمولاه.

كان للشيخ البعض من المؤلفات قرأت بعضاً منها وكلها أي أن عمرها قصير جداً وقد كان ومازلت أحتفظ بواحد منها وعنوانه التفسير الأنيق لسورة سيدنا يوسف الصديق وقد أهدانيه أحد الأصدقاء .. وعندما قرأت العنوان قلت إن شيخنا ضعيف في اللغة وعلومها ومعانيها ومع ذلك قرأت الكتاب فوجدته يبين العبارة القرآنية بعدة عبارات من عنده ولم أجده بين ما في السورة من أسرار ومعان ولكن تفسير القرآن ليس بتوسيع العبارات ولنا أن ننظر في المعنى الذي ذكره علماؤنا الأفاضل في :

عِلْمُ التَّفْسِير

لا يخفى على أحد أن تفسير القرآن بالقرآن مقدم قبل السنة .. الخ وقد فصل الإمام السيوطي في كتابه الاتقان حيث يذكر أن الذي يتعرض لتفسير القرآن ينبغي أن يعرف ثمانية

وأرى علماءنا في مكتبتي نحواً من عشرين تفسيراً لفحول المفسرين وأرى قول علمائنا صواباً : لا يغني كتاب عن كتاب فمنها ما يعتمد القصص كابن كثير ومنها ما يلتفت إلى اللغة وعلومها في تفسيره كمثل الزمخشري ومنها ما يتكلم في اللغة فيأخذ جانب النحو أكثر ويفسر القرآن كله ولا يذكره كله وأعني أنه يتوقف في النقطة التي فيها إشكال سواء من وجوه الإعراب أو النواحي البلاغية أو مشترك الألفاظ .. الخ فإذا وفاها حقها انتقل إلى معضلة أخرى قد تكون في نفس الآية أو بعدها وربما لا يعرض لعدة آيات لعدم وجود معضلة لغوية فيها تحتاج إلى بيان وهو التفسير النادر لابن السمين الحلبي وترى في تفسير المهايمي اللمحات السلوكية العجيبة والسلوك المنهجي العقلاني في تفسير النسفي الذي قرأناه على شيخنا الشيخ محمد خليل فكان أن تسرب من حضور الدرس عدد من الزملاء لعدم فهمهم وهناك من التفت في منهجه إلى الإشارات والتنبيهات ولن أسهب في تعداد منهجيات التفاسير فهي معلومة موجودة ومع ذلك تجد أن هناك من يطالع في القرآن أموراً تقتضي التأمل وتحتاج إلى الإجابة ولن أكثر الكلام في قصة سيدنا يوسف وسأكتفي بطرح بعض التأملات التي تقتضي الإجابة

ولمن أجيب عليها لأنني أتيح مثالاً فأنا لست بصدد التأليف في التفسير سيما والبسط للإرشادات الآلهية وبين فيها البركة من علمائنا الأفاضل بلفظ المحدث العلامة عبد المتعدد الرصف الأزدي ومن هذه التأملات والخواطر في سورة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام وعلى نبينا وأنبياء الله أجمعين :

١ - معظم الأنبياء وردت أسماؤهم في مواطن شتى من القرآن الكريم إلا سيدنا يوسف وردت سورة باسمه وذكرت فيها قصته ولم يذكر اسمه أو صفته في غيرها علماً أن هناك سوراً بأسماء أنبياء مثل نوح وهود ومحمد صلى الله عليه وسلم ومع ذلك ورد ذكرهم بالاسم أو بالصفة في سور أخرى من القرآن الكريم .

٢ - في قوله تعالى : ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه غير واحد من المفسرين قال : هم بها ليدفعها عن نفسه ولو أنه فعل لقُدَّت قميصه من قُبُل والآية بمفهومها تنص على أنها همت به وأنه لم يهم بها وتثبت نبوته قبل هذا الموقف .

٣ - عندما فقد يعقوب ابنه يوسف ابيضت عيناه من الحزن

ومن حيث النتيجة هو فقد اثنين من أولاده هما يوسف وبنيامين وبقي لديه عشرة من الولد بنمات وجيد لم تبيض عيناها ولم يذكر أي شيء عن حزنها مع أنها خسرت كل أولادها وهما اثنان مع مراعاة أن قلب الأم كما يعلم الناس عامة .

٤ ـ اعتذر الإخوة ليوسف فقال لهم : يغفر الله لكم مع أنهم هم الذين أوقعوه في البلايا من جب ورمي وفراق أهل ولم يطلبوا منه أن يستغفر لهم بينما هم طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم فقالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ومع ذلك لم يستغفر بل قال سوف أستغفر لكم ربي .. وهذا وعد مع أنه وقع في لوعة الفراق فقط .

٥ ـ قال تعالى : ورفع أبويه على العرش والمعنى واضح فإن قوله أبويه تغليب عندنا في اللغة ولو كان اللفظ ورفع والديه لشمل الاثنين حقيقة لأن الولادة لهما معاً بينما لفظ الأبوة هي للأب وهذه حقيقة والأم لها الأمومة إذ ليس من قائل بأن الأم لها الأبوة قطعاً .

في السورة أسئلة كثيرة وإشارات ونكت وتأملات كما في غيرها فكم وكم في كتاب الله من عجائب ولن تنقضي

قائل إن بساطة التفسير تدخل الأفهام ببلاسة لدى العامة وأقول : لقد قرأت في مجالس تفسير لهذه الطروحات ونظائرها وفي مجالس مستويات مختلفة حتى من لا يعرف القراءة والكتابة فصادفت أذهانهم وصادفت عقولهم وسكنت أفئدتهم .

وأعود إلى شيخنا الشيخ محمد أديب حسون الذي قضى حياته داعياً إلى الله يعلم الناس ويعظهم للأبد وأنشأ جمعية لهذه الغاية أسماها :

جمعية الفرقان

أنشأها الشيخ محمد أديب حسون في أواسط الثمانينات من القرن العشرين وهي جمعية خيرية تهدف إلى عدد من أعمال الخير وفيها أنشطة الجانب النسوي من علم وإنشاء مشاغل تعلم المهن النسائية التي يمكنهن مزاولتها في بيوتهن بحيث تعود عليهن بالنفع وكان المشغل الأول في الجهة المقابلة لجامع أسامة ابن زيد على مسافة لا تبعد كثيراً وفي مقدمة هذه الأنشطة كان إنشاء مدرسة الفرقان الشرعية والتي كانت نواتها في

جامع أسامة بن زيد وقد كلفني الشيخ للتدريس فيها فقمت بذلك كما قدمت واستمرت تغذ تقدم عطاءاتها الخصبة النافعة في الجوانب العلمية الشرعية والخيرية والعملية التنموية لكن لم يمتد العمر بهذه الجمعية بل انقضى في أوائله حيث كان فيضه العطاء يرتفع فيها ويزيد شيئاً فشيئاً وأصبحت الجمعية إسماً يذكر حيث لم يمتد عمرها إلا لسنتين ونيف فندوت ولما تبلغ الثالثة ونقل طلابها إلى الثانوية الشرعية وأقفل مشغلها ولم يبق إلا اسمها الذي كلما تذكرته لم أعرف السبب الذي أدى إلى إغلاقها فأعزي ذلك إلى تقدير من عندي أن إجراءات الترخيص فيها إشكال والله أعلم.

وأعود ثانية إلى الشيخ محمد أديب وأقول بأنه قدم الكثير بهمة لم تفتر والشيخ واحد من قلة قليلة جداً من علمائنا ومشايخنا كان أولاده جميعاً من أهل العلم وهذه فضيلة كبيرة من فضائل الله عليه وكان من في أولاده الخير أيضاً وارتقى ابنه الثالث الشيخ أحمد بدر الدين حسون فتسنم منصب المفتي العام للجمهورية وفي أواسط العقد الأول من القرن الحادي والعشرين انتقل شيخنا إلى رحمة الله تعالى.

الشيخ محمد الحكيم

عالم جليل في علمه مثقف جداً صاحب الذكاء النادر وهو من قلة قليلة تلقوا دراساتهم داخل سوريا وخارجها فقد كان في جملة المرتحلين إلى فرنسا للدراسة فيها بعد دراسة العلوم الشرعية في وطنه .

وفي آخر الستينات عندما بلغ الشيخ محمد بلنكو سن التقاعد تم تعيين الشيخ محمد الحكيم في منصب الإفتاء وكان أول مفت يعين تعييناً فقد كان قبل ذلك ينتخب انتخاباً .

وعندما قامت الحركة التصحيحية واستقرت الأمور تم تعيين أول مجلس نيابي بعد قيام هذه الحركة فكان الشيخ محمد الحكيم ممن تم تعيينهم لتمثيل هذه المدينة في المجلس .

لم يتيسر لي الاتصال أو التعرف بالشيخ عن قرب وإن كنت أعرفه ويعرفني عن بعد وعندما قامت الحركة المذكورة كنت أنا في القيادة العامة للجيش فأنا في دمشق والشيخ في حلب لكن فيما بعد حصلت لقاءات بيني وبين الشيخ لم تنفر عن شيء يذكر سيما وأنها فترة فقدت فيها والدي رحمه الله وكنت غارقاً

في أعماله المتعددة وفي عهده بالإفتاء انتقل الشيخ محمد عثمان بلال إلى الدرس العام - درس المحافظة - ومن ثم وفي أواخر عهد الشيخ محمد الحكيم بالإفتاء انتقل الشيخ محمد عثمان بلال إلى دار الإفتاء. لقد كان الشيخ محمد الحكيم محمود السيرة لأن حضوره الاجتماعي كان غاية في الرقي ولأنه عالم واسع ولأنه ملأ المكان الذي تبوأه وقد شغف بمحافظة حلب إلى آخر حياته التي امتدت إلى أوائل العقد الثامن من القرن العشرين يرحم الله الشيخ محمد الحكيم.

الشيخ أحمد مهدي الخضر

عالم جليل وفقيه خطير الشأن نشأ علمه بتوفيق الله على يد الشيخ مصطفى الزرقا فقيه العصر والشيخ محمد الملاح الفقيه الكبير وقد درس العلوم الشرعية وتبحر فيها كما أنه درس الحقوق وعمل محامياً لكن عمله هذا لم يبعده عن العلوم الشرعية فقد كانت له دروس ومجالس عامة في الفقه والحديث وغيرها كان يقيمها في المساجد وكنت أحضرها ولأنه حنفي

المذهب كان متبحراً في حاشية ابن عابدين كمثل شيخه وقد فهرس الحاشية بقائمة أبحاثها وطبع هذا الفهرس ورغبت في الحصول على نسخة منه وليس ثمة صلة بيني وبينه آنئذ فصادف أن كان ابنه واحداً من تلامذتي فقلت له: أريد هذا الفهرس وقل لأبيك يطلب الفهرس فلان ابن الشيخ عبد الرحمن خياطة - هو صديق والدي - وكم قيمته؟ وكان الفهرس هدية من الشيخ لكن فيما بعد سنوات طويلة عثرت على عمل للشيخ هو أسماء المؤلفين والمؤلفات وأسماء المؤلفات والمؤلفات والمؤلفين في الحاشية وكانت نسخة مصورة عند أحد طلابي هو الشيخ يوسف الهنداوي الذي تربطه بالشيخ دروسه العامة وقد صورها وجلبها لي بخط الشيخ أحمد مهدي فعكفت على كتابتها بخطي ونسقتها وذهبت بصحبة الشيخ يوسف لزيارة الشيخ أحمد مهدي وأعطيته النسخة المخطوطة بيدي لمراجعتها وقلت: ربما أضاف أو أجرى فيها تعديلاً أو وقع سهو مني حين كتابتها وكان كل ما توقعته حاصلاً فأجريت فيها الإصلاح اللازم واستأذنته في تصويرها وتوزيعها إلى الجهات ذات الاهتمام من مثل درس الشيخ محي الملاح حيث تقرأ حاشية ابن عابدين ومكتبة الثانوية

الشرعية مكتبة المدرسة الشعبانية فأذن له وقال أعطها لمن شئت فقد وضعنا لها للفائدة .. وتبسم الشيخ وقال : سبحان من أودع في كل قلب ما أشغله .

تقلد الشيخ أحمد مهدي الخضر منصب وزير الأوقاف وكانت له الإصلاحات الإيجابية والأيادي البيضاء بحكم علمه الواسع وكونه فقيهاً وكانت له ايجابيات من حيث النظم الوقفية والإدارية وإليه يرجع الفضل في افتتاح مدارس التعليم الشرعي للإناث إعدادية وثانوية .

تبوأ الشيخ أيضاً فيما بعد مديرية المدرسة الكلتاوية وهي المدرسة الشرعية التي افتتحها الشيخ محمد النبهان ودرّس فيها مع متابعته للدروس العامة التي يقيمها في الجوامع .

كان الشيخ في عمله كحاكم مثالاً للصدق والاستقامة والنزاهة كيف وهو الفقيه الجليل والعالم الكبير وقد كان أن اختلف صديقاي - وهما أخوان - في عملهما وأرادا حل الشركة فيما بينهما واتصل بي عبد الحميد منهما أولاً وطلب أن أنوب عنه في حل الشركة مع عبد العزيز ولكن الأمر لم يكن فقد كان عبد العزيز متصلباً جداً ولديه الكثير من الطمع

الشيخ أحمد مهدي الخضر

وبلغني أن الأمر أدى بهما إلى القضاء فقال عبد الحميد لأخيه عبد العزيز: لماذا نترك أمورنا في المحاكم تذهب سنين ادع وكيلك المحامي وأدعو وكيلي المحامي ولنجلس والكلام الذي يريدان قوله في المحكمة في الشهر أو الشهرين مرة يقولانه لبعضهما أمامنا ونحن نعطيهما المعلومات التي يطلبانها وننهي المشكلة بجلسة واحدة واقتنع عبد العزيز وحصلت الجلسة وكان وكيل عبد العزيز هو الأستاذ أحمد مهدي الخضر ودارت الجلسة إلى أن وصلت أحاديثهم إلى النهاية وعبد العزيز لا يوافق - لأنه طماع - فقال الأستاذ أحمد مهدي: يا عبد العزيز عليك أن توافق فإن عبد الحميد وافق على إعطائك حتى الآن زيادة عن حقك مبلغ ثلاثة ملايين ليرة حسب كلامك أنت فقال عبد العزيز: يا أستاذ أنت وكيلي ويجب أن تكون معي تدافع عني فقال الأستاذ الشيخ لا يا عبد العزيز أنا لست معك مدافعاً عنك أنا مع الحق مدافعاً عنه فإن كان بجانبك كنت بجانبك وإلا فعليك بمحام غيري ونهض الشيخ الأستاذ ليغادر فما كان من عبد العزيز إلا أن قال رضيت وانتهت المسألة.

لقد كان هذا الإنسان مثالاً للنزاهة ولو أن عبد

العزيز لدى محام بعيد عن هذا المنهج لحاول الاستبداد بأموال عبد الحميد ليأخذ منها لعبد العزيز أكثر فيكون عندئذ نصيبه أكبر ولقد قال لي عبد الحميد لي: إن هذا الأستاذ شريف فقلت له: أنت تعرف أنه محام أما أنا فأعرفه واحداً من كبار علماء الشريعة وربما كانت الدروس التي يلقيها في الجوامع تأخذ من وقته أكثر من الأوقات التي يقضيها في المحاكم.

وللمناسبة فإن دروس الشيخ علمية بالدرجة الأولى وقد يتخللها لمحات وعظ إذا اقتضى المقام ذلك وقد تقاعد الأستاذ أحمد مهدي عن العمل في مهنة المحاماة ولكن الآن بعيد عن العمل الحقوقي متفرغ للعمل الشرعي وما زال على قيد الحياة متعه الله بالصحة والعافية وأقول لم يعد هناك نوع اتصال بسبب الحرب الأهلية التي أفسدت الأمور الحياتية لدينا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. يوم الأربعاء ٢٧ محرم ١٤٣٦ و ١٩ تشرين الثاني ٢٠١٤

وفي الدرس مساءً ذكرت الشيخ بالخير ودعوت له بظهر الغيب فقال لي الشيخ عمر قباوة ادع له بالرحمة فقد توفي الشيخ منذ سنتين رحمه الله

الشيخ محمد خليل

عالم واسع من أكراد الجزيرة قدم إلى حلب وكانت له فيها إمامة وخطابة وربما بعض المصالح للأولاد وتنقل وظيفته جامع الديري الذي يعرف بجامع الشامي والشيخ له نشاط واسع في التدريس لا يفتر وكانت حلقات دروسه فيها مستويات مختلفة فمن حلقة للمبتدئين البسطاء إلى حلقة للدارسين والمثقفين إلى حلقة للدارسين المتخصصين أي العلماء وذات يوم كانت لديه جلسة للعلماء فقط وذكرت أنني أردت اقتحامها لكن لا سبب لدخولي إلى هذه الجلسة فهم أتراب وأنا أصغر من أولاد بعضهم .

جاء الشيخ إلى حلب وفي تقديري أن ذلك كان في آخر الخمسينات أو أول الستينات وقلت كان إماماً لجامع الديري وهو كردي له لكنة - رافقته إلى آخر حياته طبعاً - فتذمر بعض من أهل الحي من إمامته ظناً منهم أن بهذه القراءة لا تصح الصلاة لكنه لم يفاتحه أحد بالموضوع فشكوا الأمر إلى عمي الشيخ نجيب الذي جاء يوماً بعد أذان المغرب ودخل المسجد

والجماعة قائمة فوقف مقتدياً بالشيخ وسمع قراءته وبعد الصلاة قابل الشيخ وسلم عليه وقال لأهل الحي إن قراءة الشيخ صحيحة وصلاته صحيحة هذه الواقعة حكاها لي الشيخ محمد خليل بالذات وقال: عندئذ رضي أهل الحي ومعنى رضاهم أنهم سمعوا الحكم بصحة قراءة الشيخ خليل من شيخ القراء فمهد له أن يتكلم بهذا وأنا أعرف أهل الحي وقد تعاملوا مع الشيخ بكل احترام طبعاً قبل الحكم وبعده.

لازمت دروس الشيخ مع فئة من الدارسين المتخصصين وهو الدرس الخاص لنا عنده وقد قرأ الشيخ لنا مواد كثيرة فقرأنا في الفقه الهداية للمرغيناني ثم البناية شرح الهداية وفي التفسير قرأ لنا الشيخ تفسير النسفي وقرأ في المنطق متن السلم للأخضري بشرحه ومن ثم شرح الباجوري وقرأنا شذرات الذهب.. و و.. الخ وكانت دروسنا في غرفة الشيخ بجامع الديري بعد صلاة العصر إلى المغرب وفي جامع فاطمة في الأنصاري بعد العصر أيضاً إلى صلاة المغرب وفي عادة الشيخ لا يبدأ قراءة كتاب أو علم إلا يوم الأحد أو يوم الأربعاء ولا يبدأ درسنا إلا بعد شرب الشاي وعندما ينتهي كتاب فتكون

لنا عنده دعوة على طعام .

كان الشيخ ملا خليل يقول لنا : أنا وأنتم في الدرس أعداء إن استطعتم أن تنتصروا علي فافعلوا وإن استطعت الانتصار عليكم فلن أدخر جهداً لكن إذا كان ثمة غريب في مجلسنا أو كنا خارج المجلس فأنا شيخكم وأنتم تلامذتي وهو بذلك يحفزنا على الجد في المناقشة والمحاورة والمناظرة حتى تصل المعلومة الصحيحة ثابتة إلى الذهن وتستقر فيه مع الفهم الصائب وقد كانت لنا الوقفات مع الشيخ بهذا الشكل .

من ذلك ما حصل بيني وبين الشيخ في موضوع الحل والحرمة بالنسبة لبعض المواد التي تستعمل في التوابل ويمكن استخدامها كمادة مخدرة بنوع استعمال وهل المادة المخدرة نجسة كالخمر أم أنها محرمة فقط لكونها مخدرة ؟ وهل الخمر نجسة كما يقول علماؤنا أم غير نجسة لأن اللفظ فيه اشتراك ولا يخصص إلا بدليل . . درسان وأنا وشيخي في أخذ ورد من العصر إلى المغرب والدليل بالدليل والحجة بالحجة في يومين متواليين قال لي الشيخ بعدها : يا شيخ محمد أمين : كلامك صحيح والحق معك ولكنك لم تستطع إقناعي وأنا كلامي صحيح والحق معي

ولم أستطع إقناعك بأنه من سألت فأفت بعلمك ولا حرج وإنه أنا سألت فسأفتي بعلمي ولا حرج .

لقد كانت دروسنا عند الشيخ ملا غنية جدًا وبالمناسبة فإن الشيخ اسمه محمد خليل لكنه عند الكثيرين ملا خليل فلقد كانت دروسنا عنده ملأى بالعلم .

دخلت إلى غرفة الشيخ لحضور الدرس وسلمت عليه فبادرني بسؤال ما هو الحكم بكذا ؟ فأجبته فقال لجالس أمامه هل اقتنعت ؟ فقال : يا سيدي أنا مقتنع .. وذهب الشيخ إلى القول تعرفون قصة الرجل ؟ قلنا : لا قال : هذا الرجل صلى العصر في جامع الرومي - وهو جامع قريب - وخرج الإمام من المصلى وكان أحدهم سأل الشيخ سؤالاً - الشيخ معروف بالنسبة لبعضنا - وأجابه الشيخ فانبرى هذا الرجل وقال للشيخ : يا شيخ أنا رجل عامي ولست بعالم فلا تؤاخذني هذا هو الجواب الصحيح عن السؤال ؟ فقال : نعم وأنا سمعته من الملا خليل فجاء الرجل وسألني السؤال وكانت إجابتي مغايرة لإجابة الشيخ فقال الرجل هذا الجواب معقول .. قال الشيخ : ثم فتحت الكتاب وقرأت الجواب من الكتاب .. وكل داخل منكم

ألقي عليه السؤال والجواب واحد عند الجميع والمسألة عادية طبيعية لكن المهم الذي ينبغي أن يلاحظه كل إنسان ما علق به الشيخ على هذه الواقعة حيث قال :

هذا الشيخ حضر لدي دروس الفقه تسع عشرة سنة وليس بفقيه ولو حضر دروس الفقه ألف سنة فلن يكون فقيهاً لأن علم الفقه يرتكز على علوم لابد للإنسان من دراستها حتى يستطيع فهم علم الفقه والتمكن منه وهي علوم المعقول والمنقول وما يتبع ذلك والشيخ هذا ليس طالب علم وإنما هو مستمع يحفظ الأحكام حفظاً وعندئذ فمن الممكن أن يخطئ بينما طالب العلم يتلقى أحكام الفقه ضمن أصوله وهذا هو الفارق بين العالم الذي يضبط العلم بأصوله وبين المستمع .

أحياناً أمر في طريقي أمام جامع الديري وقد يكون من وري وقت صلاة جهرية فأدخل إليه للصلاة والإمام صديق لي حيث أن الشيخ ملا خليل ترك الإمامة والخطابة في الجامع لكن دخلت مرة لصلاة المغرب فكان الشيخ ملا هو الإمام وسمعت قراءته فأعدت صلاة المغرب

لأنني لأول مرة أسمع قراءة من مقام العذب ولحن نغمة رائقة وليس في تراثنا منها سوى موشح واحد وقد أُخِذت بقراءة الشيخ بهذه النغمة واستقر في ذهني أن صلاتي لم تصح لعدم وجود أي حضور مني فأعدتها وفي مدى ما يقارب خمس سنوات كنت إذا مررت من أمام الجامع في وقت صلاة جهرية أدخل وأصلي وأحياناً أرى الشيخ يصلي لكنه ليس الإمام والخلاصة صليت وراء الشيخ خلال ما يقارب خمس سنوات ثلاث مرات فقط سمعت قراءته فيها ويوماً دخلت إلى صلاة المغرب وكان الشيخ ملا يصلي مقتدياً وبعد الصلاة سألت الحاج عبد الله الحلاب عن الأمر فقال لي إن الشيخ عبد الله الشامي هو الإمام والشيخ ملا يأتي لزيارة ابنه في الحي ويأتي في وقت الصلاة فيصلي فإذا رآه الشيخ الشامي قدمه للإمامة لكن الشيخ ملا يتأخر قليلاً بحيث يدخل بعد تكبيرة الإحرام فأحياناً أراه الشيخ فيقدمه وأحياناً يأتي الشيخ بعد وهكذا.

كان هذا قبل أن التزم بالدروس عند الشيخ وربما كانت واحدة من البواعث ولا أعني القراءة وإنما حضوري

المتكرر للصلاة وراء الشيخ كان يلح في ذاكرتي أخيراً بأن الشيخ له دروس فلم لا تسأل عن مواعيدها وتحضرها .. وللمناسبة أيضاً فإن الشيخ لا يعرف النغمات ولا الأصول الموسيقية وإنما هذه سجيته في القراءة .

في الدرس الخاص يأتينا زائراً وأكثر في بعض الأحيان قد نعرف أحداً منهم وقد لا نعرف وهذا أمر عادي

الإعانة على العلم

يوماً قال لنا الشيخ : لقد قال لي أحد التجار سمعت أن لديك دروساً على سوية عالية يحضره علماء فقلت نعم وهؤلاء علماء يقومون بالتدريس والشعائر فقال : سوف أحضر هذا الدرس لأزورهم وقد قررت إعطاء مبلغ شهري قدره خمسمائة ليرة لكل فرد فإن الكثير من أهل العلم إذا وجدت لديهم كفاية لا يلتفتون إلى عمل آخر بل يظلون على مثابرتهم بجد على الكتب واجتهادهم .. قلت : وهذا صحيح قال الرجل : لذلك أريد زيارة هذا المجلس حتى أراهم

فقلت أهلاً وسهلاً .. قال الشيخ : وقد حضر الرجل المجلس ورأى المدرس والحاضرين وقال لي فيما بعد : هذا درس علماء فضلاً وليس درس طلاب علم وقرر العطاء في أول هذا الشهر .

كتب الشيخ أسماءنا على ورقة بعد اسمه لأنه مشمول طبعاً بهذه المنحة وكان يعطي المبلغ فيوقع آخذه بجانب اسمه وطلب مني الشيخ التوقيع ففعلت وحمل قطعة النقد ليعطينيها فوضعت يدي فوقها وضغطتها على الطاولة وقلت : ياسيدي أنا لست بحاجة إليها فلدي أعمالي العديدة والستر موجود بفضل الله وقد قالوا من علمني حرفاً .. وقد تفضلت علينا يا سيدي بما لا يفي بحقه إلا رب العزة سبحانه فقال : يا شيخ محمد أمامي كلهم هذا عطاؤك قلت : قد قبلته ياسيدي وهو هبتي التي أرجو منك قبولها .. - إنه مبلغ خمسمائة ليرة في ذلك الوقت يقارب نصف راتب الموظف الوسط إلى الأقل قليلاً فهي إعانة مجزية في ذلك الوقت فهي إعانة مجزية في ذلك الوقت وظل الحال هكذا عدداً من الأشهر لم تتجاوز السنة فتوفي الرجل وتوقف العطاء .

لم تكن زميلاتي كلهن بحاجة إلى هذا العطاء ولكنه كان كذلك للبعض وأما البعض الآخر فكان يسد أموراً ويرفه في أمور. وطالب العلم إذا كان على جانب من اليسار فلا مانع من أن يبرز الناس بسببين أحدهما كونه منقطعاً عن التكسب من أجل العلم والثاني إكرام أهل العلم فيه إجلال للعلم وتقدير لأهله ولذلك أذن العلماء بإعطاء طالب العلم من مال الزكاة لأنه منقطع للعلم. هذه الظاهرة وجدتها في هذا الإنسان الذي ذكر الشيخ لنا إسمه بعد وفاته والرجل أعرفه وأحد أبنائه صديق لي لكنني لم أكن أعرف أن هذا عطاءه قبل أن يذكر لنا الشيخ ذلك. وللأمانة فإن أهل الخير كثير ومن جداً فقد كانوا يبذلون هباتهم التي تقوم عليها أنشطة الجمعيات الخيرية المختلفة ومنها التي تعنى بالتعليم الشرعي مثل المدرسة الشعبانية واسم جمعيتها جمعية التعليم الشرعي وكذا جمعية النهضة الإسلامية التي كانت تمول مدرسة الكلتاوية وجمعية الفرقان التي كانت تمول مدرسة الشيخ أديب حسون .. الخ.

نظرت إلى هذه الفترة في بدايتها سرورهم وفي نهايتها خيبة تمنوا أن لو طال عمر الرجل ورأيت في الثانوية الشرعية وفي الشعبانية حيث كنت مدرساً أن بين من وصل الصف النهائي في كل صف المدرستين أن بعضاً من الطلبة المجدين سيتوقف سيرهم العلمي فقلت لو أنني فعلت كما فعل المرحوم ورفدت واحداً أو اثنين في كل سنة بخمسين ليرة شهرياً فيتمكن من متابعة دراسته وهو المجد وسيخرج عالم بخمسين ليرة شهرياً إنه لثمن بخس للأثمن حاصل وكان أن آتت هذه السنة أكلها وبت أرى هم اليوم علماء لهم حضورهم والحمد لله لكن واحداً منهم عرف أنني كنت رافده ولا أدري كيف عرف المهم فيما قدمت أن الانفاق مهما بذل للعلم فالعلم أكبر ويستحق أكثر ومع ذلك رأيت في صاحبي وأعيدها إنه لثمن بسيط في موضعه ولمستحقه يعطيك عالماً ملء السمع والبصر .

كنا جلوساً وساقينا يتحفنا بكؤوس الشاي العقيقي ننتقل بعده إلى الدرس نقرأ مادتين أو ثلاثاً وكالعادة من العصر إلى المغرب إذ دخل الغرفة اثنان ألقيا السلام وقبلا يد الشيخ وجلسا أمامه وكان أحدهما سيف الدين ابن الشيخ ومعه شاب

في مقتبل العمر عرفنا بعد قليل أنها

قِصّةُ زَواجْ

قال الشيخ ملا خليل لابنه : ألهذا الذي خطب ابنتك؟ قال نعم قال الشيخ للفتى : أنت تطلب ابنتنا للزواج ؟ قال الفتى : هذا اشرف لي يا سيدي قال الشيخ : أنت تصلي ؟ قال : ياسيدي كنت أصلي الجمعة وبعض الأوقات لكن منذ حوالي ستة أشهر إلى الآن أصلي كل وقت بوقته والحمد لله قال الشيخ : ما عملك يا بني ؟ قال أعمل في محل للبلاط بأجر اسبوعي قدره كذا قال الشيخ : ضع يدك في يدي فوضعها قال الشيخ : زوّجتك ابنة ابني فلانة بنت فلان على مهر معجل ومؤجل قدره ثلاثة الاف ليرة سورية قل قبلت فقال الشاب : قبلت فقال الشيخ : بارك الله لكما وعليكما وجمع بينكما في خير ودعا لهما ..

قال الشاب : يا سيدي لهذا العقد حتى العرس ؟ قال الشيخ : لهي زوجتك إن شئت أخذها فاذهب وخذها الآن قال الفتى : إن أمهلنا الأمر اسبوعاً أو اثنين حتى يتم التحضير

من قبل الأهل قال الشيخ: لا بأس هو أمر يعود إليكم قال الفتى: يا سيدي نحن لم نتكلم في الملبك؟ قال الشيخ: هو هدية الزوج لزوجته وهي الآن زوجتك وليس لأحد أن يفرض على الزوج هدية لزوجته قال الفتى: وماذا بشأن الملابس فنحن لم نتكلم بشيء من ذلك؟ قال الشيخ: يا بني إن ابنتنا لديها ملابس وهي الآن زوجتك فإن شئت أن تشتري لها ثياباً فهذا شأنك وزوجتك وليس شأننا وأنا أطلب منك طلباً واحداً هو لا تكلف نفسك فوق الوسع.

رأيت بعيني وسمعت بأذني كل شيء شرعي وفي نفسي قلت هذا لو أن الناس طبقوا ولم يشددوا .. والشيخ ابتدأ الكلام وقد ذكرنا وقال: إن الشاب طلب ابنة سيف الدين ونحن تعرفنا عليه وقد سألته الأسئلة قبلاً هي التي سألته إياها الآن وطلبت منها الحضور إلى هنا في هذا الوقت لسببين السبب الأول لتشهدوا أنتم أنني أعطيته ابنتي لأنه يصلي والثاني لتكونوا أنتم شهود العقد فأنتم العلماء وأنتم العدول وإن جرى أمر يوماً فلن يأتي متنطع ليفسخ العقد بتفسيق الشهود كما يفعل البعض وهذا أمر فاسد في أصله فبإذاحكم بتفسيق

الشهود فإنه يحكم على فساد النكاح من أصله ولهذا أمر له تبعات ثم كيف يحكم بتفسيق الشهود وهو لا يعرفهم ولم تقم بينة على ذلك عنده.

قال الشيخ صلاح: ياسيدي أنت قلت المهر ثلاثة آلاف ليرة وفي وقتنا المهر بين أربعين إلى خمسين ألف ليرة قال الشيخ: النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا مهر في أقل من عشرة دراهم ويصح الأكثر طبعاً والعشرة دراهم تساوي في وقتنا ثلاثمائة ليرة وأنا فرضت عشرة أضعافها يا شيخ صلاح اعلم أنه الرجل إذا طلب ابنتي ولم أعطها أو ابنتك ولم تعطه أو ابنة الآخر ولم يعطه لهذه الأسباب لا لسبب شرعي ثم ذهب وزنى فالإثم عليه طبعاً لكنه الإثم علينا نحن الذين طلب منه عندنا ولم نعطه ثم من يمن المرأة يسر مهرها قال الشيخ صلاح: ياسيدي أنت لم تطلب منه المليك مع أنه ذكر ذلك؟ فقال الشيخ: لا انتبهوا جميعاً نحن نقرأ الفقه وفي فقهنا المهر موجود وله أحكامه ولكن هل المليك أو الملابس مما هو مشروط أوله أحكام في فقهنا؟ فقلنا جميعاً: لا فتابع الشيخ إن المليك والملابس هدية يقدمها الزوج لزوجته فهل في الهدايا شروط

والتفاقات؟ فقال الشيخ صلاح: لكن يا سيدي هذه من العادات التي درج الناس عليها فقال شيخنا: نعم للأسف لكن نحن هنا ندرس فقهاً ولا ندرس عادات نحن نتبع ديناً ولا نقول إنا وجدنا آباءنا على أمة ثم أي عادة هذه أن يشترط على الخاطب هدية للابنة من الذهب بمقدار كذا وكذا وملابس كذا وكذا والخاطب أجنبي ولا يكون زوجاً إلا بعد العقد إن من يطلب هدايا للابنة من شخص أجنبي هو شخص لا نخوة في رأسه ولا شرف وبعد العقد هو زوجها فإن شاء أن يأتي لها بهدية أم لم يشأ فهذا شأنها وقد سمعتم سؤال عند المليك بعد العقد وكذا الملابس فقلت الآن هي زوجتك إن شئت أهديتها وإن شئت لم تهد أيعقل أن تكون دراستنا أحكام الشرع ويكون تطبيقنا ما درج الناس عليه من عادات.

كانت ساعة وعظ رحمانية نبه فيها الشيخ القلوب الغافلة والأفهام الوسنى وما تكلم إلا حقاً ولا نطق إلا صدقاً.

بدأنا درسنا بعد الواقعة وعند خروجنا من الدرس قلت للشيخ صلاح: يا ابن عمي أعتب عليك وأشكرك فأما

العتب فلأنك تدخلت في أمر عائلي يخص الشيخ ولا يخصنا بشيء، المهر والمليك .. الخ وأنت أقحمت نفسك فيه معترضاً وأشكرك لأنك لو لم تقل ما قلته لما أتتنا الملاحظات الذهبية من الشيخ فكشفت الغين والران عن الأفهام والقلوب فقال الشيخ صلاح مبتسماً: ألا ترى أن هذه الفوائد تغفر ذلك الفضول؟.

أمسكت كتاباً من مكتبتي وتصفحته بعد قراءتي عنوانه الذي أعلمني بأنه حاشية الباجوري على متن السلم في علم المنطق ومن خلال التصفح وقراءة البعض من العبارات وجدت أن الكتاب مستقص فمعلومات المدرسة كانت هزيلة جداً وشملت بعضاً قليلاً جداً من أبحاث المنطق ولابد منه فهو ضروري لمن يقرأ كتب العلم وأتيت الشيخ وحكيت له ما حصل فقال: يجب أن نقرأ المنطق فهو ضروري فقلت في نفسي الحمد لله لأنني طلبت ذلك قبل يومين من الشيخ العلامة عبد الرحمن زين العابدين فقال لي بصوته الضعيف المتهدج: الآن أتيتني وكان المرض قد أنهكه فعلاً فتوجهت إلى الشيخ ملا فواقوه على

القراءة وحكى لنا أنه تلقى المنظومة عن العلامة رمضان البوطي رحمه الله والد العلامة الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي (١)

---

١ - العلامة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي من أعلام علماء الأمة في المنقول والمعقول خرج من الجامعة أجيالا من التلامذة وكانت له دروس عامة في مساجد دمشق وكنت أحضرها ما استطعت كما كنت أحضر خطبة الجمعة لديه إن تيسر لي حيث أن وقتي يحكمني كعسكري والشيخ له أنشطة علمية واسعة وهو مثقف جدا ومطلع جدا وله حضوره المتميز في المؤتمرات داخل الوطن وخارجه وقد ألف الشيخ عددا من الكتب قرأت معظمها مما وصل إلي فرأيت فيها ذخرا للعالم وزادا للمتعلم والدارس والهداية للمطالع كانت للشيخ العلامة أسبوعية محببة في التلفاز ينتظر الكثير وسعى لإنشاء فضائية دينية فكانت نور الشام المحطة الدينية العلمية الهادفة الجادة قتل الشيخ وهو يلقي درسا له في أحد مساجد دمشق وكان ذلك بحزام ناسف يحمله أحد الآثمين لحتفه فقتل الشيخ وعدد من الحضور وذلك في سنة ٢٠١٣ رحمه الله

وأي كتاب في أي مادة يقول أحدنا مفصحاً عنه رغبته في قراءته يحصل الإيجاب مباشرة.

وكان أن قرأ لنا الشيخ شرح الأخضري وشرح الباجوري وقد حفظت المتن للضبط وقد فضّل الله ذلك علي والحمد لله

الوهم الغريب

توجه الشيخ إلي كثيراً بالأسئلة وتفسير العبارات وشرحها في أحد دروسنا وكنا نقرأ مواد ثلاثة هي الفقه ثم المنطق ثم النحو وكان زائر درسنا يومها الشيخ أبو محمد وهو زميل دراستي الإبتدائية وصديق لي وهو يحضر دروس فقه فقط لدى الشيخ مع أشخاص في مستوى دون مستوى درسنا قال لي الشيخ بعد أيام وكان للكلام مناسبة أتدري لماذا حضر الدرس زائرنا الشيخ أبو محمد منذ أيام ؟ قلت : لا أدري والله أعلم ربما أراد سماع شيء من فقه الهداية قال لا ففي درسنا لهناك قال لي بأنك زميله في الدراسة الابتدائية وكنت كسولاً فكيف تحضر الآن الدرس الأعلى ؟ فقلت له:

أنت والهمم وإن شئت فاحضر الدرس وسوف ترى حضوره
قلت: يا سيدي لقد كنت وإياه في المرحلة الابتدائية وأنهينا لها
وترتيبي في النجاح أني واحد من الثلاثة الأوائل وأمّا أحمد
فتفهيره الله قال الشيخ: ولذلك توجهت في الدرس كله إليه
أمر وكان له العجب من درس المنطق فهو لم يفهم منه شيئاً
كما قال لي وعقب بقوله: أنا كنت والهمم فقلت له لكنك يا شيخ
أبو محمد اغتبته ألم تلاحظ ذلك قال: لقد لاحظت ذلك لعن
الله الشيطان سوف أحضر لأعتذر منه وأطلب السماح فقلت:
سأنوب عنك وسيسامحك .. وكنت قد قلت أثناء حديث
الشيخ عدة مرات سامحه الله.
كم أفدنا من الشيخ علماً أنا وزملائي في الدرس الخاص
إن الشيخ الملا خليل أحد الثلاثة الذين بنوا شخصيتي العلمية
في إطار الدروس الخاصة وخارج الإطار المدرسي والإطار
العائلي والهمم الملا خليل في علوم عدة ومنه وحده علم
المنطق والشيخ محمد الملاح في الفقه وحاشية ابن عابدين
وسيدي الشيخ عبد الله سراج الدين في العلوم الشرعية وخاصة
التفسير والحديث الشريف والسلوكيات الشرعية وذكر سابقي

العلماء لهؤلاء لا يعني استبعادي غيرهم من الأساتذة والشيوخ والعائلة .. والدي وأعمامي فقد كنت بذكرهم طبعاً جزى الله كل ذي فضل فضله وزيادة وأجزل لهم الحسنى بكرمه

قلت أفدنا من علم الشيخ كثيراً وكنا معه إلى آخر مسيرة حياته الفياضة بالعطاء حيث كانت في أواخر العقد التاسع من القرن العشرين يرحم الله سيدي الشيخ الملا خليل

قال لي أحد الأحبة أحصيت دروسه الأسبوعية فكانت ستاً وثلاثين

الشيخ محمد الخوجة (١)

عالم كان في البداية صاحب كتّاب خرج كالكثير من الكتاتيب أجيالاً وفي جملة من تخرج من هؤلاء والدي الذي حكى لي أنه حفظ القرآن لدى زوج أخته الشيخ محمد الخوجة في تسعة أشهر وكان عمره أحد عشر سنة أو قال في أحد عشر شهراً وعمره تسع سنوات وكان الشيخ في فترة ما يسكن عند جدي ثم اشترى داراً جميلة أمام جامع الرومي في الطريق من باب قنسرين إلى السفاحية .

الشيخ محمد الخوجة (١)

الشيخ محمد الخوجة كان يقوم بوظيفة الخطابة في جامع الكيزواني (١) ثم انتقل إلى جامع التوبة (٢) وبقي فيه إلى آخر حياته .

---

١ - جامع الكيزواني : في حي العقيبة خلف حمام عتاب للداخل من سوقه باب الطاقة وهو مرتفع يصعد إليه بأكثر من عشرين درجة وقد أدركت الشيخ محمد والدي وكيلاً عنه وكان طالباً صغيراً سن وبينما هو على المنبر إذ دخل أستاذه العلامة الشيخ أحمد الزرقا وبعد الصلاة تقدم والدي وقبل يد شيخه فقال الشيخ : يا عبد الرحمن أتظن أن صلاتك صحيحة وأنت بهذا السن ؟ قال بل أجزم يا سيدي قال : وما دليلك ! قال : أنت يا سيدي صليت وما أنكرت شيئاً وأنت فقيه الأمة فتبسم الشيخ وقال : وفقك الله يا بني .

٢ - جامع التوبة : في أول باب السريجة في زاوية المغاربة الأربعة كان زوج عمتي الشيخ محمد الخوجة خطيباً فيه حتى آخر حياته ثم انتقل إلى أبي فكان خطيبه إلى آخر حياته وبينهما أقل من سنتين ثم نقلت خطبتي إليه بضع سنوات لأستقر مؤخراً في جامع المرابط قريباً من داري .

الشيخ محمد الخوجة ①

لم يلتفت الشيخ إلى التدريس في المدارس أو الجوامع لكنه كانت جلسات في بيته لأشخاص محددين جداً وكان يحب الجلوس مع والدي كثيراً لمدارسة أنواع العلوم الشرعية فإذا غاب والدي عن زيارته يوماً أو يومين فإنه يفتح باب الدار بعد صلاة الظهر أو العصر حيث يخرج والدي من إمامته في جامع الترسوسي ويمر أمام بيت عمتي في طريقه إلى البيت فيصادره ذو حمى عمتي لأجل المراجعات .

لدى الشيخ مكتبة عامرة نفيسة تذكر بين المكتبات الخاصة في حلب ومنذ أحداث وحوادث حلب لي قسم منها انضم إلى مكتبتي وبقية مكتبة الشيخ تبرعوا بها للمكتبة الوقفية وجاءت الحرب الأهلية فأكلت الأخضر واليابس وحرقت المكتبة المكتبة الوقفية وسرقت وأيضاً مكتبتي لا أدري ماذا حل بها ولا يسمح لأحد بدخول منطقة بيتي لأنها منطقة مواجهة محرمة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كان الشيخ ملتفتاً إلى عمله طرفاً من النهار في تيسير المعاملات ومن ثم يعكف على المطالعة والمراجعة .

في سنة ١٩٦٧ أذن لي والدي بالذهاب إلى البيت الحرام

الشيخ محمد الخوجة (١)

للحج فكنت في صحبة زوج عمتي الشيخ محمد الخوجة وعمي الدكتور عمر
خياطة وكانت المرة الأخيرة التي ذهب فيها الشيخ إلى الحج
حيث فترت قيه الرهة شيئاً فشيئاً ولهو في بحر التماثيات من العمر
وانتصر مرضه على لحمة وما عتم من الإزدياد إلى أن انقضت
اللحظات الأخيرة من حياته في سنة ١٩٧٥ رحمه الله الشيخ محمد الخوجة

الشيخ محمد الخوجة (٢)

عالم جليل هو من زملاء والدي في الدراسة وهو
خطيب جامع الأصفر (١) ولم يمتهن التدريس وأنا لا أعرف
له دروس عامة أو خاصة وما أعرفه أنه يزاول التجارة

---

١ - جامع الأصفر : هو جامع قديم صغير في مصلاه
وله قبة سماوية واسعة نوعاً وهو في حي الجلوم
الصغرى يشغل الزاوية اليمنى للذاهب من الزاوية
الهلالية شرقاً ثم ينعطف باتجاه باب قنسرين وبجوار
الجامع سبيل هو سبيل الأصفر .

الشيخ محمد الخوجة (٢)

في محله الكائن في السويقة بجانب محل سباعي وحبال(١) وكان الشيخ كلما أراد سفراً أو كانت له غيبة يتصل بوالدي ليكلفني بالخطبة في غيبته ولم أكن بعد مكلفاً بالخطبة من قبل الدائرة الوقفية وكنت طالباً مستمراً لسن ولأن صلتي بالشيخ كانت عن طريق والدي فلم أكن لأعرف شيئاً عن نشاطه العلمي فلم يكن مدرساً في مدرستي ولا هو أستاذي ولا أعرف له مجالس سوى أنه خطيب وتاجر لكنه صاحب نشاط علمي وله عديدة في واقعات ومسائل عديدة اطلعت عليها في حينها وفي

---

١ - الشيخ عبد الوهاب السباعي وشريكه الحبال والشيخ محمد الخوجة زملاء والدي في الدراسة وهم علماء والشيخ عبد الوهاب السباعي من سكان الجلوم الكبرى ذو قامة الخائله ولا أعرف شيئاً عن نشاطه العلمي لأنه توفي مبكراً عندما كنت في المرحلة الابتدائية وابنه فاضل في نفس صفي ولكن ما أعلم وما سمعته عنه حتى بعد وفاته أنه من البارزين في العلم وأنه وشريكه الحبال عالمان جليلان لهما دكان مجاورهما ملاصقاً لمحل زميلهما الشيخ محمد الخوجه.

وإليكم الآن منها شكلة :

الصلاة النارية

هي واحدة من صلوات كثيرة يرددها أهل الطرق الصوفية وكل منهم يختار واحدة منها وهي تسمى صلاة لأنها صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيها بعض الصفات أو نوع دعاء أو طلب من الله بجاهه وتوسلات .. الخ .

حصلت الشحناء يوماً بين فريقين من العلماء في مقدمتهم الشيخ محمد المدوح ولا أعرف في ذلك الوقت من كان واقفاً في صفه من جهة وفي الجهة الأخرى كان الشيخ محمد الخوجة وفي جانبه كثير من العلماء .

وقد تبادلوا الردود مطبوعة غالباً توزع على الناس ومن له مجلس كان يبث رأيه في مجلسه وفي رأيي أن الأمر علمي لما أورده فينبغي أن يكون محصوراً في العلماء لأن الأمور العلمية تقوم على أصول وقواعد علمية يعرفها العلماء ولا يفهمها العامة ولذلك حصلت الشحناء في جماعات كل

وحصلت أمور لا تحمد لكن الفتنة اضمحلت بتوفيق الله تعالى للعقلاء والحكماء .

وتحوى الخلاف جار في آخر عبارة من الصلاة وهي :

بعدد كل معلوم لك فالشيخ الملاح لم يجوز هذه العبارة لأن فيها تحديد العدد .. وهذا غير جائز عندنا على الله ولا أذكر الآن ما تعليله وقد مر على المسألة أكثر من خمسين سنة وقد رد الطرف الآخر بأنها كانت في أوراد أعلام علماء الأمة من المتأخرين قدمائهم ومحدثيهم وأن قوله بعدد كل معلوم لك لا شيء فيها لأن المعلوم عند الله غير محدود وأن العدد وإن كان لا يتناهى عندنا فإن علم الله أوسع من العدد .. الخ وأتوا بنصوص للفقهاء وما رأوا فيه دحضاً لمفهوم خصمهم حتى أن أحدهم ذيل رده بقول الشاعر :

ما ضر شمس الضحى في الأفق طالعة

أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

وفي رأيي أن هذا يخالف آداب البحث والمناظرة التي لا تخفى على دارس العلم الشرعي من علمائنا الأفاضل فإن كانوا في ردودهم تحركهم شناءة لهم فليس عجباً وجود ها في الرعاع

فلت حصلت أمور كنا نتمنى عدم حصولها لكنها فتنة أطفأها
الله وقد كنت محتفظاً بردود الطرفين منذ ذلك الوقت لكن
ضمن ظروف الحرب الأهلية الآن لا أدري ماذا حل بها وقد ذهب
البيت وما حوى سيما وأن فيها الفتوى الرشيدة التي صدرت عن
مفتي الشافعية العلامة الشيخ أسعد العبه جي في ذلك الوقت
وصبت الماء على النار وكانت أول أسباب اندحار الفتنة .

وفي نوع تأمل للعبارة نجد أن فيها العموم والخصوص
المطلق فلا إشكال في العبارة من جهة قول البعض أنها
توهم العدد وذلك أن لفظ (معلوم) هو جنس لجميع أنواعه
لأنه من العلم فهو جنس قريب وفيه الكل دون ، وبما أن علم
الله مطلق فهو أعم من المعلوم بأنواعه وتسليط العموم
على المعلوم طبيعي للإطلاقه في جانب الذات الإلهية ..
وانحصاره في جانب المخلوق ولذلك أتبعها بالملك والخطاب
(لك) وأما قوله (العدد) التي ظن البعض إيهامها فلا
لأنها في الخصوص فكل مخلوق معدود في علم الله لا في علم
البشر والمعلوم كجنس أنواعه معلومة عند الله (ألا يعلم
من خلق) ولفظ موصولة لا استفهامية لكن الأنواع لجنس

المعلوم ليست كلها معلومة لدى البشر أما عدد الأفراد في كل نوع فهي في علم الله معلومة وليست كذلك عندنا وكأنك تقول : بعدد الأنواع تحت الجنس (المعلوم) التي تعرفها جميعها بعلمك المطلق ولا نعرف إلا بعضها مما علمتنا وبعدد الأفراد في كل نوع والتي أنت يحيط علمك بها وبعددها وعلمنا قاصر عن ذلك .

نحن نعرف من أنواع المعلوم مثلاً الشجر والحجر والحيوانات والبشر .. الخ لكن هناك أنواع لا نعرفها في عالمنا وفي عوالم الله الأخرى لكن الذي خلقها يعلمها والأنواع التي نعرف نحن بعضها في عالمنا لا نعرف أعدادها على وجه لكن الله عز وجل يعلم أعدادها فلم وجد من البشر من بدء الخليقة وسيوجد إلى يومنا .. وإلى يوم القيامة .. الله وحده يعلم وكم من الشجر وجد من بدء الخليقة إلى يومنا .. وسيوجد إلى يوم القيامة .. الله يعلم وكم من النجوم والكواكب وجد وسيوجد من بدء الخليقة إلى يوم القيامة .. الله يعلم ثم ماذا بعد يوم القيامة .. هذا كله في علم الله المطلق المحيط بكل شيء فالأنواع

مخلوقة وكل مخلوق محدود بعلم الله المطلق وكل نوع أفراده محدودة في علم الله المطلق .

فقوله في الصلاة النارية (بعدد كل معلوم لك) العدد مسلط على الخصوص أي على ما يعد من المعلوم وليس على العلم وهو عموم وهذا أمر لا إشكال فيه ولا مانع منه وهو كلام دقيق ونعلم أن العلم معرفة المعلوم ولأن علم الله مطلق فإنه محيط بكل معلوم ففي العبارة عموم وخصوص مطلق فالأمر لا ينبغي أن يكون موطن إشكال لعوالهم ونحن ننزه ربنا عز وجل عن أي ما يحد في الذات أو الصفات أو أي مجال مما يخطر في أذهاننا وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك .

وعوداً إلى شيخنا الشيخ محمد الخوجة الذي فارق الفانية إلى الباقية في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين . يرحم الله الشيخ محمد الخوجة .

الشيخ عبد الرحمن خياطة

الشيخ عبد الرحمن خياطة

عالم حافظ مقرئ فرضي فقيه هو سيدي الوالد الذي كان منهلي الدائم وربما الوحيد في بعض الأحيان حفظ القرآن الكريم في حداثة سنه لدى صهره زوج أخته الشيخ محمد الخوجة وهو ابن تسع سنين في أحد عشر شهراً أو ابن إحدى عشرة سنة في تسعة أشهر ودرس العلم الشريف في الكلية الشرعية - هكذا كان اسم الثانوية الشرعية - على يد فحول العلماء.

كنت يافعاً عندما أدخلني والدي إلى المدرسة الأسدية (1)

١- المدرسة الأسدية: في سوق باب قنسرين أثرية قديمة وهي واحدة من مدارس العلم الشرعي المنتشرة في مدينة حلب والتي قيل أن عددها يبلغ نحواً من أربعمائة مدرسة ولا عجب فمنها المدارس الكبيرة كالخسروية والشعبانية والعثمانية ومنها الصغيرة التي تحتوي على بضع غرف والأسدية مدرسة صغيرة تحتوي على نحو من أربع غرف أو خمس وقد توقف التدريس فيها وفي غيرها من المدارس لأسباب شتى وكان آخر سبب هو جمع طلاب هذه المدارس في الشرعية والشعبانية ثم الشرعية وحدها.

في سوق باب قنسرين على مسافة نحو من ثلاثين متراً من جامع الترسوسي وكان ذلك لزيارة صديق له وأشار إلى إحدى الغرف وقال لي: هذه كانت غرفتي التي كنت أدرس فيها وقد مكثت فيها أربع سنوات متوالية لم أبت في بيتنا منها ليلة واحدة وكنت أذهب إلى البيت لتناول الطعام فقط وأعود للدراسة لقد كانوا يخصون كل طالب بغرفة في مدرسة من المدارس المعطلة أو جامع من الجوامع ليكون الطالب متفرغاً للدراسة ويتوخون قربها من بيت أهله قدر الإمكان لحاجته لذلك.

تلقى والدي الشيخ عبد الرحمن القراءات الأربعة عشر من الطريقين من أخيه شيخ القراء الشيخ محمد نجيب ومعلوم أن ذلك يكون بحفظ المتون الخاصة بذلك وعرض المتلقي الأداء المطلوب منه أمام الشيخ وقد أشار لي والدي إلى آخر أحد المتون وقال: بقي لي هذه الأبيات - وهي ضمن أبيات أوسط فيها ختام المتن - حتى أحصل على الإجازة وألح علي عمك أن أسمعه إياها حتى يجيز لي بالقراءات كلها فلم أفعل قلت: لماذا وقد أتقنتها حفظاً وضبطاً؟ قال: لكي يبقى أخي فريداً في هذه المدينة لأنه لو أجازني فسنكون اثنين قلت: نعم لكنه يظل هو شيخك

وأستاذك وأنت تلميذه قال: نعم لكن ستكون أستاذه وأنا أريد أن يبقى أخي علماً مفرداً قلت: لكن أنت درست وحفظت وأتقنت والإجازة من حقك قال: يا أخي نحن طلبنا العلم لله ولا حاجة للإجازة عند الله.

عمل والدي الشيخ عبد الرحمن بالتجارة إلى جانب إمامة في جامع الترسوسي(1) وخطبة في جامع زكي باشا(2) أول أمره ثم انتقل إلى مساجد عدة وكان حريصاً على إلقاء درسين في مسجده أحدهما بعد صلاة الصبح والآخر بعد العصر وظل مثابراً عليهما حتى آخر حياته.

---

1 - جامع الترسوسي: جامع أثري قديم يتوسط سوق باب قنسرين في مصلاه مقام زين العابدين.

2 - جامع زكي باشا: في منطقة الإسماعيلية جانب مشفى فريشو وإن قلت عنه بأنه قديم فإنه ليس كذلك إلا لسبب واحد هو أنه أقدم مسجد أحدث في تلك المنطقة لكن طراز بنائه في الداخل والخارج متصل بالأصالة ولنقل بالمدرسة العثمانية فإن زمنه في أواخر أيامها.

تعلم الشيخ الخط العربي دارساً على يد الخطاط حسين حسني (1)

1- حسين حسني ثانية وقد مر ذكره ص 31 خطاط تركي كان من خطاطي السلطان عبد الحميد وبحصول الانقلاب العثماني هاجر من تركيا والتقت به محبا الشباب في حلب فاستقر به المقام فيها وكان يسكن غرفة في جامع التكية المولوية المعروف أيضاً بـ (الملاخانة) بمنطقة باب الفرج تتلمذ على يده عدد من محبي الخط منهم والدي وأعمامي والشيخ محمود الصابوني الخطاط المعروف والشيخ عبيد وغيرهم .. وكان حسين حسني يكتسب من عمله في الخط ونعرف له أعمالاً مشهورة وعندي كراسة له بالخط الفارسي أهداها لأبي وهي بخط يده ولدى عمي الدكتور أيضاً كراسة له بالخط الثلث والشيخ طلبها منه ابن عمي الشيخ صلاح بحضوري فأعطاه إياها فقلت: يا عم إذ تنازلت عنها فأنا أحق بها لأنني خطاط والشيخ صلاح ليس كذلك قال عمي: لقد صارت له فشأنكما فيها معاً لم يوافقه الشيخ صلاح التنازل لكنه بعد سنوات قال لي أنت والله أحق بالكراسة وإن شاء الله سأعطيكها ثم إنه قال مرات من تلقاء نفسه: والله يا ابن

فكان خطاطاً يكتب بالقصب بشكل جيد لكنه لم يتابع التدريب ليكون خطاطاً وإنما تعلم ليكون خطه في الكتابة حسناً وقد كان جميلاً جداً ولدي من آثاره الكثير وكان هو أستاذي الأول في الخط العربي حيث لاحظ ميلي إلى الرسم كثيراً فكان أن

عمي لم تقع الكراسة في يدي وإن رأيتها سأجلبها لك إن شاء الله وتوفي الشيخ صلاح رحمه الله فقلت لابنه فقال لي: إن وجدتها فأعطيكها وبادرني في ذات يوم قائلاً: والله يا ابن عمي لم أجدها. ولم أستغرب ذلك لأن مكتبتنا كبيرة وأعداد الكتب لدينا فيها كم يذكر والكراسة بالنسبة للكتب صغيرة الحجم رقيقة عندئذ عمدت إلى كراسة الخط الفارسي التي عندي فصورتها وقدمتها هدية لعدد من شيوخ الخط في حلب حيث كان لهم عندي درس شهري كأستاذ حسين حسني وحتى لا يحصل المحظور الذي حصل في كراسة الثلث والنسخ التي أخذها الشيخ صلاح .. توفي حسين حسني وهو دفين التكية المولوية أذ ورقبره وقبر اثنين من فقهاء الأمة العظام الشيخ محمد الزرقا الكبير وابنه الشيخ أحمد يرحمهم الله.

وجهني إلى الخط حيث كان يقول لي: إياك والرسم فهو حرام - وتصويري رسم الصور - لأنه الله يقول لك يوم القيامة نفخ لها - وها فهل تستطيع؟ أقول: لا أستطيع وعندئذ تذهب إلى جهنم فهل تريد ذلك؟ أقول: لا فأنا أخاف من عود الثقاب فيقول: أما إذا تعلمت الخط وكتبت آية قرآنية فلك الأجر والثواب .. وهكذا تركت الرسم وأنا في سن السابعة وتعلمت الخط أستاذي الثاني الشيخ بدر الدين طحان في الكُتّاب وذلك بطلب من والدي ثم على يد الأستاذ الثالث الخطاط الكبير ابراهيم الرفاعي(١) يرحمه الله كان يذهب لحج بيت الله كل سنة تقريبًا لأنني في سن الصغر كنت أقول له: لا تذهب إلى الحج لأنك كلما ذهبت لا يكون لدينا دروس للعيد.

في صفاته كان جوادًا غاية الجود فقد رأى في مسجد - رجلاً جالسًا جانب المدفأة صباحًا فقال له: لقد انتهى الدرس ونريد إغلاق المسجد فقال له: أنا بردان فقال:

---

١ - انظر ص ٥٠

البس معطفك - وكان يلبس لباساً صيفياً - فرفض لهذه الثياب فقال: لا يوجد عندي فخلع الشيخ ثيابه الشتوية وألبسه إياها وبقي بلباسه الداخلي وتلفع بجبته وجاء إلى البيت ويوماً كنت معه في دمشق بحكم عمله وبينا نسير أمام جامع السنجقدار إذ رآه مستجدٍ فأقبل إليه وقال: يا شيخي امرأتي هنا في المشفى لعمل جراحي ولا مال لدي فأخرج والدي ما في جيبه من مال وأعطاه إياه وترك معه عشرين ليرة - هي أجر الركوب من دمشق إلى حلب - وقال هيا بنا إلى حلب وفي طريقنا إلى المرجة حيث تنطلق السيارات آنئذ من هناك قلت: يا أبي لهذا الرجل يأتي كل خميس إلى المحل يستجدي.. أما عرفته؟ قال أعرفه قلت: تراه نقل نشاطه الاستجداء إلى دمشق؟ قال: وما أدراك لو كان كلامه صحيحاً... وعدنا إلى حلب دون أن ينهي عمله في دمشق بسبب

الاستجداء

ظاهرة طافية في كل الأيام وربما في كل الأماكن ومن

يقوم بهذه العملية يكون ذا حاجة ربما وقد لا يكون فالمسألة فيها إراقة لماء الوجه لكن المرء قد يقع في أسر حاجته وقد فرض الله الزكاة لسد حاجة الفقراء يقول صلى الله عليه وسلم: إن الله فرض على أغنياء المسلمين بقدر الذي يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يظلم به أغنياؤهم هذا بالنسبة للزكاة المفروضة أما غير المفروض وهي الصدقات فالباب فيها مفتوح والعطاء فيها غير محدود وهي وإن كانت على الاختيار إلا أنها قد يتعلق بها حكم شرعي كالوجوب مثلاً فإذا علم الإنسان أن شخصاً كان بحاجة إلى دفع ضرورة – والضرورة محدودة شرعاً – ولم يعلم بحاله إلا هذا الإنسان فإن الصدقة تكون واجبة عليه.

لكن في المقابل هل الفقراء والمساكين هم الذين يمدون أيديهم ويطلبون بلسانهم أم أن الذين يفعلون ذلك اتخذوها مهنة ولدينا في الهدي ما ينير لنا الطريق فالله عز وجل وصف ذوي الحاجة بالعفة وصفاً بليغاً فقال: (تحسبهم أغنياء من التعفف لا يسألون الناس إلحافاً) هذا شأن

الفقير الذي عوضه وهو مصرف للزكاة والصدقات لسد خلته .

في حاشية الطحطاوي على المراقي يقول : إذا ملك الإنسان عشرة دراهم لم تحل له المسألة والدرهم عندنا يساوي ٣,٣٦ غراماً من الفضة والدراهم العشرة تساوي ٣٣,٦ غرام فضة والمقصود قيمتها طبعاً فإذا ملك هذا المقدار فأكثر لا يجوز له أن يسأل الناس لكن لا مانع من أخذ الزكاة أو الصدقات إن أعطيها فالحد في الزكاة أو في الصدقة يختلف كل منهما عن الآخر فالزكاة يأخذها الفقير وهو عندنا الذي لا يملك نصاباً تجب فيه الزكاة فإذا ملك النصاب فأكثر كان غنياً والصدقة لا حد لها لأنها غير مفروضة ويحل أخذ قليلها وكثيرها وهي جائزة للمسلم وغيره .

وليجهد الإنسان أن يجد عملاً فإن النبي صلى الله عليه وسلم حض على ذلك كثيراً في الأحاديث الشريفة فلأن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب خير له من مسألة الناس أعطوه أو منعوه . من أمسى كالاً من عمل يده بات مغفوراً له .

وعندما رأى الرجل في المسجد قال من يكفيه قالوا كلنا نكفيه قال كلكم خير منه .. الخ

الدين أرشد إلى العطاء بقدر كفاية ذوي الحاجة بفريضة الزكاة ، والصدقات هي الزيادة على الكفاية ، وقد ورد أيضاً الترشيد في المسألة والاستجداء وقدمنا الوصايا والحدود في ذلك ، ومع ذلك نرى من يمديده ، فقد يكون مرد ذلك إلى أن الأغنياء فيهم المقصر وعندئذ تظهر الحاجة وقد يكون من الناس آخذ مكان الفقير في العطاء وعندئذ تظهر الحاجة ، فانظر ترى الأحكام محكمة ، والخلل في تطبيق بعض المسلمين من غني وفقير .

الحق أقول لقد رأيت في الناس أهل خير كثر ويبذلون بسخاء ، ورأيت فيهم النقيض ، ورأيت في الناس فقراء يتعففون فعلاً ، ورأيت النقيض من ذلك وظاهر أنه لا يصلح الأمر إلا إذا استقام الناس غنيهم وفقيرهم على نهج الشرع الحنيف الرشيد .

ونعود إلى سيدي الوالد الشيخ عبد الرحمن خياطة فأقول كان صاحب ثروة لا بأس بها أنفقها بالصورة التي ذكرت

وقد وجد ورقة في أحد كتبه في المسجد - وهي قديمة - فيها ما يقارب ثلاثين إسماً وبجانب كل اسم رقم لمقدار العطاء الشهري أعرف بعض الأسماء ولا أعرف البعض الآخر وكنت بالحال الطبيعي أنفق مما رزقني الله من أعمالي التي كانت متواضعة لأنني أعرف الآن أن والدي يعيش على راتبه فقط وذات يوم طلب مني جلب بعض اللوازم وأعطاني مبلغاً من المال فقلت عندي ما يكفي وأكثر دع المال معك فقال: يا بني دائماً تقول لي ذلك أنا أعرف أنك تحمل أكثر من نصف مصروف البيت لكن أنا صاحب البيت وأنا المسؤول عنه وأنا الذي أنفق قلت: أمرك.

كان الشيخ عبد الرحمن يقيم في مسجد الترسوسي مجلساً يوم الجمعة بعد العشاء للأوراد الرشيدية(1) والذكر ولا يخلو

---

1 - الرشيدية: هي إحدى الطرق الصوفية ولها أسماء عدة لكنها معروفة عندنا بهذا الاسم فمن أسمائها الإدريسية نسبة لسيدي أحمد بن إدريس مؤسسها وهو من أعلام العلماء وله كتاب اسمه نظم جواهر التدريس وهو من الأتقياء ⟸

الشيخ عبد الرحمن خياطة

مجلس من مجالس الرشيدية من حلقة درس يلقيها والدي الشيخ في مجلسنا يوم الجمعة وفي جامع السفاحية حيث حاج صالح دهان يوم الأحد بعد العشاء وفي جامع الذهبي في حي العقبة حيث الحاج محمد عنتر يوم الأربعاء بعد العشاء .

قام والدي بتصفية أعماله كلها من تجارة وزراعة وتعهدات رغبة في الانقطاع عن الدنيويات ورغبة في العلم والعبادة وكان أن لقيه يوماً الأستاذ محمد سماقية صاحب الأوقاف فقال : تعلم أن صاحب الثانوية قد توفي وتعاقب

← الصالحي ولهي الرشيدية نسبة إلى سيدي ابراهيم الرشيدي أحد أعلامها وهو عالم تقي ولهي الدندراوية نسبة إلى الشيخ الدندراوي نسبة إلى دندرة بمصر وأدركت أكثر من واحد اجتمع بالشيخ الدندراوي في بيروت ثم بعد اجتمع بابنه بعد وفاته عندما كان في زيارة لبيروت أيضاً وشيخ الطريقة في حلب الحاج عبد الحميد مهندس والعهد للقائمين بها والدي والحاج صالح دهان والحاج محمد عنتر وبوفاتهم كنت أنا فيها المأذون من والدي ومن جدي الشيخ أحمد حميد البطار رحمهم الله والإذن من جدي كان بأمر من سيدي الشيخ حيث قال لي : إذهب إلى جدك وسلم عليه وقل له : أرسلني خلاله (أي سيدي الشيخ عبد الله) وهو يطلب منك أن تعطيني الطريق . وقد كان ذلك والحمد لله

بعد ثلاثة كان العمل عليهم عسيراً وأنت محاسب بارع ولك في التجارة باع فأرجو أن تقوم بهذا العمل فقال له الشيخ: أنا تركت الأعمال لأتفرغ للعلم والعبادة لا لأحصل على وظيفة فقال الأستاذ سماقية: إنها مدرسة علم وتستحق منا كل جهد للنهوض بشؤونها خدمة للعلم وطلابه ولا بأس باستلامها مؤقتاً ريثما نجد ذا الكفاءة وهكذا كان لهو محاسب الثانوية الشرعية وكانت لهذه المهمة مدخلاً لإعطائه الدروس فيها فكان المحاسب والمدرس.

المدرسة لها ميزانية سنوية يبقى الفائض منها عائداً إلى خزينة الدائرة الوقفية وقد استطاع والدي بخبرته وعلاقاته الواسعة أن يقوم بأود المحاسبة حيث أن القنوات التي تصب فيها المحاسبة عديدة فهي عدا رواتب الأساتذة والإداريين والطلبة لمدرستي الذكور والإناث فيها مطبخ ومطعم يومي يقدم ثلاث وجبات للطلاب الليليين - الوافدين من خارج المدينة - وقسم الغسيل فيه الموظفات لغسل وكي الثياب للطلاب والذي يؤمن الإحصاءات إضافة إلى اللوازم المدرسية الكثيرة واستطاع تحقيق الوفر في ميزانية المدرسة كان

ينفق على شراء الكتب فأسس للمدرسة مكتبة ضخمة هذا ومن
من الكتب نوادرها وبقي والدي في الثانوية وفي الشعبانية
إلى آخر حياته حيث ابتدأ التدريس فيها منذ تأسيسها.
كان الشيخ عبد الرحمن محباً للخير معطاء لا يرى أحداً
في مشكلة أو ورطة أو ضائقة إلا وحلها أو ساهم في حلها ومها
كان الثمن وكثير ممن يعرفني ولهم على الصحبة والصلة معه
يقول لي حصلت معي المسألة الفلانية ولولا جهود والدك
لكانت الأمور سائرة إلى ما لا يحمد عقباه وغير واحد قال
لي: والله لولا مساعدة والدك لما استطعت الزواج حتى
الآن.. أمثال من يذكر الجميل دائماً وذكرت مشكلة
أستاذي الشيخ سامي بصمه جي وكيف كان حلها على يد والدي.
عندما تكون مع سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين
في جلسة خاصة قال لي مرات في جلسات مختلفة: والدك
رجل عالم محب للنبي صلى الله عليه وسلم وسيدي الشيخ
يعرف والدي منذ الصغر فقد كان من تلاميذ العالم الرباني
سيدي الشيخ نجيب سراج الدين والد سيدي الشيخ عبد الله.
نحن نضيع الكثير من الوقت في تنقيل طلابنا القواعد الفقهية

فلماذا لا نطبعها؟ قال ذلك أحدهم في المدرسة الشعبانية وكأن قوله لم يحظ بالموافقة فهي شرح علامة الزمان وفقيه الأمة في عصره الشيخ أحمد الزرقا(1) وفي الموضوع صفوة ورثته وهم الأحق بالطباعة وقد يأبوا فقوننا إذا طبعنا الكتاب ككل نحن أو لا نحفظ حق الورثة فقال والدي وقد قيل هذا الكلام أمامه ذات مرة: لدينا حل بسيط يمكن طبعها على الآلة الكاتبة بورق حرير وسحبها (جستتنر) بالقدر الذي نحتاجه واتركوا الباقي علي ففعلوا ووزعوا الشرح على الطلاب للدراسة فوفروا وقتاً ثميناً وبلغ الخبر الحاج محمود زرقا ابن الشيخ أحمد وهو ليس عالماً إنما هو تاجر فجاء إلى الشعبانية مستنكراً

---

1 - الشيخ أحمد الزرقا: فقيه الأمة في عصره وكان أستاذ جيل العلماء الذين عاصرتهم وأكبرتهم وهم أساتذتي والشيخ أحمد هو ابن الشيخ محمد الزرقا الكبير فقيه الأمة في عصره أيضاً كان والدي وأعمامي من جملة تلامذة سيدي الشيخ خصوصاً في الفقه وأصوله وقد توفي الشيخ أحمد الزرقا سنة ١٩٣٨م ودفن في التكية المولوية (المولوخانة) الكائنة بباب الفرج يرحمه الله.

طباعتهم للقواعد أخبروا والدي فتكلم مع حاج بأن رجل تاجر لكن أمور الكتب وطباعتها وما يتعلق بها من حقوق هي من اختصاص أخي الشيخ مصطفى واقتنع الحاج محمود فذهب على أن يتولى الشيخ مصطفى المسألة .

جاء العلامة الشيخ مصطفى ودخل الشعبانية التي كان هو آخر شيوخها بعد أبيه وجده وأساتذتها هم تلامذة أبيه ومنهم تلامذته وقابل والدي وهو تلميذه وتلميذ والده الشيخ أحمد الزرقا وانتقد الشيخ عملهم دون إذنه فقال والدي : فعلنا ذلك حفاظاً على وقت الطلاب ونحن لم نطبعها كتباً نظامية وإنما هي أماليات على شكل كراس (جستتنر)(1) خاص بالمدرسة وتعطى للطلاب تمليكاً فهي معدة

---

١ - الجستتنر أسلوب طباعي مستعمل في المدارس والدوائر وغيرها قبل وجود تصوير الفوتوكوبي فكان الأسلوب السائد في طباعة عدد محدود من النسخ بأن يأتوا بورقة تسمى - ورقة حرير - ويكتب عليها بالآلة الكاتبة فتخرش مكان الأحرف لتسمح بمرور الحبر من خلالها عندما توضع على آلة تسحب الورقة فيطبع

للفائدة العلمية فقط لا لمنفعة مادية فنحن ندفع قال الشيخ: ومع لا يحق لكم فعل ذلك فقال والدي: أنت أستاذي وابن شيخي ولا أقبل أن تكون في نفسك غضاضة ونحن الآن سنفعل اثنين من الأمور أحدهما: تخصيص عدداً من ذوي الخط الحسن لكتابة هذه القواعد لنوزعها بدلاً من المطبوعة فهل هذا ممنوع؟ قال: لا قال والدي: والأمر الثاني نحن سنعطيك الآن النسخ المطبوعة الموجودة لدينا كلها هدية فإن شئت أن تبيعها لنا بعد أن نهديكها فنحن نشتريها منك.. تبسم الشيخ وقال: قبلتها منكم ووهبتها لكم - وهذه العبارة معهودة قولها عند إسقاط الصلاة عن الميت عند الإمام محمد - ولسنا نحن الذين نمنع أو نضيق في العلم لكن الحق يقضي ذلك فقال والدي: لو كانت إقامتك هنا أو تيسر الاتصال بك لفعلنا ونحن لنا حق في شيخنا وعلمه.

خرج الشيخ من المدرسة التي كان هو آخر شيوخها ممتناً إذ رأى المكان قد نما فيه العلم وعاد كما كان في سابق العهد موئلاً للعلم والعلماء وكان الشيخ مصطفى عندما دخل إلى المدرسة داخلاً إلى بيته فهو شيخها وقبله أبوه وجده وقد

الشيخ عبد الرحمن خياطة

التقى أساتذتها ولهم تلامذة أبي فهم كإخوته ومنهم تلامذته فهم كأبنائه وتجمعهم علاقة حب العلم أيضاً.

ولمناسبة الحديث عن القواعد الفقهية فكانت لدينا كاملة بخط والدي نقلاً عن الشيخ أحمد الزرقا وكان الشيخ مصطفى قد التقى والدي يوماً فسأله عن شرح القواعد فقال هي عندي كاملة فطلب الشيخ من والدي القاعدة بين وحمويه إلى المائة لأنها مفقودة عنده لاستكمال نسخته والإعادة وبعدها بسنوات كنت بصدد السفر إلى دمشق فاستأذنت والدي فطلب مني الذهاب إلى بيت الشيخ لاستعادتها إذا فرغ منها حيث أن سكنى الشيخ كان هناك كونه يقوم بالتدريس في الجامعة فذهبت وقابلت الشيخ ولم يكن فرغ منها فقمت بنقلها من أحد زملائي وهو الشيخ عبد الحفيظ قلعه جي لأنها عنده كاملة لذلك عندما تكلم الشيخ في موضوع القواعد لم يكن ناسياً أن شطر نسخة والدي هي عنده منذ سنوات طويلة ولا زالت وقد قام الشيخ مصطفى بطباعة القواعد في تسعينات القرن العشرين قبل وفاته بسنوات رحمه الله.

سعى كثيرًا في مصالح الناس وفي خدمة المدرستين ما استطاع وفي أساتذتهما وطلابهما جهده. وما من أحد يستطيع إحصاء أجره إلا الله وأنا لست معه كل الوقت ليلًا ونهارًا لأطلع على كل ما يحصل لكن ذكر بعضًا للأمور يدل على المنهج وهذا هو المهم.

يدخل البيت فيتناول الكتاب ثم يجلس وكان البيت لهو مدرستي الأخرى حيث قرأت العديد من الكتب وهو مرجعي الدائم فيما أدرس وأطالع ويومًا سألته مسألة طال النقاش بيننا فيها فقال: أنت تريد أن تفهمني بأنك عالم .. فاغتنمتها لتلطيف الجو قلت نعم وأعلم منك قال: أنت أعلم مني؟ - وكنت طالبًا في أول المرحلة الثانوية - فقلت نعم بالخط والساعات .. فتبسم ثم قلت: أنا لا أريد أن أقول بأني عالم بل أريد القول أنا لم أفهم بعض جزئيات المسألة لذلك طال الحديث فيها قليلًا.

لقد كان واحدًا في البيت وخارجه لا يتغير خلقه وتظل أعصابه مملوكة له في كل الأحوال وهذا ما أكسبه

رؤية تسمح له بالتفكير الصائب حتى في المواقف الحالكة. أضف أنه يمتلك ذاكرة خطيرة جداً تختزن له المعلومات بدقائقها مما يعينه على تصريف الأمور وفق الكليات والجزئيات، وقد رأيت من ذاكرته عجباً.

قال لي سنة ١٩٧٤: إذهب إلى حج بيت الله فقلت: لقد ذهبت سنة ١٩٦٧ قال: لكنك كنت ترغب الذهاب فما المانع؟ قلت يا أبي إذا ذهبت إلى الحج فإن ذهني سيبقى هنا قال: إن كنت تعني مرضي فلا يهمك هذا فأنا أصرف أموري بيسر وسهولة قلت: هذا ما يهمني ولن أذهب وتكرر الحديث في السنة التالية في أيام تقديم طلبات الحج ولم أقبل الذهاب كيف أذهب وأنا أرى مرضه يتصعد شيئاً فشيئاً على الطب والدواء ويكاد لا يأكل شيئاً فكنت إذا هيأت طعامه وطبخته بيدي وأطعمته بيدي أكل لأنه كان يقبل مني ما لا يقبله من غيري وبجانب فراشه الكتب يقرأ فيها ويطالع فيها حتى أن يداه بدأتا تخونانه وعيناه سلكتا نفس المسلك فكنت الوقت بجانبه ما استطعت فيأمرني بأن أقرأ له من الكتاب الفلاني بحث كذا.. إلى

فأفعل . وكنت والحال هذه أعلم أن اللحظة التي أخشاها قريبة وكانت في الساعة العاشرة والنصف من مساء يوم الأحد ٧ آذار ١٩٧٦ كانت هي اللحظة التي أورثتني ألماً يعيش في نفسي إلى آخر العمر لكن أمر الله الذي لن يجاوز نفساً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها رحم الله والدي الشيخ عبد الرحمن خياطة .

الشيخ الدكتور عمر خياطة

عالم طبيب فلكي حفظ القرآن الكريم ودرس العلم الشرعي في الكلية الشرعية ثم إنه درس الطب بكلية الطب في جامعة دمشق وكان يزاول الطب مهنة في مدى حياته .

دراسته للعلوم الشرعية كانت على يد فحول علماء زمانه ونبغ في العلوم الشرعية وكان خطيب جامع أبي ذر في حي الجبيلة وله درس عام بالفقه في المسجد الذي يصلي فيه العصر قرب عيادته .

عندما ألغت الأوقاف المدرسة الشعبانية ونهض سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين لإنشاء جمعية للتعليم الشرعي ومقر مدرستها هي الشعبانية كان فيمن استشارهم عمي الدكتور عمر فقال للشيخ اجعل لنا سهمًا فيها فكان أن وضعه في الأعضاء المؤسسين فقال: يا سيدي أنا رغبتي أن أكون عضوًا ساهمًا فما الفائدة أن أكون عضوًا مؤسسًا؟

لقد كان عضوًا مؤسسًا في الجمعية وكان عضوًا ساهمًا والعضو الساهم الذي يخصص مبلغًا سنويًا محددًا يلتزم به وفيه للجمعية وكان عضوًا فاعلًا فكان مدرسًا في المدرسة الشعبانية لعدد من المواد ومنها الحديث الشريف فكان فيها لسنوات عديدة قائمًا بالتدريس ثم إنه كطبيب كان يستقبل طلاب المدرسة الحالية إليه مجانًا وهو عندما فترت همته ترك التدريس في الشعبانية وبقيت علاقاته الأخرى قائمة كما هي في الشعبانية.

كان متابعًا للمطالعة والمراجعات والبحث حتى أنه عندما يأتي إلى عيادته لا يقوم بالكشف على أحد من مرضاه إلا بعد قراءة جزء يسير من ثلاثة أو أربعة كتب

موضوعة أمامه على الطاولة ثم إنه عندما ينتهي من مرضاه بعد الظهر فإنه يغلق الباب على نفسه للصلاة والعبادة وقراءة الكتب ولا يستقبل المرضى مساءً .

وأعرف من مطالعاته التي لم فيها مشاركة الجلسة الجامعة لم مع العالم الفقيه الشيخ محمد الملاح وكان شيخنا الملاح ما يفتأ يذكر لنا هذه الجلسة وكم يلاقي فيها من الأنس والبركة وما يحصل فيها من اللطائف .

كان مرجع أطباء حلب في الأحكام الشرعية فعندما تصادف أحدهم حالة مرضية معينة تقتضي السؤال عنها من الناحية الشرعية كمثل الصيام مثلاً فيتصل بالشيخ الدكتور عمر يسأله بعد شرح حال مريضه هل آمره بالإفطار أم لا؟ فيجيبه

لقد كان الشيخ الدكتور عالماً في الفلك وله جلسات كثيرة مع الشيخ صبحي طبنجات صاحب الباع الطويل في الفلك وأعني بالفلك ما يخص الأوقات الشرعية خاصة كأوقات الصلاة وحسابات سير القمر لأوائل الأشهر القمرية .. الخ وقد وضع مع الشيخ صبحي أوقات الصلاة بإعادة حسابها وتم طبعها وأعطيت للمؤذنين عن طريق الدائرة الوقفية وكلف

أحد لم يلتزم بها. وكان أول من عارضها المؤقت محمد سعيد ابن الشيخ ياسين بدعوى أن توقيت آبائه وأجداده أصح من كل ما سواه. ونحن نعلم أن آباءه وأجداده من العلماء الأعلام وهم أهل توقيت. لكننا نحن نعلم أيضاً وهو لا يعلم أن حساب مواقيت الصلاة يحتاج إلى مراجعة لازمة كل مائة وخمسين سنة. وقد ورث الوظيفة عن أبيه ولم يرث العلم عنه. وقد مرت معنا مشكلة التوقيت في الصحيفة التي أثارت جدلاً في حينها.

١١٢ في موضوعات الفلك كانت لنا جلسة تلقينا فيها عن عمي الشيخ الدكتور علم الفلك الشرعي أنا وابن عمي الشيخ صلاح. وكان درسنا أسبوعياً في يوم الإثنين بعد صلاة العصر فأفدنا منه بتوفيق الله علماً في هذا الموضوع لا يمكننا إفادته - حسب اطلاعنا - من غيره حيث كان الشيخ صبحي لمنجبات في ذمة الله تعالى.

قيام الليل

كنت وابن عمي الشيخ صلاح نسير بجانب العم الشيخ الدكتور

باتجاه بيته أمام باب القلعة بعد الخروج من صلاة العشاء وحديثنا حول حفل زفاف ابن الذي سيقام الليلة وبعد قليل قلت له قبل أن نفترق: متى تأمرنا أن نأتي لنصحبك إلى الحفل؟ قال: في الساعة الواحدة قال له الشيخ صلاح: يا عمي لو جعلتها في الثانية عشرة فقال الشيخ: سأنام قليلاً إلى الثانية عشرة وأتوضأ بعدها وأقرأ شيئاً من القرآن وأصلي بضع ركعات قيام ليل إلى الساعة الواحدة ثم أذهب إلى الحفل ساعة واحدة وأعود لأتمم ما فاتني من قيام الليل وقراءة القرآن فاغتنمها الشيخ صلاح كدعابة ليستشرف ما وراءها - وهو يحب ذلك أحياناً - فقال: يا عمي اترك قيام الليل هذه الليلة فقال عمي بنبرة حادة: ماذا؟ أنا أترك قيام الليل من أجل الحفل؟ يا بني أنا لم أترك قيام الليل منذ بلغت إلى والآن أتركه من أجل زفاف ولدي .. لا فأنا أترك الزفاف ولا أجعله سبباً في تركي لقيام الليل أبداً قلنا: كما تأمر نأتي في الساعة الواحدة إن شاء الله وقبلنا يده وانصرفنا.

ونحن ذاهبون إلى بيت الشيخ هلال أبو الجدايل القريب وهو حول القلعة حيث الحفل قلت للشيخ صلاح: كيف جرؤت

على قولك للشيخ ما قلت   أكنت آمراً بالمعروف أم ناهياً عن المنكر؟ قال: لا ولكن أردت رؤية رد فعله ولعلني أستشرف من وراء هذه الكلمة شيئاً   وقد سمعنا منه ما لم نسمعه أو يسمعه أحد من قبل وهو أنه لم يترك قيام الليل منذ أن بلغ حتى الآن .. واسترسلنا في الحديث عن تقوى بعض من عباد الله وصلاحهم وما درجوا عليه .

أتينا في الساعة الواحدة تماماً   ونقرنا الباب ففتح لنا بيده وهو يلبس جبته ثم أخذ عمامته باليد الأخرى ووضعها على رأسه وكنا ألقينا السلام فتقدمنا وقبلنا يديه واصطحبناه إلى الحفل   وبدخولنا وراءه رأينا توقف الإنشاد وقام الحضور احتفاءً بمقدمه فبادرتُ فرقة الإنشاد وقلت لرئيسها الشيخ حسن حفار(1) وقلت له: يا أبو ديبو الآن

١- الشيخ حسن حفار: منشد قدير متمكن وهو الآن شيخ المنشدين في حلب كان تعلقه بالإنشاد صغيراً يأتي إلى زاوية عمي في باب المقام حيث يقام فيها مجلس للمولد النبوي الشريف والذكر يوم الأربعاء بعد العشاء وكنت أرتاد الزاوية وتعرفت عليه ←

الساعة الواحدة وعشر دقائق بعد ساعة تماماً سنخرج من هنا
لقد استأذنا في الأمر من عمي فقال: خيراً وكان عمي الشيخ في
الطريق إلى الحفل قد قال لي: يا بني أنا لن أجلس أكثر من ساعة

وكلانا في بداية السن وقد تعلق بالإنشاد ومن ثم تلقى
الموشحات والأشغال من الشيخ عبد القادر رديف منشد الرشيدية
وكنت أنا أيضاً في نفس الوقت المتلقي عن الشيخ عبد القادر
كما تلقى الأشغال والموشحات عن الأستاذ عبد القادر حجار
شيخ صنعة الموشحات في مدينة حلب وكنت أنا أيضاً واحداً من
المتلقين عنه وتلقى الشيخ حسن عن آخرين أيضاً يمتاز الشيخ
حسن بصوت صاف وحضور رائع وهو صاحب شخصية محببة
كما يمتاز بأنه مجتهد جداً وهذا ما جعله يجمع من الأشغال الشيء
الكثير والنادر وهذا ما أدى في النتيجة إلى أنه كان من شيخ
المنشدين لحفظه التراث ومحافظته على الأصالة ورغم
المنزلة التي تبوأها والتي يسهل الانزلاق فيها إلا أن الشيخ
حسن صان دينه من الانزلاق وظل في الدائرة الصافية النقية
يمدح سيد البرية صلى الله عليه وسلم.

لأنني سأعود للأكل وضيفتي وهو يعني عبادته من صلاة وقراءة استرسل المنشدون وعيني دائماً على عمي الذي غمز بعينه أن الساعة شارفت على الانتهاء فأشرت للشيخ حسن فهز برأسه وبعد قليل غمز لي عمي ثانية فأشرت للشيخ فهز برأسه وعندما بقي من الساعة خمس دقائق أشار لي عمي بالقدوم إليه قال: يا بني بقي خمس دقائق سأنهض بعدها وليبقوا هنا إلى ما شاء الله قلت للشيخ أرجو إنهاء الحفل فبعد خمس دقائق سينهض عمي قال: حاضر وأنهى الحفل وتوجه إلى عمي يطلب الدعاء فدعا عمي بما ألهمه الله.

جاء الشيخ من بيت الله الحرام وفي الناس كثيرون جاؤوا للسلام عليه في داره بباب النصر وعندما يأتي إلى داره الأخرى أمام القلعة سيتوارد الأحباب في المنطقة وقد يكون موجوداً وقد لا يكون لذلك حدد لهم ليلة يأتون فيها وبطبيعة الحال سيكون المجلس مولداً سيما وأن الشيخ حسن حفار يسكن نفس البناء وهو من المحبين وكانت الليلة عامرة والبهجة غامرة والجو ليس السرور وهو طافح بالحبور وامتد الوقت قليلاً دون الشعور بامتداده مهما طال كان هذا بالنسبة للحاضرين

أما بالنسبة لعمي فالمسألة غير ذلك فقد تأخر عن موعد نومه الذي سيقوم بعده آخر الليل غالباً فنهض وكان الإرهاق بادياً عليه فعلاً بسبب تأخره حيث أن سنه لا يصاحبها الجلسة وقال: اعذروني فأنا تعب وابقوا في سروركم فالشباب معكم ويعني ابنه وأبناء إخوته .. وبقي الجميع امتثالاً لأمره لكن لفترة لم تكن طويلة وذلك لأن السرور كان بوجوده من ناحية وطالما أنه متعب فإنه سينام فليس من المعقول أن يستمر الإنشاد فإن ذلك سيمنعه من النوم حتماً فانفض المجلس بعد فترة قليلة ليست بطويلة .

معاملة الخدم

لا أدري لماذا ذهبت في صباح صيفي إلى بيت عمي الشيخ فوصلت وقت إفطارهم فدعاني للإفطار فقلت أفطرت فقال: تعال كل فجلست امتثالاً وأكلت لقيمات والحضور لهم أهل البيت زوجة عمي وأولاده وكانوا صغاراً وأنا أكبر سناً منهم وكنت يافعاً وامرأة مع الجلوس

تناول الإفطار، وأنا أعرفها فهي سيدة تعاون زوجة عمي في شؤون البيت لقاء بدل معلوم. قام عمي الشيخ عن الطعام فقالت المرأة: ماذا تريد؟ ونهضت بالقيام فأشار إليها بالجلوس فجلست. ثم إذ توجه إلى المطبخ فأتى بالملح ووضعه فقالوا: لو قلت لنا؟ لم يجب بأكثر من قوله: مشي الحال قام بعد قليل وتكرر المشهد حيث أشار بالجلوس.. توجه إلى المطبخ ثانية وعاد وقد حمل الماء حيث غفلوا عن وضعه فقالوا: لما لم تطلب؟ فكان الجواب واحداً.

وأنا بعد طالب في الثانوية الشرعية ولا زلت وحضر في ذهني حديث سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين: إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان له أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فإذا كلفتموهم فأعينوهم وأعلم أن المعهود عند الناس أن الخدم يأكلون في المطبخ ولا يجلسون على الطعام مع السادة وعندما يكون السادة حول المائدة فإن الخدم يقفون للأداء ما يلزم من إجابة طلب أو تأمين حاجة ثم انهم بعد انتهاء طعام السادة يأكلون

في المطبخ وبالشيخ لا يقبل أن تأكل الخادمة في المطبخ بل تجلس معهم لتناول الطعام ثم هو قد أرشد الجميع سابقاً لمن من احتاج شيئاً فعليه النهوض بنفسه عن الطعام لحاجته وكان يفعل هو أيضاً ذلك بنفسه وقد رأيته.

أي احترام لهدي سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأي احترام في هدي سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لكرامة الإنسان وأي محبة لسيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهديه جعلت الشيخ يفعل ذلك؟.

مرت الأيام على طولها سراعاً وعندما نكون عنده على طعام تراه يأمر أبناءه أو بناته إن وجدت إحداهن أو يقوم هو بجلب ما يريد الآن يوجه الأوامر وهم ينهضون عن الطعام لتنفيذ الأوامر ولكنه لم يفعل ذلك في تلك الجلسة الصباحية للإفطار لأن الخادمة معنا على الطعام وستتعين عليها القيام لأنها المعنية بالخدمة أما الآن فالخادمة مع النساء وأولاده المعنيون بالخدمة وفرق كبير بين ذاك الموقف حيث فيه خادم وسيد وبين هذا الموقف حيث فيه الأب والابن والحديث الشريف يأمر السيد

بأن يعتبر الخادم أخاله بينما الولد مأمور بطاعة أبيه تقبداً وهو بذلك يكون متديناً بينما طاعة الخادم لسيده وإن كان متعبداً بها لأنه يقوم بعمله والفارق بين الطاعتين ظاهر إذ الولد متعبد بالطاعة والخادم متعبد بأداء العمل المطلوب منه.

هذه الملاحظات على صغرها أراها كبيرة جداً فأي شيء أكبر كرامة من الإنسان والله عز وجل يقول (ولقد كرمنا بني آدم) وأتصور في ذهني شعور المرأة إذ تعامل بهذا الإحترام من أن عملها ليس مذلة لأن العمل شرف.

أرى في الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم لفظ: إخوانكم خولكم أن قدم الأخوة على الخدمة ليغتنب الإنسان إلى أن الناس سواسية كأسنان المشط وليلاحظ المرء الكرامة الإنسانية التي عمم بها ربنا عز وجل الناس جميعاً كما نرى أن لفظ: خولكم كلي يشمل كل من يقوم بالخدمة كبيراً كان أو صغيراً حراً أو عبداً رجلاً أو امرأة ورأيت عمي مطبقاً لهذه الفقرة كأحسن ما يكون التطبيق والفقرات الأخرى كمثل الفقرة الأولى: فليطعمه مما يأكل وقد كانت معنا على الطعام ولو أنها أكلت في المطبخ فتأكل نفس الطعام الذي نأكل لكن الإقصاء يشعرها

بأنها دونه أما جانب سها معنا فيحقق معنى الأخوة في أرقى معانيها لقد كان هذا الديدن مع كل من يتعامل معه حيث يرغب أن يكون في مرتبة الإحسان قولاً وعملاً وأرجو من الله أن يكتبه في الدرجات العلى وأن يكتبنا كذلك وأن يحشرنا عز وجل مع المؤمنين والصالحين تحت لواء سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

كان موقفاً عنيفاً لأجل كرامة العائلة حيث عنفوان الشباب وسورته لها حكم لا ينكر وتعددت الدوائر واتسعت إلى درجة تنتقل إلى الأعلى منها لكن الجميع يحفظون الاحترام بأسمى معانيه وقال والدي بهدوئه المعهود لابن خالتي الذي جاء زائراً يا بني هذه المسألة تخصني وأخي الشيخ عمر فإياكم والتدخل وقل ذلك لهم جميعاً .. واتصل بعمي الشيخ وفصل له الموضوع فذهب من فوره إلى خالي وكان مقره قريباً من بيت عمي فطلب من خالي وأخذ ما طلب وأمر ونهى حسبما ذكر لي خالي فقلت وقبلت هكذا بكل سهولة قال : لقد جاء عمك الشيخ عمر ولو أنه طلب رقبتي لأعطيته إياها .. ذهبت إلى عمي بشأن الموضوع والحقيقة كنت متشنجاً قليلاً لكن قبلت يده وتكلمت بما عندي

فسمعني إلى الآخر وقال بهدوئه المعهود وبصوته الضعيف يابني أنت تريد أن تمشي كما تريد أنت أم كما نريد نحن وبدون تردد قلت: كما تريد ونريد أنتم قال: نحن لكننا نريد وقد أمرناهم أن لا يفعلوا شيئاً وأنت لا تتصرف أي تصرف ولا حتى كلمة ولا إشارة. قلت: أمرك قال: الله يرضى عليك.

لا أخفي ما ذقت ضميرين مترا بعد خروجي من عنده إلا ووقفت وكأنني محروم من إغفارة ثلاثمائة سنين وازددت تسعًا وعدت على الأثر ودخلت على عمي وقبلت يده قائلًا: يا سيدي حضرتك تعرف أنني في حياتي في مثل هذا الموقف وأنا أرجوا أن تصفح عني قال: يا بني أنت لم تفعل شيئاً يقتضي ونحن نريد مصلحتكم جميعاً وفقكم الله.

هذه القصة ترشد إلى أن الله لعباده الأتقياء الصالحين المحبة إن شئت قل أو لهي المهابة .. لكن من ناحية أخرى لهي التربية التي تحصن فهل كانت لهي المهابة أم الاحترام والمحبة أطفأت نار الفتنة بكاملة من والدي وكلمة من عمي وجمعتها في جمع من الناس وإنها لكلمة واحدة قالها لي عمي الشيخ: كما تريد أنت أم كما نريد نحن؟ أطاعت بالعنفوان وجعلتني أمامه خاضعاً بكل محبة

والتجلة والاحترام أطيع لكل امتثاله .

لم تنته القصة حتى الآن وقد مضى عليها نحو أربعين سنة للآن إلى يومنا هذا - والله يشهد - كلما تذكرتها أرى في نفسي وجداً وأشعر بحزن في نفسي دفين كيف جرؤت على ما أراه قلة أدب مني أو ما يخطر لي أنه أمر فيه إزعاج له ربما ولو مرة في العمر واحدة فهذا أمر لا يغتفر .. رغم أنه قال لي أنت لم تفعل شيئاً لكني أقول : هؤلاء ورثة الأنبياء لهم مقام الإمامة للأمة ألا يكونون لأهلهم كذلك ؟

كان الشيخ كعلمائنا الآخرين متخلقاً بالأخلاق النبوية العالية وكنت أراه مع الناس في سكينته ولطفه ولينه كما هو في بيته كما هو مع تلامذته كما هو مع زبائنه فالعلماء هم الهداة بحالهم ومقالهم نفعنا الله بهم جميعاً .

كان الشيخ الدكتور في عيادته بين كتبه فرآني وسألني إن كان يريد الذهاب إلى البيت فقال اذهب أنت سأنزل بعد قليل إلى صلاة العصر .. وصلى العصر وشرع في إلقاء درسه وكان عن المحبة وفي حديثه تكلم عن سيدنا سلمان وفوجئ الحضور بسكوته وقوله : الله .. الله .. الله ..

مرات ثلاث وأفلت إحدى الشهوس منه فلكنا قبل الوصول إلى المشفى وكان ذلك في يوم الخميس ٢٧ تشرين الأول سنة ١٩٨٨ وطار الخبر في الآفاق فأقيمت أمسيات التعزية في مكة المكرمة وفي الخليج العربي رحم الله الشيخ الدكتور عمر خياطة .

شيخ القراء محمد نجيب خياطة

عالم شيخ القراء في حلب حفظ القرآن الكريم صغيراً ودرس العلوم الشرعية في الكلية الشرعية على فطاحل علماء العصر كما تلقى القراءات على الشيخ معطي وذهب إلى (عربين) قاصداً الشيخ عبد القادر قويدر لتلقي القراءات عنه وعربين إحدى ضواحي مدينة دمشق .

ذهب عمي الشيخ عمر معه إلى محطة انطلاق السيارات مساعداً إياه في حمل لوازمه وقبل انطلاق السيارة قال له أخوه عمر : أريد أن أوصيك وصية لا تنسى أن تأكل فتبسم الشيخ نجيب وهو يظنه مازحاً وقال : أهذه وصية ؟ قال : نعم

هذه وصيتي لك .

مكث الشيخ نجيب في مسجد الشيخ قويدر ، وهو مكب على الدرس والحفظ شهر ذات يوم بدوار فجلس لير تاح قليلاً فتذكر وصية أخيه الشيخ الدكتور محمد ثم إنه تذكر أنه لم يذق طعاماً منذ أيام .

يعتبر الشيخ محمد نجيب مجدد علم القراءات في مدينة حلب بعد أن شارفت على الإندثار وكان أول من جمع القراءات بعد نحو من مائتي سنة في هذه المدينة لكانه شيخ قرائها لأنه جمع القراءات من جهة ولأنه خرج عدداً كبيراً من القراء حيث كان مديراً لمدرسة الحفاظ (١)

---

١ ـ مدرسة الحفاظ : في شارع خان الحرير فيها دهليز على يمين الداخل حجرتان لدكانين أو ثلاثة وعلى يسار الداخل قبلية للإقامة فيها صلاة لوجود جامع الخسرويين بجانب المدرسة لكن يتم إشغالها أحياناً لأهل القراءات في الشتاء أما في الصيف فغالباً يجلسون في الصحن السماوية للمدرسة والتي ينتهي إليها الدهليز « الممر » في المدرسة ثلاث غرف إحداها

وفي أيامنا نجد أن كل القراء في مدينة حلب تنتهي سلسلتهم إليه

للمدير وكان وقتئذ الشيخ محمد نجيب شيخ القراء وغرفتان صغيرتان لبعض اللوازم وغرفة كبيرة للحفاظ وفي صدر الباحة مدخل إلى المفاصل وبعد وفاة عمي الشيخ نجيب سنة ١٩٦٨ تم هدم المدرسة وارتفع مكانها البديل منها بناء ساعته الطبقات عديدة كمحلات ومكاتب ونقلت كمدرسة حفاظ إلى قاعة الدرس في جامع العثمانية حيث صار مديرها الشيخ عبد الوهاب مصري كانت لهذه المدرسة - قبل انتقالها - تضم في الحفاظ بين عشرين إلى ثلاثين طالباً دون قيد للسن فكنت فيها وأنا ابن أحد عشر وفيها من جاوز الستين والمدرسة لا تمنع وجود المستمعين أي الذين يحضرون دواماً دون تسجيل في عدادها ولا راتب وكان للطلاب راتب من الأوقاف وأنا لم أكن من أصحاب الرواتب لأنني ملتزم بالدوام لكني لم أكن بلغت في الحفظ ثلاثة أجزاء وهذان هما الشرطان ليستحق الطالب الراتب وهذا بالنسبة للحفاظ أما القراء فلا أعرف قانون استحقاقهم لكنهم يقبضون ، ونسيت المقدار .

فمنهم تلامذته وتلامذة تلامذته .. وبالجملة فإن جيل المقرئين والمقرئات في هذه المدينة أصبح مئات بعد أن كان آحاداً ثم وصل إلى العشرات ببالغ الصعوبة وليس في علمي وجود قارئات وأعرف أن أول مقرئة في حلب هي ابنة عمي الشيخ الدكتور عمر واسمها سروة وبعد سنوات عرفت أن هناك عدداً من المقرئات لا بأس به منهن سمية بنت أخت سروة تلقت علمها عن المقرئة أمينة بيطار وكتبت لها إجازتها على كل أنا لا أبحث في القراء والقراءات وقد عرضت المقام لهما وكل ما يتعلق بالقرآن الكريم فيه الخير والبركة إن شاء الله .

كان عمي الشيخ محمد نجيب إضافة إلى كونه عَلَم القراءات كان عَلَمَ الفرائض والمرجع الأول فيها وقد عكف على تدريس هذه المادة فانتهت إليه في الثانوية الشرعية وفي المدرسة الشعبانية وقد وضع شرحاً لمتن الرحبية وهو متن منظوم للإمام الرحبي أسماه الروضة البهية شرح متن الرحبية كما وضع شرحاً لمتن السراجية وهو متن منثور للإمام السجاوندي سماه الرياض الزاهية شرح متن السراجية

شيخ القراء الشيخ محمد نجيب خياطة

وكلاهما مقرر للتدريس في الثانوية الشرعية وفي المدرسة الشعبانية ومعلوم أن متن الرحبية فيه نوع اختصار عن السراجية وقد توسع الشيخ في شرح السراجية فكانت فيه الفوائد الفقهية والحسابية وأساليب حل المسائل على طريقة الفقهاء والفرضيين .. إلى غير ذلك مما يدل على جهوده وتحصيله.

كان الشيخ محمد كاتبي(1) يتابع دراساته العليا في كلية

---

1 - الشيخ محمد كاتبي: أحد طلابي في المدرسة الشعبانية وكان مجداً وقد تعلم الفرائض وتلقاها عني وبرع فيها وعندما كان يتم دراسته في كلية الأوزاعي ببيروت كان متفوقاً جداً وخاصة في الفرائض حيث كان يأخذ العلامة التامة في الوقت الذي تكون أعلى علامة يحصلها الطلاب هي سبعون من مائة وقد سئل عمن أخذت الفرائض في حلب؟ فقال عن الأستاذ محمد أديب خياطة فسئل: وهل له قرابة بالشيخ نجيب خياطة؟ فقال: هو ابن أخيه فقيل: هذا هو السر وقد حصل مكافأة مرتين لتفوقه بالفرائض كما قال لي وقالوا له: إن كتاب الرياض النزهية للشيخ نجيب خياطة هو المرجع الأول عندنا

في الفرائض .

دخلت إلى مدرسة الحفاظ ضحى يوم من أيام العطلة السنوية لأسلم على عمي وكنت مارًا قريبًا منها وكنت في البدايات الأولى من دراستي في الثانوية الشرعية فرأيته وصل قرطين من الورق قياس ٧٠×١٠٠ إلى بعضهما وطويل مسألة فرضية وقد وصل في تسويد الرقعة المفرودة على الطاولة إلى أكثر من ثلثيها وقد تم إنجاز هذه المسألة أكثر من ثلاثة أشهر وهي مناسخة ترجع إلى الجد التاسع

في الفرائض لكن هناك خطأ في مسألة التشبيب زعم أن تقول للأستاذ ليتم التصحيح وعندما قال لي الشيخ محمد ذلك قلت : نعم هو خطأ طباعي وأرجو أن ينظروا آخر الكتاب ففيه جدول للخطأ والصواب فإذا صححوه فيزول اللبس ويظهر الحق إن شاء الله وقد تم فعل ذلك كما قال لي .. وقد توفي الشيخ محمد كابي في بلاده في سنة ٢٠٠٩ ولما ينهي دراسته العليا بعد .. والشيخ محمد كان أحد اثنين نبغا في الفرائض من دراستهم لهذا العلم والثاني الشيخ يوسف هنداوي رحمهما الله

وكان يعمل فيها في وقت فراغه عندما يأتي إلى مدرسة الحفاظ وأسعفه وقت العطلة الصيفية وإلا استدعاها إلى أكثر من هذه المدة ونلاحظ هنا أن العمليات الحسابية كلها تجري يدوياً على الورق إذ أن الآلات الحاسبة لم تكن ظهرت بعد ولقد أتته هذه المسألة من المحكمة الشرعية وفقها ليعطي الجواب الشافي فيها.

كانت للشيخ أمور رتيبة عامة وخاصة فالعامة معروفة وهي التزامه بإمامة المدرسة الخسروية للأوقات الخمس ودروسه في المدرسة في أيام الدراسة وكذا مدرسة الحفاظ حيث إدارتها بما فيها من حفاظ وقراء أما الأمور الرتيبة الخاصة فمنها إقامة الختم النقشبندي يومياً بعد صلاة العصر حيث أخذ الطريقة من الشيخ أبي النصر خلف(1) ولمن

---

1 - الشيخ أبو النصر خلف: عالم فاضل تقي ورع من أعلام الطريقة النقشبندية حمصي أقام في مدينة حلب وله زراعة في منطقة منبج حيث له أيضاً كثرة من المريدين والتلاميذ وقد أخذ الطريقة بالإذن منه في مدينة حلب جمع كثير ومنهم الكثير ⟸

جلسته الخاصة في غرفته في الخسروية بعد صلاة الصبح إلى ما بعد طلوع الشمس يومياً يقرأ فيها القرآن وروايات وما شاء الله له من كتب العلم ولد درس فقه بعد صلاة العشاء لعدد من أيام الأسبوع يقرأ لنا فيه حاشية ابن عابدين في الفقه الحنفي وله في كل سنة بضعة أشهر يقيم فيها مجلساً للنبي صلى الله عليه وسلم ومولداً نبوياً ويكون عادة يوم الأحد بعد العشاء في بيته ودرج على ذلك إلى آخر حياته وبالجمل فما من شيء أحب من وقت فراغ إلا والقرآن الكريم وكتب العلم تنقذه منه.

في سفره إلى دمشق لتصحيح أوراق الشهادات أو لشأن يخصه كان يحرص على زيارة أماكن وأشخاص(1) والشيخ أحمد الحارون

---

١ - ارجع إلى ص ٤٥

من أحباب تذلي العلماء ومنهم عمي الشيخ نجيب وعمي الشيخ عمر وأنا لم أدرك الشيخ ولكن أدركت ابنه وكان ابن ابنه الشيخ إسماعيل زميلي في الدراسة وأعرفهم صلحاء أصفياء من أكارم الناس والله أعلم بنا وبهم.

رضي الله عنه في قائمة الزيارات وكلها إن صح الوقت بذلك دخل يوماً لزيارة الشيخ وفي أثناء الزيارة نهض الشيخ أحمد ودخل إلى غرفة حاول الشيخ نجيب أن يستذكر أين وصل في تلاوته للقرآن ليتابع القراءة ريثما يعود الشيخ ولكن ذاكرته لم تسعفه وحاول ويحاول .. دون جدوى ودخل الشيخ أحمد وقال: يا شيخ نجيب اقرأ لنا قوله تعالى .. وذكر المكان الذي وصل إليه عمي ولم يستطع أن يتذكر فتهلل وجهه باسماً وقرأ ما تيسر.

قال لي محمد أبو الجود: كنت ووالدي الشيخ نجيب في دمشق وقد حجزنا مقعدين للعودة إلى حلب وذهب والدي لزيارة سيدنا يحيى في الأموي فشاهده هناك الشيخ محمد العقاد(1)

1- الشيخ محمد العقاد: من العلماء الأعلام في دمشق وأصبح مقرئاً لأنه إماماً لجامع سيدي الشيخ محيي الدين وقد التقيته مرة واحدة حيث صليت وراءه وأنا فتى ثم انتظرت خروجه ووقفت ناظراً إلى وجه صالح له كرامات من رب مشهودة وكانت له مجالس مشهودة منها مجلس القرآن لهذا في المسجد الأموي الكبير

وهو في مجلس قرآنه مع تلامذته فأبدى والدي اعتذاره لأنه على سفر لكن الشيخ العقاد رغب في جلوسه قائلاً: ستسافر إن شاء الله وتأخرنا بي وسألني السائق أين والدك؟ قلت: لعله يأتي الآن ثم سألني بعد قليل مكرراً وهو لا يستطيع الانتظار أكثر فقلت: إن أتاك راكبان فخذهما وسافر وأتاه راكبان وأراد السير فلم تعمل السيارة وتفحص ما يتصوره سبباً لعدم عمل السيارة دون جدوى وكان الشيخ محمد العقاد طلب من والدي القراءة حيث أن درسه شارف على الانتهاء وحضر والدي فانتهت مشكلة السيارة وبدأت تعمل فقال السائق للشيخ: لو قلت أنك ستتأخر لانتظرت دون أن أعاني ما عانيته فيما ظننته خللاً في السيارة فقال الشيخ: يا بني لست أنا وإنما هو الشيخ محمد العقاد.

ممتع كل حديث إذا كان جاداً أما إذا كان الحديث لهواً فإن الشيخ إما أن ينبه إلى الأفضل وهو الحديث الذي ينطوي على النفع أو أن يمسك هو بزمام الحديث وفي يوم كان مع البعض من الأساتذة في السفر إلى دمشق

لتصحيح الأوراق . والطريق القديم طويل بسبب التواءاته التي تعيق السير بسرعة ناهيك عن ضيقه فيكون من الواضح أن الوصول إلى دمشق يستلزم بضع ساعات وجلس الشيخ في السيارة وانطلقا يتلو القرآن لا يلوي على شيء ، وعندما تقاصر الطريق بينهم وبين دمشق فاتحه أحد الأساتذة بالحديث مستمراً إلى أن ظهرت مشارف دمشق وفي سياق الحديث ما معناه رأيتك مع نفسك لا تتكلم مع أحد فرغبت المؤانسة فقال له الشيخ بكل لطف لقد كنت مع ربي أتلو كتابه وقدرت أن أختمه في مسافة بين حلب ودمشق وسأتمه بعد أن نصل إن شاء الله قبل أي عمل آخر .

حفظ القرآن

كانت الكتب السماوية غير ميسرة للحفظ فلا يحفظها كاملة إلا نبي أو رسول والناس يحفظون منها طرفاً ولا يستطيعون استظهارها . أما القرآن الكريم فعلى النقيض في حاله عن

الكتب السابقة قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ فكان حفظه من الله تعالى بإرادته ثم هيأ له طريق الحفظ عند الناس بالصدور والسطور والحمد لله ولهناك كثرة كاثرة من حفظة القرآن الكريم وفيهم المتقن أيما إتقان وفيهم القراء وفيهم من لا يفتر لسانه عن التلاوة وهو ما ذكرته القصة السالفة.

وقد سمعت - والعهدة على الراوي - أن زوجين حافظين لكتاب الله تعالى يجلسان بعد عشاء كل يوم يقرأ أحدهما القرآن كاملاً والآخر يستمع له وفي الليلة التالية يقرأ مستمع الليلة الماضية والآخر يستمع القرآن منه كاملاً - هكذا الرواية - وفي هذه الأمة من دأب التلاوة وعهدي وأنا صغير السن أينما دخلت من بيوت الجيرة أرى من يقرأ القرآن في المصحف أمامه حتى أن عمة والدي التي جاوزت المائة بنحو من عشر سنين كانت تأتي لزيارتنا أياماً وبمجرد دخولها تأخذ القرآن الكريم وتبدأ بالقراءة مباشرة وهكذا أيضا كانت في بيوت أعمامي أو أولادها فهذا ديدنها على أن صحبنا وضجيجنا ونحن صغاراً نلعب لم يكن ليعكر صفوها مع كتاب

الله لأن سمعها ضعيف جداً لكنها تنظر إلينا وهي تقرأ ربما صحيفة أو الشيء دون أن تنظر في المصحف الشريف لقد أدركت بعد أن كبرت قليلاً وهي على هذه الحال أنها لكثرة قراءتها القرآن في حياتها حفظته أو كادت .

كانت ملاحظتي في الحفظ أن الحافظ أو المقرئ قد يكون متقناً لحفظه جداً وهذا أمر طبيعي أما العلماء فالضابط منهم لحفظه أقل لانشغاله بالعلم لكن هذا لم يمنع من وجود نسبة جيدة منهم كان حفظهم متقناً وإذا أخص بالذكر والدي الشيخ عبد الرحمن وعمي الشيخ الدكتور عمر خياطة وعمي شيخ القراء الشيخ نجيب فما ذلك إلا لأني أحد أفراد العائلة واطلاعي على الأمر فيه يقين وأعلم أيضاً بحكم العلاقة والصلة أن سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين والشيخ محمد زين العابدين جذبة عندهما الضبط والإتقان في حفظ القرآن الكريم .

إن ضبط القرآن الكريم وحفظه في الصدور ضرورة كحفظه في السطور وأذكر يوماً أن أحدهم طلب مني كتابة الأجزاء الأربعة الأخيرة من القرآن الكريم لطباعتها من أجل طلاب المدارس والكتاتيب فكتبتها قائلاً إياها من أجزاء مطبوعة في

من الدولة العثمانية وذلك من أجل توزيع الكلمات على مقدار الصفحات المناسب عددها لأجل الطباعة وفي آخر كل جزء منها اسم أربع وعشرين لهم لجنة التصحيح وقد وقع كل واحد منهم تحت إسمه وعهدت إلى والدي بتصحيحها لأن الكاتب قد يخطئ في سهوة منه وهذا أمر طبيعي وكان أن رأيت في إحدى الصفحات وقد أشار وكتب عند الإشارة يوجد نقص آية قلت في نفسي هل يعقل حتى وإن كانت الآية كلمتين فقط فإن ذلك يحدث خللاً في توزيع الكلمات نظرت في الجزء فلم أجد أي خلل في النقل وجاء والدي فقلت له: كتبت لي نقص آية هنا وهذا هو الجزء الذي نقلت منه ولا خلاف بيني فيما نقلت وبينه فقال: الجزء فيه نقص آية فقلبت إلى صحيفة الأسماء وقلت يا سيدي إنهم أربعة وعشرون مصححاً فأسهم قليلاً وهو يدندن التلاوة ثم قال: يا بني يوجد نقص آية وتقل لي أربعة وعشرون مصححاً ولو أن هؤلاء الأربعين قالوا لي لا يوجد نقص فإن حفظي للقرآن أثبت وأصح منهم جميعاً قلت: فما الحل؟ قال: هات القرآن فأتيت بالقرآن الكريم فرأيت أنه محفوظ صحيحاً وكان

أسهو ها هنا لأن من أربع وعشرين مصحفاً ولهذا شأن الإنسان وليس عجباً وربما تقول: أنت لم تهتد لنقص الآية وأنت حافظ أقول: عندما يقرأ الإنسان القرآن مسترسلاً فإن ملاحظته النقص يحصل بسهولة لكنني أكتب ناقلاً فيكون حضوري عند كلمتين أو ثلاث أنظرهما وأنا أحاكم المسافات المناسبة وأحتسب الأبعاد لكتابة الكلمة وحروفها فالفارق كبير بين حال الكتابة وحال القراءة ولكن الله عز وجل أنار في البصيرة أن الإنسان وإن حصل منه سهو وهذا مما يقع فيه إلا أن للقرآن الكريم في المقابل حفظة في الصدور والسطور حفظوا كتاب الله في الأرض واحداً في كل الأصقاع لا تختلف نسخة عن نسخة ولو بحركة .

رأيت لله عز وجل الحكمة البالغة في حفظه لكتابه فبه حفظ دينه في الأرض ولا جدال في أن كتاب الله عز وجل لهو ديننا ولك الحمد لله أن حفظ لنا كتابه والحمد لله أولاً أن خلقنا من أبوين مسلمين وهدانا للإيمان والإسلام وجعلنا من أمة خير الأنام صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً .

وعوداً إلى شيخ القراء الشيخ محمد نجيب خيالة والسلامة لهاتيك القلوب الطاهرة فقد أتى زميلنا محمد غياث إلى قاعة الدرس مستأذناً الشيخ نجيب بالدخول وكان قد تأخر مقداراً من الوقت يقارب نصف الدرس فطلب الشيخ منه أن يأتي بورقة تبرر تأخره من المسؤول عن ذلك فقال محمد غياث: يا أستاذ أنا كنت في الصف ومنذ قليل طلبت الإذن منك بالخروج فقال الشيخ: أنا لا أذكر ذلك قال غياث: بل أذنت لي يا أستاذ فقال الشيخ: صدقاً قال غياث: صدقاً قال الشيخ: ادخل فأنا لا أذكر أني أذنت لك لكنك تقول صدقاً.

بعد انتهاء الحصة قال لي غياث: ما لهذا القلب الصافي النقي لقد قبل كلامي بمجرد قلت صدقاً قلت: هذا الكلام لكنك كذبت على أستاذك قال: نعم أستغفر الله وأتوب إليه ولن أعود لمثلها إن شاء الله.

للشيخ صوت رخيم جداً وعندما يقرأ فإن قراءته تكون من مقام النهوند الأصلي أي الذي قراره على مقام الدو وهو طبعاً لا يعرف النغمات ولا المقامات

وقراءته تأتي لقلبنا على الحجة وكم وكم صليت وراءه الجهريات والتراويح على طولها بالنسبة للجوامع الأخرى فهو يقرأ كل يوم جزءًا واحدًا في العشاء والوتر والتراويح طبعًا وكنت أرى كثرة المصلين عنده رغم أن الصلاة عند الآخرين أقصر والصدق أقول عن نفسي وفي نفسي: لو أن الله عز وجل فرضها خمسين جهرية ونصليها وراء الشيخ .. لكن الله عز وجل أعلم وأحكم وأرحم ونستغفر الله من زلات اللسان والذي يحصل أنني والعديد من المصلين ما نشعر إلا وقد انتهت الصلاة .. ليست نغمة النهوند الأصلي هي التي تطرب بل الطرب - إن صح التعبير - قد بنيًا تشوب أرواح المصلين ونفوسهم بسماع كلام الله بأداء صوفي وهم بين يدي الله خاشعين في صلاتهم وحضورهم مع الله حاصل بين الأحياء وهم في واحد من بيوت الله في لحظات السمو الروحي الذي لا أبدع ولا أعظم .

جمع من الأحبة لهم دعوة على طعام بمناسبة قدوم الشيخ من الديار المقدسة حسب العوائد السائدة وكنت وأبناء عمي نقوم بواجب الخدمة للضيوف حسب الأصول ومن الطبيعي

شيخ القراء الشيخ محمد نجيب خياطة

أن يكون العلماء هم المقدمون أولاً وكنت في جملة المكلفين بالوقوف عند المائدة لتنفيذ ما يلزم وجلس السادة العلماء حول الطاولة تباعاً وبقي ثلاث محلات فارغة كرسي في الصدر وكرسيان على الجانبين ودخل سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين ومعه عمي الشيخ نجيب فجلس سيدي الشيخ عبد الله على الجانب فقال له عمي مشيراً إلى صدر المجلس تفضل إلى هنا فقال سيدي الشيخ: هذا مكانك فقال عمي: تفضل إلى هنا فقال سيدي الشيخ: أنت أستاذنا فقال له عمي: لا يكرم المرء في محله فجلس سيدي الشيخ رضي الله عنهم جميعاً وأنا الواقف بجانبهما أسمع وأرى سهوت سهوة خفيفة جداً سار بها فكري بسرعة الضوء فعمي الشيخ يريد إكرام سيدي الشيخ لأنه ضيف ولأنه ابن شيخه وقد قدمت أن والدي وأعمامي كانوا من تلامذة سيدي الشيخ نجيب سراج الدين والد سيدي الشيخ عبد الله الذي لم يقبل الصدارة إلا لأستاذه لأنه كان تلميذاً في الثانوية وعمي من أساتذته وكانت النتيجة أن سيدي الشيخ عبد الله وبكل ما يتحلى به من آداب امتثل أمر أستاذه حيث لا يكرم المرء في محله وترى في كل موقف

عظة وملاحظة دقيقة ووجدتهم يلاحظونه لسلف من أهل الفضل بإكرام خلفهم أو بذكرهم بالخير والدعاء لهم بالرحمة أليس هذا لهو الخوارق في احترام في هذا الموقف أنه يعطي الصدارة لابن شيخه وهو تلميذه وأنه لا يقبلها التلميذ لأنها تجب لشيخه ثم يمضي التلميذ امتثالاً وتنفيذاً لأمر شيخه ؟

كم اجتمعنا على طعام كعائلة وكانت جلسة الطعام لا تخلو من فائدة فمثلاً كان يقول لأحد الجالسين على الطعام ما إعراب الكلمة الفلانية في قوله تعالى كذا وكذا ما معنى الكلمة الفلانية في قول الشاعر كذا .. ننهض عن الطعام بفوائد علمية حسب الأسئلة المطروحة ذات الإجابات القصيرة فالعلم هو الشغل الشاغل في كل الأوقات .

كان مرض الشيخ نذيراً غير مرغوب وكان يسمي عمي الشيخ الدكتور عمر حتشاً فيما يجب فعله وكان يجمع العدد من الأطباء ذوي الاختصاص وبقي الحال أخيراً غيبوبة كلما صحا منها يقول : الصلاة كنا جميعاً بجانبه نتردد في اليوم مرات علّمنا نأنس حتماً في حاله الذي لم ينفع فيه نطس ولا طب واستمر الحال هذا نحواً من أسبوع حيث أزف الرحيل

شيخ القراء الشيخ محمد نجيب خياطة

وجاء اللقاء وكان في صباح السبت في التاسع من شهر أيلول لسنة ١٩٦٧ وقد شيعه أعلام العلماء إلى المثوى الأخير، وقد ألقيت كلمات التأبين وفي مقدمتها كلمة العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة كما ألقيت مرثاة شاعر الدعوة والاسلام الأستاذ ضياء الدين الصابوني وهي:

على شيخنا فلتبك إن كنت باكيا
فلن تخلف الأيام مثل نجيب

على معدن التقوى وموئل الحجا
بدمع على شيخ الشيوخ صبيب

فيا عيني ما أنصفت في حق شيخنا
إذا لم تجودي حرقة وتذوبي

• • •

نبأ سرى بفواجع الأهوال
جلل يودع أعظم الأبطال

نبأ سرى كالبرق في أجوائها
فالدمع بعدك دائم التهطال

ما كنت أحسب قبل نعيك أنه
مثل الجبال تزول أي زوال

يا خادم القرآن قمت بحقه
فنصرت دين الله ذي الإجلال

أبكيك شيخ المقرئين وإنما
أبكي التقى وجلائل الأعمال

أبكيك لكن لست أبكي واحدًا … نجيب من الخلد والإفضال
يكفيك فخرًا أن أرى طلابكم … نالوا من العلياء أي منال

• • •

كم قد شرحت الصدر في ترتيله … يا قارئ الإسراء والأنفال
كم قد أعدت على المسامع نغمة … كالجدول المترقرق السلسال
عرفوا بك الإخلاص وهو فضيلة … والصدق في الأقوال والأفعال
إني أرى الشهباء جللها الأسى … وبكت عليك بأدمع الأطفال
لو تنطق الشهباء كانت ألسنًا … تثني على هذا الفقيد الغالي
كانت حياتك بهجة ونضارة … وأرى مماتك عبرة الأجيال
لو كان يخلد بالفضائل ماجد … لكن خلدت بأصدق الأقوال
ولئن تفاخرت الرجال فلن ترى … فخرًا يضاهي صالح الأعمال
القلب فيك مقطع الأوصال … والحرص بعدك غاية الجهال
وإذا المنية أنشبت لم ينجها … هلع الجبال وحيلة المحتال
ما للخطوب؟ أكل يوم حادث … ما للخطوب الفاجعات وما لي
ها هم شبابك يندبونك حرقة … والحزن في الأغوار والأوصال
يبكون شيخهم وهم لك البكا … ولطالما غمروا بفيض نوال
حملوك فوق أكفهم ولو أنهم … قدروا فدوك بكل ما هو غالي

شيخ القراء الشيخ محمد نجيب خياطة

ولئن بعدت فإن ذكرك خالد ... بجلائل الآثار والأفعال

• • •

ولقد عرفتك في حياتك مخلصاً ... ولقد صحبتك مدة بتوال

فلمست فيك مودة وأخوة ... ولمست طيب الخلق والأفضال

أبكيك من قلبي وأعلم أنه ... شيء يزيد الحزن دون جدال

والشعر أبلغ في العزاء من البكا ... والدمع للمحزون أعظم سال

علمتنا التجويد يا كهف التقى ... فأنا أجود في القريض لآلي

كنت الأب الحاني وأعظم موئل ... للطالب المحزون أو للتالي

وكأنما الأيام فيك قصائد ... نظمت كنظم اللؤلؤ المتلالي

وإذا بكيت على الكرام وعهدهم ... فنجيب عندي من أجل مثال

جاد الكريم ثراك من رحماته ... في جنة قدسية وظلال

• • •

وقال الشيخ بكري رجب مرثية صغيرة مطلعها:

أسفاً عليك أبا نجيب الآلا ... أسفاً يردده الورى إرسالا

رحل شيخ القراء والمقرئين في بلاد الشام الشيخ محمد نجيب خياطة وخلف ذكراً حسناً طيباً وترك بعده جيلاً من القراء رحم الله الشيخ محمد نجيب الآلا الخياطة

الشيخ طاهر خيرالله

عالم من العلماء الأجلاء الأفاضل وعندما دخلت الثانوية الشرعية كان الشيخ هو مديرها وكان رجلا إداريًا من الطراز الممتاز وبقي مديرًا لها بعد دخولي إليها حوالي سنتين حيث ثار الطلاب عليه فخرج من وجوههم وكان كلما دخل المدرسة خرج الطلاب من صفوفهم ثائرين لإبعاده من المدرسة لقد تمنيت أن أعرف السبب الذي لم استطع معرفته حتى الآن رغم إلحاحي بالسؤال عن ذلك وإذ كنت في سن مبكرة وأرى مدير مدرستي الرجل العالم الحازم الممدوح من الأساتذة الأجلة يحصل معه هذا الأمر فإنه لشأن حزّ في نفسي وإلى الآن فلا يليق بطلاب العلم الشرعي أن يتجاوزوا على العالم أيًا كان السبب سيما وأنه أستاذهم لأنهم حسب المفروض هم طلاب علم ويعرفون أكثر من غيرهم قدر العالم ومكانته وإن كان من خطأ تقتضي الإصلاح فهناك مراجع يمكن التوجه إليها كانت ظاهرة مؤسفة ومخجلة في رأيي والعقل يقول أن هناك طرقًا كثيرة فيها الحكمة والمنطق لا طريق العنف

الذي لا يليق بطالب العلم الشرعي وأكرر القول بأني لم أعرف سبب المسألة حتى يومنا هذا .

كان للمسألة صداها الكبير جداً جداً فصادف أن جاء عبد الحميد السراج نائب رئيس الجمهورية في ذلك الوقت إلى حلب وكنا وقتها في أيام الوحدة بين سورية ومصر وجاء لزيارة المدرسة وألقى كلمة نبه فيها على ضرورة الاستقرار والوداعة ووجه الطلاب إلى دروسهم وأنه سيرعى شؤونهم وشؤون دراستهم لا يرضى أن تسير الأمور إلا بما تقتضيه الحكمة ومصلحة الجميع ولكن الطلاب وأقول (أرباب الفتنة) توجهوا بلقاء نائب الرئيس إلى الناحية السياسية فقط من هتاف بتمجيد الوحدة القائمة إلى الهتاف ضد إسرائيل .. إلى إلى الخ ولم يكن اللقاء الذي توخى البعض أن يحتوي المشكلة .

جاء في الآونة نفسها العلامة الشيخ مصطفى الزرقا و تحدث إلى الطلاب وأبدى عاطفته الجياشة تجاه المدرسة التي تخرج منها ودرّس فيها وهي مدرسة أبيه وجده وهي مدرسة نادرة ليس كمثلها مدارس تعلم العلوم الشرعية سوى

الشعبانية وتكلم داعياً وواعظاً ومرشداً وقال في آخر كلامه وسيعود المدير إلى مدرسته والطلاب إلى صفوفهم وننسى الذي حصل في الأيام الماضية وتعود مدرستنا إلى عهدها الطبيعي لكن أرباب الفتنة لم يوافقوا على عودة المدير فكان هذا الموقف السلبي أمام محاولة الزعامة الشيخ مصطفى في رأيي غير أخلاقي فالشيخ وضع نفسه وسيطاً للإصلاح سعى لأن تقف هذه المدرسة بالشموخ الأمثل المعهود كونها موئل العلماء وخرجت الأعلام مدرسة كهذه لا ينبغي أن تنزل إلى هذا المستوى الذي أوصلها إليه بعض طلابها وبالمناسبة كانت هذه هي المرة الأولى التي اكتحلت عيني فيها برؤية العلامة الشيخ مصطفى الزرقا الذي ملأ سمعي ما وصل إلي من ذكر السيرة العلمية للشيخ مصطفى وأبيه وجده من والذي الذي تلقى منهم علماً وهم عمالقة الفقه الحنفي كل في زمانه لذلك شعرت بالاستياء من سلبية هؤلاء البعض أمام العلامة الكبير والآن وأنا أذكر الواقعة بعد أكثر من نصف قرن أجد في نفسي عليهم لأن العلماء ورثة الأنبياء وأنا لا أحب التعامل معهم ولا الحديث عنهم إلا على هذا الأساس.

الشيخ طاهر خير الله

من هذه الواقعة رأيت أن الشيخ بكل الصفاء في حياته تعكر كل صفائه أصبح عابثة لكن العبث يزول ويعود الصفاء لأنه الأصل أقول هذا لأنني لم أسمع عن الشيخ طاهر إلا ما يبهج النفس ويسر الخاطر وكانت لي معه لقاءات بعد أن تخرجت من الثانوية في مجالس خاصة وفي سفر والجميع كبار سن وأنا في عمر أولادهم وكان الشيخ كأي واحد منهم يلاطفهم ويشاركهم في الأحاديث الممتعة ولا يتميز عنهم إلا بشيء واحد هو أنه كلما وجد لمحة شرعية أو مناسبة لتفسير آية كريمة أو بيان لهدي نبوي شريف بادر بالحديث عنه مما يجعل ديمومة مظلة القداسة الشرعية فوق هذا المجلس أما أنا فكنت أتعامل معه وكأني في المدرسة عنده وهو مديري فيها ولا أسمح لنفسي بكسر الحاجز رغم أنه وبصدق كان يلاطفني كما لاطفت الآخرين ويكلمني بالعفوية التي يكلم بها الآخرين وكأنني أنه كان أستاذي ومديري وهذا في الواقع من خلق النبوة كما نعلم.

كنا في سفر نزهة لزيارة أبي بكر الهوار في قرية ذعزايا قرب كفرحلب وكنا نحواً من عشرين شخصاً ولم يكن في سني سوى شخص واحد فقط وكان الشيخ طاهر خير الله

طبعاً وقضينا يوماً لا أنساه ما حييت.

في موعد مع اثنين من الأحبة والمنشد المبدع الشيخ محمد أمين ترمذي(1) عند صديق لدراسة وتحليل المقامات وملاحظة أصول الانتقالات وجاء كل صاحب الموعد لكنه عندما جئت وجدت جمعاً فيه سعة وفي مجلس كهذا تتعذر المدارسة وفي المجلس أستاذي طاهر خير الله فتقدمت منه وأخذت يده باحترام في هذا الجمع الذي صار بينه الشيخ أمين ترمذي لا بد من وصلة إنشاد ولكنه لا توجد أجنحة أي من يساعده في

---

1 - الشيخ محمد أمين ترمذي منشد مجتهد تعلم وأخذ من زوج أمه عبد الوهاب صباغ الشاملي وتلقى عن غيره أيضاً لكنه هو مجتهد درس المقامات والايقاعات وهو صاحب ذوق رفيع وقصيدته جميلة حاول التلحين مرات عديدة وكان موفقاً في بعض محاولاته توفيقاً ممتازاً فقدم ألحاناً جيدة وارتحل إلى الأردن في أول الثمانينات مهاجراً إلى الأردن لأن محله كمنشد تضرر بسبب الأحداث وقد يسر الله أبواب الرزق فبقي هناك. وفقه الله

الإنشاد فقال لي صديقي صاحب المجلس : حان وقت العمل
قلت : أي عمل لا أستطيع مراجعة أي شيء ، لقد اختلف المقر.
قال : وما المانع ؟ قلت جلستنا علمية ولا تصح في هذا المجلس
قال فلنجعلها عملية ...

تملصت من الحديث وفي ذهني ملاحظة سانحة للخروج من
هذا الجو الذي سأكون فيه بغاية الحرج وتحدثت مع هذا وذاك
مقترباً من الباب وبدأت أتملص من الحديث مع الرهط ببطء
للخروج فقال لي أحدهم : انتبه الشيخ يريدك نظرت إلى الشيخ
فأشار لي بالحضور فهرعت إليه فقال : إجلس بجانب أمامك
قلت : كما تأمر يا أستاذ لكن أنا لست منشداً وإنما أحب السمع
فقال نحن لا نطلب منك إنشاداً وإنما نسمع المحاسبة بمرافقة المنشد
العزف خجلت جداً من الشيخ ولم أدر ما أقول سوى كلمة لكن
يا أستاذ .. قال يا محمد لا تقل أستاذ نحن هنا أحباب وبس
وإذا كان الشغلة ع المشيخة هي المشيخة حطينا هاي الطاولة
ورفع عمامته عن رأسه ووضعها على الطاولة – كان الوقت
صيفاً – إجلس بجانب الشيخ أمامك وببالغ الحرج امتثلت أمر
الشيخ وأنا في الواقع لا أتصور أن أكون في موقف كهذا

فأنا أستعمل العزف لدراسة المقامات فقط في مجلس دراسي محدود جداً يقتصر على أرباب الصنعة لا في مجلس كهذا وكانت المرة الأولى والأخيرة فعلاً حيث رافقت الشيخ أمين وقد أدى بعض الموشحات والمدائح لفترة قصيرة من الوقت وأنا جالس بجانب أستاذي الذي يحب السماع وكان يثني علينا ويطري ويعطينا الالتفات والآخرون كذلك ثم جاء دور الأحاديث المختلفة وقصة وعظ .. الخ والواقع كان مجلس سمر فيه ألوان مختلفة .

كان الشيخ يكلمني كصديق كما قلت قال لي: الله يعطيك العافية يا أحمد قلت: عافاك الله يا سيدي أنا وأمين تزمذي على مدارسة وقد فوجئنا بهذا الجمع وأنا يا أستاذ دارس ولست محترفاً قال: أعرف كثرة اهتماماتك وأنك دارس فأخبارك عندي وهذا التجمع كان بمحض العفوية لكن ألا يرضيكما أنت وأمين أنكما أدخلتما السرور إلى قلوبنا؟ قلت: يا سيدي نرجو رضى الله ورسوله ثم رضاكم.

جمعتني مع شيخي مجالس عدة لكنني فيها جميعاً مستمع إذ لا دور لي فيها بإنشاد لأنني لست منشداً وإن كنت أحفظ في المجالس

التي يكون فيها الشيخ أراه هو هو في دعاباته اللطيفة وكلامه مع الجميع بنفس البساطة التي يتكلمون بها ويوجه كلامه إلى بنفس البساطة وأنا كنت أحدثه بالبساطة المقيدة فلا يمكن أن أنسى للحظة أنه أستاذي وكنت أحب بوجوده الكلمة والتصرف وكم تمنيت أن يوجه لي أوامره كأستاذ أو حتى كولد من أولاده لكنه لم يكن إلا كصديق يجعلني أكثر ترددًا في نفسي أهذا الذي كنت أخافه وأخشى عقوبته؟ لكننا نعلم أنه لكل مقام مقال فالإنسان له شخصية المدير في إدارته وشخصية الأب والزوج في بيته وشخصية الصديق المؤانس في المجالس هكذا قضيت أوقاتًا ماتعة مع الشيخ طاهر خير الله وكنت إذا حضرت له درسًا في جامع الروضة الذي يغص بالرواد كنت أسمع منه الوعظ العلمي والتقريرات العلمية الراقية التي تناسب المستويات العديدة من الحضور.

كان للشيخ طاهر خير الله حضوره كشخصية تحمل العلم الشرعي وكان له حضوره اجتماعيًا وكان في خطبته وربما في درسه يعرض للشأن العام فاتجهت الأنظار إليه في أحداث الثمانينات وجاءه وفد من الحكومة على رأسه

نائب الرئيس محمد زهير مشارقة فتكلم الشيخ بالصراحة التي عرف بها و بالموضوعية التي اشتهر بها فقال لزهير: إن الحكم عندنا طائفي ويجب أن يتغير فقال زهير: هذا غير صحيح والدليل أنني موجود في الحكم وأنا من حلب فقال الشيخ: ما وضعوك إلا صورة ولذلك فكل الناس تلقي باللعنة عليك .. ولم يصلوا إلى نتيجة وانفض المجلس.

قبض على الشيخ طاهر خير الله بعد أيام وأخذ إلى فرع أمن الدولة في المحافظة وهل كان ذلك بسبب هذا الاجتماع أم لأنه أسرف في الكلام في خطبة له؟ هذا ما نسيته وعندما جاء الناس إلى صلاة وكان الشيخ مازال في الأسر فخرجوا بعد الصلاة آلافاً إلى فرع أمن الدولة لطلب الإفراج عنه وعندما لاحظ الفرع من خلال عناصره قدوم هذه الجموع تحصنوا في فرعهم وطلبوا نجدة لإنقاذهم من الهجوم وشيك تحسباً منهم وجاءتهم النجدة بسرعة وحلقت في الجو طائرة هليكوبتر لتراقب الوضع على الأرض ولكن أمراً ما من الهواجس لم يحصل فالناس على درجة من الوعي ولم يكن الموضوع سوى طلب سلمي بنداءات

لهؤلاء الجماهير وقد أخرج عن الشيخ بعد أيام ولم تطل إقامته في حلب كثيراً ربما شهراً أو شهرين لا أذكر تماماً وصح بأن يغادر سورية وطنه لأداء العمرة وكان ذلك .

أقام هذا الرجل الكبير بقية حياته في مكة المكرمة وهو ما يزال حاملاً هموم الوطن وساكنيه ولا نعرف عن الشيخ سوى ما يقوله حاج أو معتمر بأن الشيخ منقطع للعلم والعبادة وهو بصحة جيدة يتنسم كل هبة عطرية من الوطن وأهله ... إلى أن أتى القائلون بأن الله عز وجل اختار الشيخ للبقاء في تراب البلد الحرام وكان ذلك في أواخر العقد الثامن أو أوائل العقد التاسع من القرن العشرين رحم الله هذا الرجل الكبير أستاذي الشيخ طاهر خير الله .

الشيخ عبد الله خير الله

عالم كنت أراه دائماً في المدرسة العثمانية مع علمائها الأفاضل وربما كان في جملة علماء المدرس هكذا كنت أظن ولا أدري فقد كنت صغير السن ولست الذي يكثر التردد

على العثمانية لبعد المسافة لكنني عرفت الشيخ من خلال أنه أستاذي لمادة الحديث الشريف وأنا في الصفين الأوليين في الثانوية الشرعية وكان في المنهج الأول لنا قراءة كتاب الأربعين النووية وكان الشيخ يشرح لنا اثنين أو ثلاثة أو أربعة أحاديث في الدرس الواحد ووصلنا إلى نهاية السنة ولم نصل إلى نهاية الكتاب والسبب أن الشيخ يسأل في بداية الدرس إلى أي حديث وصلنا؟ فيقول البعض: الحديث الرابع فيبدأ الشيخ متوكلاً على الله بعد البسملة والحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بينما نحن في الواقع قد وصلنا ربما إلى الحديث الثامن عشر وكنت أعتب ناصحاً فهذا كذب من ناحية ولا خلاف بحرمته ومن جهة أخرى أقول: أي مانع إذا أنهى الشيخ تقريره الأربعين حديثاً في نصف العام الدراسي مثلاً فإنه لا مندوحة من إعادة الكتاب تقريراً وشرحاً وخير لنا أن يقرأ الأستاذ لنا الكتاب مرتين شارحاً من قراءة أجزاء منه عدة مرات دون أن نتمه لكنه العقل الطفولي عند البعض.

سلامة قلب مفرطة رأيتها في الشيخ عبد الله خير الله وكنت في قلبي أقول إنه (دفتر الصف) أمامه فلو نظر فيه إلى الدروس لعرف إلى أين وصل المقرر.

عرفت الشيخ عبد الله خير الله عماً للشيخ طاهر خير الله أو لعل ابنه عم أبيه وعرفت فيما بعد أنه مقامه في المدرسة العثمانية كونه المفتي لجبل سمعان وكان ونقها الشيخ عبد الله خير الله ومقر مفتي الشافعية وهو ونقها الشيخ محمد أسعد العبه جي.

لم أتعرف على شخصية أكثر من ذلك لأنني أدركته لفترة قصيرة في السن الصغيرة ولأنه أعطانا مادة واحدة هي الحديث الشريف وليس في الوقت بعد من فسحة للتوسع في الصحبة فقد افتقدته يد المنون في أواسط الستينات من القرن الشريف رحم الله الشيخ عبد الله خير الله.

الشيخ معروف الدواليبي

عالم نحرير وفقيه كبير كيف لا وهو من تلامذة

العلامة الشيخ أحمد الزرقا الملازمين له كالشيخ محمد الملاح وابنه الشيخ الزرقا الشيخ مصطفى وغيرهم .

وقد ذكر لنا الشيخ محمد الملاح أن الشيخ أحمد الزرقا نصح ابنه مصطفى و معروف وقال لهما : التزما العلم واتركا السياسة فكانت النصيحة التي طبقاها أولها فالتزما العلم حتى كانا من أعلام العلماء ولم يطبقا الشطر الثاني منها فأوصلت الشيخ مصطفى يوماً أن وزيراً للأوقاف و كان يوماً وزيراً للعدل كونه من دارسي الحقوق وأوصلت الشيخ معروف الدواليبي أن كان يوماً وزيراً للدفاع وكان رئيساً للوزراء لكن الاثنين بقيا فيما بعد بعيدين عن الوطن بقية حياتهما .

عرفت الشيخ معروف وأنا صغير السن من خلال أحاديث والدي محمد تلامذة شيخه العلامة الشيخ أحمد الزرقا وكذا من أحاديث شيخي الشيخ محمد الملاح في الموضوع نفسه لكن فيما بعد وقد رأيت الشيخ معروف مرتين فقط وذلك في سنة ١٩٦١ وكانت أيام الانفصال كما سموها آنذاك إحدى المرتين كان يلقي كلمة في اجتماع على سطح بناية

الشيخ معروف الدواليبي

بيت صهريج في الكلاسة أمام دوح قراءة الجلوس بعد العشاء ولم أعرف فحوى الخطاب ولكنه ألمه ضمه حملة انتخابية فقد كان يشغلني النظر إلى وجهه لأحفظ شكله كزميل لوالدي في الدراسة والمرة الثانية في الآونة نفسها وذلك في مقر انتخابي في شارع اسكندرونه لا أعرف عائديته لكنه عرفت من الموجودين الشيخ معروف لأنني رأيته قريباً ولا أعرف أحداً من الحاضرين سواه فقد كنت فتى ولدي فضول في الاطلاعات على اختلافها حتى التي لها صلتها بالسياسة كالشخصيات والمراكز الانتخابية رغم أنني من عائلة لا تعنى بغير العلم وليس لها في غيره حظ ولا نصيب .

عرفت الشيخ سماعاً ورأيته مرتين فقط فهو مدرس في جامعة دمشق وما من تواجد له في حلب أبداً اللهم إلا من زيارة أو حاجة لكنني فيما بعد كنت أعرف أنه حاصل على الدكتوراه في الفقه الروماني .

ارتحل الشيخ معروف عن هذا الوطن إلى المملكة السعودية وهناك عرف الملك فيصل مكانته العلمية الرفيعة فاتخذه مستشاراً وبقي إلى أن قتل الملك بيد ابن أخيه فهل بقي

الشيخ معروف مستشاراً للملك خالد الذي تلاه أم لا؟ هذا ما لا أعرفه؟.
بقي الشيخ في الرياض إلى آخر حياته التي سقطت آخر أوراقها في ثمانينات القرن العشرين يرحم الله الشيخ معروف الدواليبي.

الشيخ بكري رجب

عالم فاضل من مدينة الباب شرقي حلب لكنه من علماء الثانوية الشرعية وأحد المدرسين فيها وفي المدرسة الشعبانية كان الشيخ أستاذي في الفقه الحنفي وذلك عندما كنت في الصف الثامن فقط ولم يدرسني سوى ذلك.
كان الشيخ دمث الأخلاق متواضعاً وله دروس خاصة في جامعه بجانب جامع سليمان حسبما قال لي الشيخ محمد خبازة المؤذن وهو خليفة الشيخ حسن حساني وقد ذهبت لزيارة الإثنين في الجامع يوماً لكنه لم أصادف درساً.

الشيخ بكري رجب

كنت أرى الشيخ بكري رجب في بعض الأحيان وهو في حضور درس سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين في جامع باب الحديد وذلك يوم الجمعة بعد العصر.

للشيخ بكري بعض المؤلفات التي تناسب المطلعين من العامة مثل شرح جوهرة التوحيد ومنها ما يقرب الفهم والمعرفة للدارسين من الطلاب كمثل كتاب في العروض .. وغيرها فكتبه ذات مستوى متواضع لتجتذبها الأفهام بيسر وسهولة.

كان الشيخ شاعراً وتراه في بعض قصائده محلقاً مجيداً وقد قرأت له في مديح سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يسر الخاطر ويثلج الصدر وكذلك في بعض الغزليات ونظم في فنون الشعر وقد قدمت أنه قال مرثية في عمه الشيخ نجيب مطلعها:

أسفاً عليك أبا نجيب لآلا أسفاً يردده الورى إرسالا

كان شيخنا يرحل إلى الديار المقدسة كل سنة إن تيسر له ذلك وجاء يوماً نبأ وفاته هناك فأسف محبوه وتلامذته لفقده ثم ما لبثوا أن فاجأتهم السعادة بعودته

التي عاش بعدها بضع سنين لكنه في هذه المرة كان من الراحلين فغدا إلى جوار أرحم الراحمين وكان ذلك في ثمانينات القرن العشرين أو أواخر سبعيناته يرحم الله أستاذي الشيخ بكري رجب .

الشيخ حسن رزوق

عالم ساقته مقاديره إلى مدينة حلب من قرية خطاب بريف حماة فكان موجهاً في الثانوية الشرعية وأعطى الدروس فيها فهو أستاذ للبعض من الطلاب كما كان مدرساً في شرعية الإناث وكان خطيباً في جامع عبد الناصر (١) في الكلاسة وله إمامة جامع

---

١ - جامع جمال عبد الناصر هو جامع الكلاسة بعد ضرائه الجلوم وعلى مرأى الناظر مباشرة للخارج من باب قنسرين يفصل بينه وبين مقبرة الكليباتي شارع يوصل إلى الفردوس كان جامعاً صغيراً لا أعرفه قبل التجديد وعندما أرادوا تجديده هدموه وكان وراءه دار لأحد من الناس فأخذوها

القصيلة وعندما يذهب إلى القرية للزيارة والدي كنت أقوم بالخطابة نيابة عنه في الجامع المذكور.

غصباً وذلك بأن هدموا جزءاً منها مما يلي الجامع عند هدمه وطلبوا من صاحبها الإذن بإصلاحها فضموها إلى المسجد وحاولوا استرضاء صاحب الدار فلم يرض لكنه رضي بعد على كره لأنها صارت جزءاً من الجامع الذي بني وقد تم البناء بشكل حسن وجميل فكانت له واجهة فيها الزخرفة ومئذنة لها شرفات جميلة وقد أصر بعض أهل الحي على تسميته باسم أحد الظلمة حيث لا يليق ببيوت الله إلا الإسم الحسن الذي يرضي الله ورسوله وقد طمس هذا الإسم ووضع بدلاً منه إسم جامع الكلاسة وتردد الطمس مرات عديدة ولم يقف الأمر عند طمس الإسم وحسب بل كان ذلك يترافق بأحداث شغب وعنف وتركوا إسم الظالم على الجدار وهو عند الأوقاف جامع الكلاسة ولم ينفع الظالم كتابة اسمه على جامع لطالما كان في حياته شوكة في حلق الإسلام ونحن نعلم أن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً.

لو أشرف حقاً على عقد فلم يكن صاحب رسالة في الفتوى
ولكنه عندما كنا نتقدم نحو الكفاءة الشرعية كان يتقدم معنا
قدماً ولو أنه يحمي الأجيال فيما بعد لم يتقدم أي شخص. ولم
أسمع يوماً أنه يحكي في سياسة ولم يكن من أرباب السياسات
العالية سيما وأنه بارز في الحي وإمامه الشيخ في حيّنا
والفقه التقليدي.

يصل مع الشيخ إشكال فسلبت منه وقد أقر جميعاً ولم يدر
ما حصل فجاء إلى والدي بحكم الجوار من جهة وبحكم الزمالة
في المدرسة ولأنه يريد أنه يعلم الأمر قبل أن يشيع
ويستفحل فيخرج عن السيطرة فدرس والدي الموضوع
ونصحه بأن يقبل بالزواج فأبى وأقنعه فأبى والذي
عرف بعد ذلك الموضوع من كل أطرافه. وكان الأمر
كذلك وعندئذ لمن والدي مع الأستاذ سليمان النس (1)

١- سليمان النس: يعتوق من قرى شيخون قرب حماة مقيم
في مدينة حلب وكان مدير ثانوية قاسم أمين عدة
بين منفرة على فترات ثلاث يعتبر من أفضل الأشخاص

[illegible] وقال [illegible]
[illegible]
وكان محباً لي [illegible] الشيخ [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] وكان [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
لم أكره فقالت لي [illegible]
[illegible] ثم التفت [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
في إشكال أعظم [illegible]

يا عم أبو عماد أرسل لي الإيصالات وكن مطمئناً وثق بأني سأسعى لخدمتك بما يرضي الله ولترضى روح والدي وجدي وأنفذت له المبلغ يوم الثلاثاء واتصلت به وأخبرته بأن المال عندي في البيت فاطمأن وشكرني وقال دعه الآن عندك وسأحضر يوم الجمعة صباحاً لآخذه لأن الوقت المناسب لنا جميعاً قلت: إن شاء الله وجاء سليمان النشر الإنسان الذي خدم الأوقاف بكل الصدق وأدار أموالها بكل النزاهة والأمانة جاء صديق والدي وجدي إلى بيتي لأخذ المال ولو كنت أعرف بيته لذهبت به إليه .. وسألته هل معك سيارة؟ قال: لا .. سأذهب بسيارة أجرة فقلت: تفضل وحملت المال ووضعته في سيارتي ولم يرض أن أتكلف بإيصاله إلى بيته وأبيت إلا أن أوصله فأنا أخشى أن يحمل هذا العجوز الضعيف مبلغاً كهذا ويذهب وحده به ووضعت كيس المال داخل باب بيته فقال: بيضت وجهي وسترت كبرتي الله يبيض وجهك ويستر كبرتك فقلت: يا سيدي وجهك أبيض دائماً وقد ستر الله كبرتك فحفظها كما حفظت وقد اتصلت ابنته بعد أيام ليست بالطويلة لتقول بأن الأتراك جاؤوا البارحة

مديرا للأوقاف فتعاطف مع الشيخ وأسهم في رد وظائفه إليه وسعى في إصلاح الأمور في الجهات التي فسدت فيها وعادت الأمور إلى مجاريها وكان ذلك في سنة ١٩٧٠ .

ثم إن الشيخ ارتحل في أحداث الثمانينات إلى الأردن كما سمعت ولم أعد أرى أحداً من أولاده وكانت زوجته الأولى توفيت لكنني سمعت فيما بعد أن زوجته عادت مع أولادها إلى سورية في آخر الثمانينات أو أوائل التسعينات حيث أن الشيخ قد توفي في الأردن يرحم الله الشيخ حسن رزوقه .

الشيخ محمد رشيد

عالم جليل فقيه من فقهاء العصر هو تلميذ الشيخ محمد

وأخذوا مالهم ونظرت حكمة ربي عز وجل وتذكرت قول القائل: كن مع الله ترى الله معك كم من أناس في هذه الأزمة وقعوا في المحظور وسارت بهم الأحوال على اختلافها بينما خرج الآخرون منها بأي سبب كان بتوفيق الله فلنعتبر

الزرقا الكبير(١) ثم هو تلميذ ابنه الشيخ أحمد الزرقا(٢) وبيننا والشيخ قرابة عمومة للأم ومصاهرة فابنه عمة الوالد زوجة

---

١ - الشيخ محمد الزرقا الكبير عالم جليل وفقيه متبحر ففقيه الأمة الإسلامية في عصره بلا منازع فقد بز الأقران في جميع البلدان وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تعتمد المذهب الحنفي الذي هو أوسع المذاهب وفي بقاعها جمهرة واسعة جداً من العلماء الأفذاذ وقد وصل القضاء عندهم في مسائل كثيرة عجز عن علاجها علماء العصر فتوجهت الأنظار إلى العلامة الشيخ محمد الزرقا الكبير فاستدعي إلى استانبول ليفتي في المسائل العالقة ويحل المعضلات المشكلة فمكث في استانبول بين ثلاثة إلى أربعة أشهر كانت الوقت اللازم لإنجاز المطلوب وقد رأينا صورة للشيخ أخذت له هناك وعليه فروة لمدافعة البرد توفي الشيخ سنة ١٩٢٤ ودفنه في جامع الملاخانة بباب الفرج رحمه الله

٢ - الشيخ أحمد الزرقا : انظر ص ٤٢٣

ابنة وهم يسكنون مع زوجة الشيخ الحاجة أم علي وراءهم أمام دارنا في زقاق النور لكن الشيخ كان يسكن في دار مستقلة وحيداً مع كتبه في منطقة السبيل وعندي عيني ولم أره جاء إلى بيته الذي أمامنا ولو مرة .

رأيت الشيخ كثيراً فقد كنت أراه في غرفته في الجامع الأموي الكبير عندما أذهب إلى هناك وفي بعض الأحيان كان يصر علي ابن بنت محمد لأذهب معه بأخذ الطعام إلى جده في الجامع الأموي حيث تعطيه جدته أم علي الطعام فكنت أذهب معه إلى هناك وسألني عن اسمي وبعدئذ كان يقول في سلام على بابا كنت وابن بنته وقتها صغيرين جاوزنا العشر سنوات أو كدنا نصل إليها .

كان الشيخ خطيب جامع السقاطية وله درس في الجامع الأموي الكبير حضرته مرات قليلة وللشيخ مكانته العلمية المرموقة التي لا ينكرها أحد بل ويقدرون له أنه الوارث الأول لفقه آل الزرقا ولا عجب فقد رأيت الشيخ محمد الملاح يقبل يد الشيخ محمد رشيد في صحن الجامع الأموي عندما يلتقي به وكان ذلك لمرات عدة مع أن شيخنا الملاح من أكابر فقهاء

فقهاء العصر. ثم هو تجمد الزمالة مع الشيخ رشيد عند آل الزرقا مع أسبقية الشيخ رشيد بحكم السن وتقبيل الشيخ الملاح ليد الشيخ اعتراف منه بفضل الشيخ رشيد وإذا رأيت الشيخ محمد الملاح قبل يد الشيخ رشيد فقد رأيته قبل يد الشيخ محمد الحامد(1)

---

1 - الشيخ محمد الحامد: من أعلام العلماء في مدينة حماه ومن كبار علماء سورية تلقى علومه في الكلية الشرعية بحلب وكان فقيهاً كبيراً وكتابه ردود على أباطيل من ثلاثة أجزاء يشهد على علو كعبه في العلوم الشرعية بأنواعها وفي آداب البحث والمناظرة رأيت الشيخ محمد الحامد مرتين أو ثلاث مرات حين يقدم لزيارة الثانوية الشرعية حيث ابنه الشيخ محمود من زملاء دراستنا وقد رأيت الشيخ مرة عند دخوله الثانوية فرآه الشيخ محمد الملاح داخلاً المدرسة فقدم إليه وسلم عليه وقبل يده والشيخ الحامد عبد صالح وقد نقل من يلازمه في جامع السلطان بحماه أنه عندما يكون في الجامع فإنه يستعمل الكهرباء في أمر عام فإن كان شأناً خاصاً استعمل الشمع لأن قيمة الكهرباء من مال الوقف فلا يجوز استعمالها في شأنه الخاص.

أردت أن أعرف بعد أن توفي الشيخ لماذا لا يأتي الشيخ إلى بيته الذي أمام بيتنا؟ فإنه كانت ملازمته لذلك البيت ليبقى وحيداً مع كتبه وهذا لا يمنعه من المجيء لرؤية زوجته وأولاده وإن كان ولداه محمد علي ومحمد يذهبان إليه دائماً في الجامع الأموي وإلى بيته الثاني في السبيل فما هو السر في ذلك؟ لم أهتد إلى سبب يقنعني لكن قيل لي إن زوجته أم علي اعتصرت ثديها فحلبته في كأس ووضعتها جانباً فجاء الشيخ إلى البيت ورأى كأس الحليب فشربه وعندما علم أنه حليب زوجته ترك البيت واعتزل إلى البيت الآخر وحيداً قلت في نفسي هذا غير مقنع فالشيخ فقيه وأي فقيه هو إنه يعرف أن هذا لا يحرم لأن المعتمد في المذاهب مدة الرضاع المحددة في القرآن الكريم نصاً والتي لا يجهلها أحد وإذا فرضنا أن الشيخ اعتبره رضاعاً للكبير وأن زوجته حرمت عليه فهذا لا يمنع دخوله البيت لأنها صارت والدته رضاعاً ولا خلاف في أن شرب حليب الآدمية مكروه تحريماً لمن بلغ الفصال بالغاً ما بلغ من العمر لأنه انتفاع

بجزء الآدمي هذا إذا كان الكبير يعلم أنه حليب آدمي
أما إذا كان لا يعلم فلا حرج كما جرى مع الشيخ حسب الرواية
أما الصغير الذي بلغ المدة الشرعية للفطام وما دونها فإنه
على غيره لعدم التكليف أعني في كل الأحوال أنه
هذا السبب ليس مقنعاً من حيث الأحكام الشرعية عندنا
وبذكر الرضاع فإن كتب فقه أهل السنة تعرض من الخلاف
فيه ولعدم جوازه عندهم على خلاف فيه شذوذ
فإننا نرى لهم بحثاً في:

رضاع الكبير

الأصل في رضاع الكبير ما أورده أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه عن زينب بنت أم سلمة قالت: قالت أم سلمة لعائشة إنه يدخل عليك الغلام الأيفع الذي ما أحب أن يدخل علي فقالت عائشة: أما لك في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة وقالت إن امرأة أبي حذيفة قالت يا رسول الله إن سالماً يدخل علي وهو

رجل وفي نفس أبي حذيفة منه شيء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضعيه حتى يدخل عليك.

وفي رواية عن زينب عن أمها أم سلمة أنها قالت أبى سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل عليهن أحد بتلك الرضاعة وقلن لعائشة ما نرى هذا إلا رخصة أرخصها رسول الله صلى الله عليه وسلم لسالم خاصة فما هو بداخل علينا أحد بهذه الرضاعة ولا رائينا. رواه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه.

والرضيع الذي راهق عشرين سنة وزينب ربيبة النبي صلى الله عليه وسلم وقد استدل بذلك من قال أن إرضاع الكبير يثبت به التحريم وهو مذهب علي بن أبي طالب كما حكاه عنه ابن حزم وأنكر ابن عبد البر الرواية عنه في ذلك وقال لا يصح ويؤيد ذلك الإطلاقات القرآنية كقوله تعالى: وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وذهب الجمهور إلى أن حكم الرضاع يثبت في الصغير وأجابوا عن قصة سالم بأنها خاصة به كما وقع من أمهات المؤمنين لما قالت لهن عائشة بذلك محتجة به وأجيب أيضا بدعوى نسخ قصة

سالم المذكورة واستدل على ذلك بأنها كانت أول الهجرة عند نزول قوله تعالى ادعوهم لآبائهم .. وقد ثبت اعتبار الصغر من حديث ابن عباس ولم يقدم المدينة إلا قبل الفتح وفي حديث أبي هريرة ولم يسلم إلا في فتح خيبر ورُدَّ بأنها لم يصرحا بالسماع من النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد اختلفوا في تقدير المدة التي يقتضي الرضاع فيها التحريم على أقوال منها :

- أنه لا يحرم منه إلا ما كان في الحولين .
- الرضاع المقتضي للتحريم ما كان قبل الفطام وإليه ذهبت أم سلمة وجمع من الصحابة .
- ثلاثون شهرًا وهو رواية عن أبي حنيفة وزفر

وهناك قول يعتبر أن الرضاع يعتبر فيه الصغر إلا ما دعت إليه الحاجة كرضاع الكبير الذي لا يستغني عن دخوله على المرأة ويشق احتجابها منه وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية .

ومذاهب السنة على عدم اعتبار رضاع الكبير والرضاع الذي تثبت به الحرمة صريح في قوله تعالى : حولين كاملين

لمن أراد أن يتم الرضاعة. وقوله: وحمله وفصاله ثلاثون شهرًا وما رواه الترمذي وصححه عن أم سلمة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام.

وما رواه الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا رضاع إلا ما كان في الحولين.

وعن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا رضاع بعد فصال ولا يتم بعد احتلام رواه أبو داود والطيالسي في مسنده.

وفي نظرة عامة لأحكامنا العامة نسأل: هل يجوز للأجنبي الكبير أن يلتقم ثدي امرأة رضع أم لم يرضع؟

وعودًا إلى الشيخ محمد رشيد الفقيه الكبير فإن انزواءه في العزلة عن الأهل ليس بسبب شرب حليب: وهنا على فرض صحة ما ذكر وما أعلمه ورأيته أن الشيخ لديه نوع من الوسواس فقد رأيته غير مرة يتوضأ ويغسل كل عضو مرات ومرات ويبلغ الغسل بتكرار الفرك مرات ومرات وربما أنجز بضع أشخاص الوضوء وهو لم ينته بعد فهل هذا

هو السبب في اعتزاله؟ إن الدار التي يسكنها أهله على شارع شيوع مع آخرين - وفيها حوالى عشر غرف يشغل أهله منها ثلاث غرف أو أربع يشغل كل غرفة منها عائلة ايجاراً تلما تلكيف الآخرين فهل تراه بدافع الوسواس انعزل للبعد عن الأولاد والنساء الأجنبيات لأن الأطفال قد لا يدركون معنى الطهارة والنجاسة والنسوة الجارات عديدات والمنافع مشتركة. وللوسواس أيضاً حكم في مسألة كهذه عادة ولقد سألت ابنه الشيخ محمد عبده ذلك وكان زميل دراستي وفي صفي فلم أحظ منه سوى قوله: يريد أن يبقى وحيداً مع كتبه.

ذهب محمد علي ابنه الأكبر محمد علي ذات صباح الى بيت والده وكعادته يقرع الباب إيذاناً بالدخول ثم يفتح الباب ودخل البيت فرأى والده قد وضع مرفقيه داخل جرن المغسلة وهو واقف والصنبور يرسل الماء للوضوء. كلمه محمد علي فوجئ بأمر الصنبور كان يذرف دمعاً على الفقيه الكبير الذي قضى وهو يشرع للوضوء.

كانت المرة الوحيدة التي رأيت فيها الشيخ يزور بيته الذي

تسكن عائلته ، وهي المرة الأخيرة التي جاء فيها إلى بيت أهله وإلى زقاق النوري حيث حمله بكل المحبة جيرته وأهله وتلامذته إلى مثواه الأخير في مقبرة الصالحين وكان ذلك في سنة ١٩٦٤ يرحم الله الفقيد الفقيه الشيخ محمد رشيد .

الشَيخ مُصطفى الزرقا

فقيه زمانه ثالث ثلاثة أنجبتهم عائلة الزرقا الحلبية ليمكثوا زمام فقه الأمة الإسلامية لقرن ونيف من الزمان ألا وهو القرن العشرين حيث تربعت عرش الفقه فكانت السلسلة الذهبية له المكونة من الشيخ مصطفى الزرقا ووالده أحمد(١) وجده الشيخ محمد الكبير(٢) فكان كل واحد من الثلاثة في زمانه المرجع الأعظم في فقه الإمام الأعظم

---

١ - الشيخ أحمد الزرقا : انظر ص ٢٢٥

٢ - الشيخ محمد الزرقا الكبير : انظر ص ٢٩٠

وغيره من أئمة الفقه العظام رضي الله عنهم .

في بيت العلم هذا نشأ الشيخ وفي نفسه حب الدرس والمطالعة ونهل العلم بالصورة التي يندر وجودها في غيره ففي إحدى الجلسات مع عمي الشيخ نجيب روى لنا ما قاله الشيخ أحمد الزرقا عن ابنه مصطفى حيث بين طفلاً أراه ممسكاً الكتاب يقرأ يقرأ ولهذا أمر يسرني لكن ما يزعجني أنه في حاجته الذهاب إلى الكنيف فإنه يأخذ الكتاب معه ويظل يقرأ أثناء قضاء حاجته وكم نهيته ونهرته وأقول هذه كتب علم ولا يجوز ذلك أن تفعل فإن للعلم حرمة وآدابه وما من جواب عنده سوى قوله : لم أتمكن من قراءة البحث ولن أبلل ثيابي لأن نجاسة الثوب تمنع صحة الصلاة لم أستطع ثنيه عن الفعلة التي تتكرر يومياً فهو طفل ولا يدرك ما يدركه الكبار .

دخل الشيخ الثانوية الشرعية طالباً نهوماً جداً للعلم يلتهم كتبه ويفرده في حواشيه وعندما وصل المرحلة الثانوية رأى فتوى صادرة عن مفتي طرابلس الشام ببطلان الوقف الذري فانبرى الشيخ الطالب فألف

الشيخ مصطفى الزرقا

رسالة رد فيها على مفتي طرابلس سماها الشمس الجلية في الرد على من أفتى ببطلان الأوقاف الذرية .

عندما تخرج الشيخ من الثانوية أصبح مدرساً فيها وبعد أن كان تلميذ المدرسة لوالدي صار مدرساً فكان والدي بذلك تلميذ الشيخ أحمد الزرقا وتلميذ ابنه الشيخ مصطفى ولذلك كان من أدرى الناس بهذه السلسلة الذهبية من آل الزرقا وقد قال لي والدي غير مرة إن الشيخ مصطفى هو فقيه الأمة بلا منازع ومع ذلك فهو لا يأتي نقطة في بحر والده الشيخ أحمد ووالده الشيخ أحمد فقيه الأمة بلا منازع ومع ذلك فهو لا يشكل نقطة في بحر أبيه الشيخ محمد الزرقا الكبير رضي الله عنهم .

درس الشيخ مصطفى الشريعة ودرس الحقوق وكان أستاذاً في جامعة دمشق وبوجوده في دمشق أصبحت هذه المدينة عاصمة الفتوى للبلاد الإسلامية فقد كان هاتف الشيخ ما يكاد يهدأ وهو ينقل إلى مسامع الشيخ معضلات المسلمين وظل هكذا أينما حل وارتحل .

قررت الجامعة في ذلك الوقت فصل الأساتذة نظراً

لوجود عدد من الخريجين الذين يحملون شهادة الدكتوراه وقد فصلوا الشيخ لأنه لا يحمل الدكتوراه فقام بسبب كتابه الذي كان يدرسه في الجامعة وهو المدخل الذي ليس كمثله ولم يأذن لأحد بتدريسه فاضطرت الجامعة لإعادته للتدريس لأنه فصله شكل ثلمة لا يرأب صدعها إلا هو.

قال له بعض محبيه أن يذهب إلى مصر ويأتي بالدكتوراه وقال قسم منهم إن الشيخ له سمعته العلمية شرقاً وغرباً فمن ذا الذي يعطيه الدكتوراه إنهم سيخجلون من مناقشتها معه لأنهم يتمنون أن يكونوا تلامذته وفي النتيجة قرر الشيخ تقديم أوراقه لنيل شهادة الدكتوراه.

تقلد الشيخ مصطفى وزارة الأوقاف فترة كما تقلد يوماً وزارة العدل.

كان للشيخ حضوره العلمي اللافت على مستوى العالم الإسلامي وحتى غير الإسلامي فقد دعي إلى مؤتمر حقوقي في باريس حيث يكون المطلوب من المدعوين مناقشة موضوع معين تحدده لهم إدارة المؤتمر مسبقاً حسب الأصول وفي النظرة الحقوقية لكل قانوني يقوم بدراسة لهذا الموضوع

وفق المنظومة القانونية السائدة في بلده أو في الجهات التي ينتمي إليها أو إلى تخصصه إذا كان متخصصاً في نوع من أنواع القانون. وحضر الجميع إلى فرنسا(1) لعقد هذا المؤتمر الحقوقي العالمي. ودعوتهم للشيخ على أنه عالم الفقه والفقه قانون سماوي والشيخ أيضاً حقوقي.

طلب الشيخ من رئيس المؤتمر أن يرجئه ليكون آخر المتحدثين في المؤتمر. وأن يكون المحسوب لموضوعه جلستين إحداهما صباحية والأخرى مسائية في آخر أيام المؤتمر فوافق الرئيس وكان البرنامج على هذا الأساس. وتحدث الحقوقيون كل في وقته ويومه المحدد له أمام المدعوين والحضور. والأحاديث تنقل على الهواء مباشرة في الإذاعات. وفي اليوم الأخير كان الحديث للشيخ وحده في جلسة صباحية. وفي القاعة مدعوون وبعض الحضور. وبدأ الشيخ في جلسة المساء ليتم معالجة الموضوع

---

1 - فرنسا معروفة بالدعوة الدائمة لمؤتمرات عالمية يدعى إليها المتخصصون من أنحاء العالم ولئن كان هذا المؤتمر حقوقياً فإن هناك مؤتمرات علمية وفنية وثقافية .. الخ

من الناحية الحقوقية الشرعية فكانت القاعة تغص بالحضور لا مكان فيها لقاعد ولا لواقف وتجمهر حشد من المهتمين لسماع حديث الشيخ حتى خارج القاعة وعندما أنهى الشيخ الكلام في الموضوع تقدم رئيس المؤتمر بكلمة ليختتم المؤتمر بها لكنه سبقها بشكره للشيخ أعقبه بعتب لطيف لكنه كبير حيث قال: سماحة الله العلامة الزرقا لقد طلب مني أن يكون آخر المؤتمرين حديثاً ولو أنه طلب وليته فعل أن يكون أولهم حديثاً لانتهى المؤتمر بانتهاء حديثه[(1)] وكلامه هذا لئن كان إطراء من جهة فإنه الحقيقة قبل كل شيء، فالأمور العلمية لا مجاملة فيها كما نعلم.

قررت وزارة الأوقاف الكويتية إصدار موسوعة للفقه الإسلامي على المذاهب الأربعة فجمعت حشداً من العلماء المتخصصين في الفقه من المذاهب وكان العلامة الشيخ مصطفى الزرقا هو رئيس الموسوعة وقد قال لي بعض من زملائي ممن

---

١ - هذه العبارة هي لفظ أستاذي الشيخ محمد الملاح الذي روى لنا القصة مرات عدة على مدى ملازمتنا للدرس في الفقه الحنفي حيث قرأ لنا حاشية ابن عابدين.

كانوا في فريق العمل : نحن نعلم أن الشيخ الزرقا من العلماء الأعلام والفقهاء الأفذاذ ولكننا عند الواقع رأيناه أعظم وأكبر مما كنا نعلم فعندما يعرض واحد من الفريق عمله يقرؤه الشيخ فيقول الشيخ : لم تشر إلى مصدر لهذه العبارة اكتب أن لهذه العبارة في باب كذا من كتاب كذا في مذهب مالك ويقول لذاك : أنت أتيت بهذه العبارة من باب كذا من كتاب كذا في مذهب أحمد ولقد سهوت بتبديل لفظة كذا والصواب كذا .. قالوا : أن الجميع الشيخ وكأنه استظهر الكتب الفقهية لكل المذاهب عن ظهر قلب .

تنقل الشيخ وكانت له إقامة وأنشطة العلمية في عدد من الجهات فقد درس في عدد من الجامعات منها الأردنية والسعودية والكويتية وحيثما حل تبوأ مكانته التي لا يناز عه فيها أحد ويشار إليه بالبنان وتكون الجهة التي يحل فيها عاصمة الفتوى في العالم الإسلامي .

للعلامة الزرقا أبحاث وردود كثيرة قرأت العديد منها ومن الردود ما قرأته مرارا مستمتعا بجزالة العلم وعمقه

وسنة الأدب العالي للعلماء وكان في موضوع شركات التأمين والأحكام المتعلقة بها حلاً وحرمة وكان ذلك بين العلامة الزرقا والعلامة الشيخ محمد أبو زهرة (١) وفيها ترى أدب الردود والخوفيه لا يحسنه إلا من يحسنه ومن الأبحاث ما كتبه الشيخ في موضوع أطفال الأنابيب وقد قرأت الموضوع تحت معالجات ثلاث لثلاثة من علماء المسلمين لكنني عندما قرأت بحث الشيخ بإطالة تناسب البحث لا أقول مملة بل

---

١ - الشيخ محمد أبو زهرة من أعلام علماء العالم الإسلامي زار سورية سنة ١٩٥٦ كما قرأت وشغفت بمؤلفاته التي تمتاز بالعلمية الحقة والغزيرة فقرأت كتاب المواريث فوجدت فيه ما لا عهد لي به وقرأت كتاب النصرانية ففهمتها ديناً وتاريخاً وطوائف وكنائس وقرأت له تراجم عدد من الأئمة فعجبت لبحثه وسعة اطلاعه والشيخ أستاذي في الأزهر وما كنت أفوت واحدة من محاضراته العامة التي يلقيها أحياناً في قاعة الإمام محمد عبده كان غزيراً في كل شيء حتى في النكتة التي تسري في دمه له مؤلفات كثيرة غنية جداً في موضوعها توفي الشيخ في أواسط السبعينات رحمه الله

الشيخ مصطفى الزرقا

أقول ممتعة جداً فهي إلى جانب كونها البحث الشرعي الذي نصل فيه إلى حكم فقهي في الواقعة فإنها ترشد بكل وضوح إلى أصول البحث والاستدلال والمنهج المتدرج الذي تجتمع منه الخطوط لتصل إلى النتيجة الحقة.

للشيخ مؤلفات عديدة إضافة إلى ما كتبه من أبحاث وردود وقد عني بجمعها الأستاذ أحمد مكي أحد تلامذته وملازميه ومحبي علمه ورأيت أنه عمله قيد الإعداد فاستبشرت وقلت لعلي أحظى بمؤلفات الشيخ جميعاً ووقعنا في الحرب الأهلية فانقطعت الوسائل الكثيرة ولا أدري إلى أين وصل جهد الأستاذ مكي

والمناسبة عندما كنت في سجن عدرا بدمشق كنت مسؤولاً عن المكتبة فيها وقرأت فيها ونقلت كتابة منها ما نقلت وهي مكتبة عامرة فيها سبعة آلاف مجلد بما في ذلك المكرر وما هو باللغات الأجنبية .. الخ وكان يوم الاثنين وأنا في المكتبة أنظر فهرس المؤلفين فوجدت إسم الشيخ العلامة الزرقا وبجانب اسمه إسم كتابه وهو (الوقف) وقد صنفوه خطأ مع الحقوقيات وتناولته مباشرة وتصفحته وضعته بين يدي وقررت نقله على دفتر لأنه لا يوجد تصوير في السجن

ولكن ماذا أفعل؟ غداً الثلاثاء سأمثل أمام القاضي لأجل الحكم فإذا كان الحكم بالحبس فسأخرج غداً من السجن ولن أستطيع الحصول على نسخة الكتاب فقلت كما قال سيدنا يوسف عليه السلام: رب السجن أحب إلي وذلك كي أنقل الكتاب ورجوت من ربي أن لا يصدر الحكم وأن يكون تأجيل جلسة الحكم شهراً بدل أسبوعين لكي أنقل الكتاب وقد استجاب الله دعائي لقد رأيت هذا الكتاب وأنا أقرأ وأنقل إلى دفتري وكأنني أقرأ أبحاث الوقف لأول مرة أو كمبتدئ فقد رأيت في كتاب الشيخ أحكام فقهاء الحنفية ورأيت فيه المنهج الذي يفتقر إليه الكثيرون ومع ذلك أقول بحسرة إن هذا الدفتر الذي نقلت الكتاب إليه هو في مكتبتي التي لا أدري ما حل بها.

• أحد كتب الشيخ خرج من الطباعة ويوماً كان يتصفح فوقع نظره على حاشية يشرح فيها عبارة: امرأة رؤود وقد في الحاشية جذر الكلمة ومعناها والكلمة لها جذران فهي تأتي من راد وتأتي من رود والكلمة وإن كان اشتقاقها من الجذرين يعطي المعنى لكن أخذها من أحد الجذرين

يعطي المعنى الأدق في هذا الموطن فأسف الشيخ لحصول وتأمل قليلاً فرأى أن أهدى كتاباً إلى عديدين لكنه اثنين منهم سيفقدان عندها الملاحظة أحدهما في حلب وهو الشيخ محمد الملاح فأرسل إليه رسالة وكان الشيخ الملاح وقف على الكلمة وفي نفس اليوم أرسل رسالة إلى دمشق للشيخ الزرقا قال لنا الشيخ الملاح وهو يبتسم: يمكن التقت رسالتانا مع بعضهما في حمص ثم إن الشيخ مصطفى ذهب في دمشق إلى الشخص الثاني وهو رئيس مجمع اللغة العربية ودخل إليه فقال: يا دكتور مصطفى رأيت في كتابك.. فقال الشيخ مصطفى مقاطعاً: امرأة رؤود وأنا جئت إليك لأنبه إلى سهوي.

أقول: آه على كتّاب اليوم وما في كتبهم.

رأيت الشيخ مرتين في حياتي أولاهما في أواخر الخمسينات وكنت شاباً صغير السن ذهبت إلى دمشق لأحد شؤوني وعندما استأذنت أبي طلب مني الذهاب إلى بيت الشيخ الزرقا لجلب القواعد الفقهية التي نقلها والد عمه الشيخ أحمد الزرقا والد الشيخ مصطفى وكان الشيخ قد

أخذ خمساً وخمسين قاعدة بخط والدي كان هو افتقدها من نسخة فاستعارها من والدي لينقلها وقد ذهبت إلى بيته في المهاجرين قبل القصر الجمهوري بمسافة قصيرة وقال لي الشيخ وقتها أنه لم ينته من نسخها وعندما ينتهي سيعيدها والمرة الثانية كنت وأبناء أعمامي نسير مع عمنا الشيخ الدكتور محمد خياطة يوم عيد لزيارة الأرحام جاوزنا المشفى الرازي ووصلنا أمام مدرسة اللاييك فأقبل عمي على كهل وسلم عليه بحرارة وبدورنا سلمنا على الرجل بما يناسب تحية عمي للرجل وتحادثا قليلاً وأنا أنظر إلى رجل لحية بيضاء خفيفة حاسر الرأس يلبس قميصاً بنصف كم لم يدخل قميصه داخل سرواله (بنطاله) بل تركه خارجاً وأعني هنا البساطة في اللباس وليس الأناقة فالرجل أنيق ولباسه حسن. وبت أنظر في وجهه وأقول: من هذا الذي قدم له عمي كل هذا الاحترام والتقدير؟ وأرددها في نفسي وأنا أنظر في وجهه هذا الرجل أعرفه لقد رأيته من قبل فمن هو؟ لم أتذكر.. وودعناه بالحفاوة التي قابلناه بها والتفت إلى عمي مباشرة وقلت من هذا يا عمي؟ قال: أما عرفته؟ قلت: إن وجهه ليس غريباً

الشيخ مصطفى الزرقا

قال: هذا هو العلامة الشيخ مصطفى الزرقا .. قلت في نفسي لقد رأيته دقائق معدودة في أواخر الخمسينات ونحن الآن في سنة ١٩٧٨ وقد مضى قرابة عشرين سنة فكيف لي أن أذكر. لقد رأيته في سمت العلماء الذي افتقدناه اليوم من أمسنا البعيد .

قال لي صديقي الحاج رياض شبيب أنا أذهب إلى الرياض دائماً وأحرص على زيارة الشيخ مصطفى قلت: أرجو أن تبلغه سلامي وتطلب منه أن يدعو لي بما يلهمه الله وهو لن يتذكرني ولكن قل له: محمد بن الشيخ عبد الرحمن خياطة يقرئك السلام ويطلب منك الدعاء ،،

تقدمت السن بشيخنا العلامة وألم به مرض لم يمهله كثيراً فكان آخر نفس لفظه في الرياض عاصمة المملكة السعودية وذلك في سنة ١٩٩٩ وكانت التعزية في بيت ابنته وذهبت مع صديق لي للتعزية فما وجدت سوى أربعة أشخاص عرفت منهم واحداً فقط هو ابن أخي الشيخ والآخرون لا أعرفهم أمن العائلة هم أم من غيرها وتمنيت لو أن أفراد العائلة كانوا موجودين على الأقل فأنا

أعرف عدداً منهم ولكن ... قلت لأكثر من واحد من العائلة:
كان المفروض أن تكونوا التعزية على مستوى الرجل العظيم
الذي قلما يجود الزمان بمثله لكن جعلتم التعزية على
مستواكم أنتم وصدق من قال: أجهل الناس بالعالم
أهله وجيرانه.

يرحم الله الفقيد فقيه الإسلامية العلامة الشيخ
مصطفى الزرقا الذي خلف أباه وجده فكان آخر العنقود
وكان الثلاثة - ولا ننسى - أعظم فقهاء الأمة الإسلامية
لأكثر من قرن كما قلنا يرحمهم الله جميعاً

الشيخ عبد الرحمن زين العابدين

عالم وأي عالم نادرة من نوادر الزمان
قل نظيره جامع بين العلم وأعني بالعمل إبداعه في
الصنائع إضافة إلى كونه صيادلاً وغيرها.

كان الشيخ أستاذي في الثانوية الشرعية وكنت أرى
فيه تميزاً عن الأساتذة الآخرين ولكل منهم خصوصيته

وتميزه فأنت ترى الزهور وتترك لكن قد تجذبك زهرة ما لريحها أو لونها أو شكلها لذلك كنت أرغب دروسه وسماع أحاديثه في الفرصة بين الحصتين إذ كان يجيب على سؤال أحدهم .

كان الشيخ أستاذ الفقه الشافعي وأنا حنفي لكنه أستاذ الجميع في النحو والصرف ومواد أخرى وقد كان شيخنا المرجع الأول في النحو والصرف للجميع وصادف أن الطلاب سألوه سؤالاً في النحو وكان ذلك في الفرصة بين الدرسين وما زال الشيخ جالساً على المنبر يجيبهم وهم متجمهرون حوله وقرع الجرس إيذاناً ببدء الحصة التالية ولم ننتبه جميعاً إلى صوت الجرس وكانت الحصة التالية للأستاذ عمر يحيى أستاذ الأدب العربي الذي ارتقى بعلمه إلى مدرس في كلية الآداب فيما بعد وهو شاعر له ديوان شعر مطبوع وقد قرأته جاء الأستاذ عمر ليدخل باب الصف فرأى الشيخ والطلاب حوله فرجع رآه الشيخ فعلم أن الحصة التالية بدأت فقال الشيخ : تفضل يا أستاذ ونزل عن المنبر باتجاه الباب فقال الأستاذ : أكمل أكمل قال الشيخ : لهم سألوا

منه كذا واجبتهم وانتهى الأمر فقال الأستاذ عمر : هذا السؤال بسيط جوابه كذا وانا واقف أمامها فقال الشيخ : لا يا أستاذ هذا فيه الخطأ فالجواب كذا وكذا بدليل كذا وكذا فقال الأستاذ عمر : هذا الكلام صحيح ما عرفته من قبل والله لو مت قبل لحظة لمت على جهل بهذه المسألة فجزاك الله خيرا .

جاء لزيارة الشيخ عدد من دكاترة الأدب العربي مع مضيفهم فاستقبلهم الشيخ بطبعه الذي اعتاده وهو أن لا يبدأ كلاما في أمر علمي بل يقتصر على المجاملة في الحديث وهو بذلك يفسح المجال للزائرين بطرح أسئلتهم واستفساراتهم وكأن اثنين منهم تصورا أن الشيخ أستاذ كالآخرين وكانوا يتحدثون مع بعضهم وهم أربعة أو خمسة والشيخ يستمع إليهم ودونما تدخل في الحديث ووصلوا إلى نقطة مهزوزة تقتضي استفسارا فقال لهم مضيفهم إلى الشيخ وهو دكتور أيضاً وزميل لهم : نسأل الشيخ وتوجه إلى الشيخ بالسؤال وكل غايته أن ينتقل الحديث إلى الشيخ فإذا تكلم فإنه يسر الآذان أن تصغي لغير حديثه وهكذا كان الأمر يبدو على خلاف ما كانوا يدرون في خلدهم فقد تكلم الشيخ مجيباً

فأجادوا فأفاضوا على مسامعهم بما لا عهد لهم به من قبل
فالشيخ ساحر؛ لسنة أيضاً يعقلها عن المشاركة في حديث سوى
السؤال والاستفسار لأن السامع عندئذ لا يجد سوى أن
يكون مستمعاً صامتاً. ولذلك فقد سكتوا وكأن على رؤوسهم
الطير ولم ينبس أحد منهم ببنت شفة إلا لسؤال أو استفسار
وكان إذا استشهد ببيت من الشعر ولا يعرفون قائله فإن
الشيخ كان يأتي باسم الشاعر مع ترجمة موجزة له ونماذج
من شعره فعجبوا من غزارة علمه وضلوعه في الأدب ومن
سعة علمه وحفظه. فسأله أحدهم: كم ديواناً من الشعر
عندك؟ فقال الشيخ: أربعة وخمسين ديواناً فقال: وكم تحفظ
قال: أربعة وخمسين ديواناً.. خرجوا من عند الشيخ وهم
يستأذنون بزيارات لاحقة.

قلت للشيخ يوماً - وكان في أواخر حياته - أرجو يا سيدي
أن تقرأ لي الفلسفة.. فأسهم قليلاً ثم قال: الآن؟ لو
أنك أتيتني قبلاً. وكان الشيخ مريضاً وعندما يتكلم لا يكاد
صوته يسمع من ضعفه. وكان الشيخ محمد أبو الخير طلب من
أخيه الشيخ عبد الرحمن أن يقرأ له الفلسفة فقال الشيخ عبد الرحمن

أنت لا تستطيع فهمها فاصبر عليه فقرأه الشيخ عدداً من الدروس توقف بعدها الشيخ أبو الخير قائلاً أنا فعلاً لم أستطع هضمها وبعد فترة زمنية قرر الشيخ أبو الخير العودة بإصرار فقال له الشيخ عبد الرحمن: لقد قلت لك إنك لا تستطيع وقد كان ذلك والآن أقول لك نفس الكلام فقال الشيخ أبو الخير هذه المرة إن لم أستطع فلن أعود إليها أبداً وقد كان ذلك وأقلع عن دراسة الفلسفة ولم يعد إلى طلبها للدراسة تذكرت هذه الواقعة وأنا مع شيخي الذي كنت لا أنقطع عن زيارته ولقائه وقد قلت في نفسي: لو أنني أتيت الشيخ قبلاً بطلبي هذا أتراني سأكون صامداً في دراسة الفلسفة التي أحب - ولي فيها قراءات وقراءات أم سأكون هارباً منها كما هرب أستاذي الشيخ محمد أبو الخير زين العابدين .. إن قصة الشيخ محمد أبو الخير مع أخيه الشيخ عبد الرحمن ذكرتني مع التباين بقصة:

موسى والخضر

وفيها أدب العلم يذكره لنا ربنا عز وجل بين عالم

ومتعلم في قصة موسى عليه السلام المعروفة وأن الله عز وجل
أمره أن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه وفي هذا مشروعية السفر
لطلب العلم وأنها من الأسفار المباركة ولولا أنها كذلك لما
أمر بها واحداً من الرسل أولي العزم وهو موسى عليه السلام
حيث يقول لغلامه: (آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا
نصبا قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما
أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال
ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا) إذن سافر موسى
عليه السلام للعلم وكان يبحث عن مكان الموعد المحدد مع
المعلم الخضر عليه السلام وهل هو نبي؟ خلاف في
الموضوع ورجح الأكثر عدم نبوته وأنه عبد صالح منحه ربهم
عند ربهم خصوصيات فالله يختص برحمته من يشاء ولكن
كيف يكون العبد الصالح أو على قول من قال بنبوته
أستاذاً ومعلماً لرسول من أولي العزم هو أعلى مقاماً
وأعظم منزلة وأرفع رتبة؟ ويجاب عن هذا بأن علم سيدنا
موسى عليه السلام إنما هو وحي نزل بتشريع إلهي للأمة منه
الأمم فهو علم تشريع وأحكام والهداية والتوحيد بينما علم

الخضر عليه السلام لدني مباشر بلا واسطة وقد قال الخضر عليه السلام (وما فعلته عن أمري) أي وإنما فعلته عن أمر ربي.

عندما التقاه موسى وهو المأمور باتباعه قال له موسى (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا) استأذن بالاتباع وهذا من الآداب الرفيعة لأنه وبالرغم من أنهما مأموران باللقاء كان موسى عليه السلام الطالب للعلم يستأذن من المعلم أن يسمح له بالاتباع ليتعلم منه.

أجاب الخضر عليه السلام: (إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) يقول الخضر عليه السلام إن لديك علماً أوتيته بوحي لهداية أمة وتلك سنة النبوة والرسالة والعلم الذي أتيت لطلبه هو في سنة أخرى فهو علم لدني بلا واسطة بل بأمر ووحي من رب العالمين وهذه أمور لها كنهها وليست مدركة ولذلك لن تستطيع معي صبراً لأنك صاحب سنة أحكام الظاهر أما سنة المكنونات فتلك لها أحكامها وفوق المشيئة الآمرة فنوع كل سنة له منطقه المباين ولكن موسى عليه السلام

يريد أن يتعلم والعلم يحتاج صبرًا لذلك قال له (ستجدني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرًا) ونرى في قوله هذا أن المتعلم ينبغي أن يكون مطيعًا لأستاذه لا يعصي له أمرًا لتحصل له الفائدة .

وكان الدرس الأول (حتى إذا ركبا في السفينة خرقها) الخضر فقال له موسى (أخرقتها لتغرق أهلها) فما زاد الأستاذ على أن ذكّره (ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرًا) فاعتذر المتعلم إذ اعترض على الفعلة لأنها في ظاهرها مخالفة شرعية وهو لا يسكت عن مخالفة شرعية وهذا ما جعله ينسى ما عاهد عليه من الصبر وعدم عصيان الأمر ولذلك قال موسى عليه السلام (لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرًا فانطلقا) .

الدرس الثاني : (حتى إذا لقيا غلامًا فقتله قال : أقتلت نفسًا زكية بغير نفس لقد جئت شيئًا نكرًا) والأمر لا خلاف في نكارته دينًا وعقلًا فشدد الخضر من لهجته قليلًا فقال : (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا) قال موسى عليه السلام بتواضع التلميذ المتلقي والتماس

المعتذر (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرًا فانطلقا).

الدرس الثالث (حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه) أي أعاد بناءه فقال له موسى (لو شئت لاتخذت عليه أجرًا) لأننا طلبنا منهم من الضيافة فلم يؤدوه وأنت بنيت الجدار لهم بلا مقابل؟ فلو أخذت أجرًا مقابل العمل قال الخضر (هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا).

ويعود إلى الدرس الأول فيقول: (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) هذا علمنا نحن أما علمك أنت فإن من يفعل ذلك يكون متعديًا ويضمن ما أتلف وهو ضرر مادي.

أما الدرس الثاني فهو أكبر لأنه جناية فيها قتل نفس قال (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرًا منه زكاة

وأقرب رحما) فربك هو الذي أراد أن يقتل هذا الغلام ليبدلهما خيرا منه فهذا الفعل بإرادة ربي وأما عملك أنت فيقول بأن هذا الفعل جريمة يعاقب مقترفها إذن فهو فعل جرمي .

أما الدرس الثالث قال (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك) فأنت نظرت نظرة العقل كيف تبني جداراً وتأخذ أجراً لقوم لم يقدموا لنا حق الضيافة ؟ لكن الله أراد حفظ مال اليتيمين لصلاح سلفهما (وما فعلته عن أمري) إنما كان ذلك عن أمر الله (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً) علل المعلم الأفعال التي قام بها أن ذلك كان بأمر الله وظهر في هذه القصة أن المناهج الإلهية إن اختلفت في ظاهرها فإن في باطنها الحكمة الحقة ولكن هل الكل مطلع على هذه الحكم؟ الجواب في هذه القصة واضح .

ونحن نرى فيها أدب العلم والعالم والمتعلم في أرفع مستوى إنساني وفيما ذكرناه كفاية .

لا آتي بجديد إذا قلت بأن الشيخ على جانب عظيم من الأدب والخلق و.. و.. الخ فهؤلاء هم الذين يعلموننا الأدب الجم والخلق الرفيع ومن هنا كانت بداية العلاقة لنقل - الشخصية - بيني وبين الشيخ فقد كنت يوماً والشيخ يقدم لنا درسنا فتكلم أثناءه من زملائي في المقعد الذي خلفي واحدثا تشويشاً فانزعج الشيخ وظن أنني السبب فقال: أخرج من الصف فقمت وأتيت إليه وقلت: يا سيدي لست أنا الذي صدر عنه ذلك فقال: أخرج من الصف قلت: أمرك سيدي وخرجت ويبدو أن زملائي بعد انتهاء الحصة قالوا للشيخ بأن خطأ قد حصل نحوي لم يكن منسبياً وإنما هما فلان وفلان في اليوم الثاني للشيخ درس علينا فتواريت في المدرسة ولم أحضر الدرس خجلاً من الشيخ لأن فكرته عني أنني مشاغب وأنا لا أتحمل نظرة واحدة إلي من عالم عظيم جليل إذا كان يحمل عني هذه الفكرة بعد الدرس جاء الشيخ إلى غرفة والدي في المدرسة وقص له القصة وفي البيت قال لي والدي: لماذا لم تحضر درس الشيخ عبد الرحمن قلت: القصة كذا قال: لا يجوز أن تتغيب عن أي درس وخاصة دروس الشيخ عبد الرحمن قلت: إن شاء الله

في اليوم التالي لم أحضر درس الشيخ وفي البيت سألني والدي عن السبب في عدم الحضور، فقلت يا أبي أنا والله أخجل من هذا الإنسان الجليل أن أكون أمام ناظريه وهو يحمل هذه الفكرة عني ولن أحضر له درساً حتى آخر السنة وسأتحاشى أن أقع تحت نظره فقال: يا بني لقد جاء إلي الشيخ اليوم وقال لي بأنك لم تحضر الدرس وكان رفاقك قد صححوا الواقعة له وقد قال لي الشيخ: إذا كان محمد زعلان مني لأنني أخرجته من حصة الدرس فأنا مستعد للاعتذار منه فقلت: أنت تعتذر منه؟ بل هو الملزم أن يقبل رجلك فأنت أستاذه قلت: يا أبي بل أقبل نعله فهو أستاذي وأعدك أن لا أفوت درساً من دروسه وكان برنامج الشيخ عندنا حصة في كل يوم ويوم الثلاثاء حصتان جئت في اليوم الثاني وانتظرت مقدم الشيخ خارج الصف وقبلت يده وقلت بأن امتناعي هو الخجل منه فقال إن رفاقك بينوا لي.. الخ

هذه الواقعة أيقظت في نفسي المقولة السائدة ما تواضع عبد إلا رفعه الله ونظرت إلى هذا العالم الكبير يتواضع لدرجة أن يعرض الاعتذار من طالب فتى لقد صدق الشاعر

حيث قال :

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على طبقات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... إلى طبقات الجو وهو وضيع

إن الشيخ لم يخسر بكلمته هذه شيئاً من كبريائه بل إن تواضعه هذا رفعه أكثر وجعلني أنظر إليه بعين التجلة والإكبار أكثر وأكثر ولا غرو فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم .

بكل الصراحة لقد جعلني الشيخ أسيره فكنت أختلف إليه للزيارة لا أفتر وربما زرته شهرا مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع الواحد .

رغم كل العلم الذي آتاه الله إياه فإن الشيخ لم يكن يحب أن يقف خطيباً ولم يكن كذلك ولو لمرة واحدة وقد صادف أن خطيب الجمعة لم يأت فالتفتت الأنظار إلى الشيخ فهو المعمم الوحيد في المسجد وهذا يعني أنه عالم وفي المسجد كثير ممن على معرفة بالشيخ ومكانته العلمية وتوجهوا إليه بالطلب طبعاً لكنه رفض وأبى واعتذر مصراً فصعد أحد الحاضرين وألقى خطبة وتقدم الشيخ للإمامة وهل يكون تقديري صحيحاً إذا قلت إن السبب لكون صوت الشيخ ضعيف جداً ؟ ربما يكون ذلك

للشيخ اهتمامات شخصية وهوايات راقية منها الصيد وقد روى لي ابن سيف الدين أنه عندما ولد الشيخ أمسكت به القابلة وقالت هذا هو الصياد فكان كما قالت فهل هي الفراسة ؟ ربما وإلا فماذا تسمونه ؟

شغف الشيخ منذ صغره بالحيوانات وتربيتها وقد حكى لي الشيخ أنه كان دون العشر ولديه قطة رباها فتعلقت به وتعلق بها وصادف سفر لأسبوع فأوصى بها كثيراً وبعد سفره استوحشت لغيابه فانزوت على رفراف لا تكاد تأكل أو تشرب وهي تصدر مواءً موحشاً وكأنها تناديه وظهرت عظامها وخارت قواها وذهب شيء من شعرها قال الشيخ : وعندما عدت كنت مشتاقاً لرؤية هرتي وما أن دخلت البيت ورأتني حتى ألقت بنفسها من فوق الرفراف وتعلقت بي وهي تموء فاستنكرت حالها الذي آلت إليه فأخبروني بالذي حصل فأتيت بطعامها وصنعته لها فأكلت .. وأكلت قال الشيخ : أتعرف لماذا فعلت ذلك ؟ قلت : لا يا سيدي قال : عندما أربي قطاً أو طائراً مثلاً أضعه صغيراً على صدري بين القميص واللحم أوقاتاً طويلة فيشم رائحتي وينشأ على ذلك فيعتبرني كأمه

قلت : يا سيدي إذا كان الحيوان لا يقبل أن يكون عاقاً فكيف يقبل الإنسان ثم أي وفاء هذا الذي لم يُضيعه حيوان وقد أضاعه كثير من الناس .

الطَبعُ وَالتَطبُع

كان بيت الشيخ في الإسماعيلية له حديقة صغيرة وجاء إلى الشيخ زائراً العلامة الشيخ مصطفى الزرقا ومعه عدد من العلماء وقد اختلفوا في موضوع الطبع والتطبع وأيهما الغالب فرأى الشيخ مصطفى أن يأتي بهم إلى زيارة الشيخ عبد الرحمن لأنه حيادي وهو الذي يفهم الحيوانات وطباعها أكثر من الآخرين ولدى جلوسهم قال العلامة الزرقا للشيخ عبد الرحمن أتينا لنسألك سؤالاً اختلفنا فيه فطالبه الشيخ مرحباً بهم ..

فُتح الباب ودخل كلب وجعل يقف أمام الضيوف واحداً بعد واحد يرفع أماميته بالتحية .. ثم إنه تمدد في وسط الغرفة .. طبعاً قال الشيخ عبد الرحمن إنه يحيي الضيوف هكذا ثم دخل قط ففعل مثلما فعل الكلب .. ثم إن القط اضطجع على الأرض

ورأسه على بطن الكلب. ثم دخل طائراً شقّ ورفرف أمام كل واحد من الضيوف ثم حطّ فوق الكلب المضطجع.

قال الشيخ عبد الرحمن: انتهت مراسم التحية فما قولكم بالسؤال؟ فقالوا: قد حصلنا على الجواب. فقطن الشيخ وقال: لا .. إن الطبع أصل والتطبع طارئ وقد رأيتم هذه الحيوانات المتعادية طبعاً فالكلب ضد الهر وهما يأكلان الشقّ وغيره من الطيور عادة ومع ذلك فهي متآلفة كما ترون ويمكنني إعادتها إلى طبعها بسهولة ولكن لا أفرط بها.

ثم قص الشيخ لهم الحوار بين ملك ووزيره وكان رأي الملك أن التطبع يغلب الطبع بدليل أنهم علموا عدداً من الهررة على حمل الشموع والوقوف على مائدة طعام الملك في المساء لإنارتها للآكلين وأمامهم ألوان الطعام ما لذ منه وطاب. فقال الوزير: غداً نجلس على الطعام مساء وأريك الدليل. وجلسوا حول المائدة وكل سنور يمسك شمعة كالعادة فأخرج الوزير من كمه فأراً وألقاه على المائدة فألقت السنانير شموعها ولحقت بطارد الفأر.

زرت الشيخ يوماً في بيته في الاسماعيلية ودخلت غرفته التي يستقبل فيها زواره فوجدت في زاويتها لمقداره أقل من قامة إنسان من اللوازم الشخصية للصيادين من أحذية بساق طويل (جزمة) وجعب وجربنديات وأحزمة ومسادي.. وهي كميات كبيرة كمقتنيات صياد واحد لكن غلبة الهواية لها فعلها

وقد سأله أحد الطلبة يوماً: هل الصيد صعب؟ فقال: لا فأنا أضع هدفاً ورائي وأضع البندقية على كتفي وأنظر إلى الهدف بمرآة أمامي وأضرب الهدف فأصيبه فهل هذا صعب؟

وكنت يوماً عند الشيخ جالساً للتو فحضر الشيخ نجيب مصري(١)

١- الشيخ نجيب مصري هو ابن الشيخ أحمد المصري حافظ للقرآن الكريم وهو من طلبة العلم الشرعي أسس رابطة أسماها (رابطة العلماء) لا أعرف أن لها عملاً سوى الإسم وله صلاته مع الجهات الأمنية عمل من خلالها على إحقاق الحق وكان شاهد صدق أنقذ مظلومين أذكر منهم الشيخ صلاح ابن الشيخ عبد الرحمن زين العابدين والشيخ صلاح زميل دراستي

ومن صديق له من المشايخ أعرفه ولا أعرف إسمه والرجل قروي وكان حديث الليلة عن الصيد بدأه صديقه الشيخ نجيب وكعادة الشيخ عبد الرحمن يصغي للحديث ولا يتكلم إلا إذا سئل وعندئذ لا يترك زيادة لمستزيد وكان الشيخ الضيف قد استرسل في حديثه قليلاً وتكلم عن نوع من الطيور وكيف يأتي في وقت الهجرة والمعهود منه في طيرانه وفي سكونه وفيما إذا أصيب .. الخ ثم إنه سكت .

أراد الشيخ نجيب مصري أن يتسلم الشيخ عبد الرحمن الحديث فقال : يا سيدي معنى ذلك أن الطيور لها طبائع تختلف باختلافها طالما أن هذا الطير له هذه الطباع وتسلم الشيخ الحديث فقال

وأعرفه نقياً لا علاقة له بغير عمله وبيته والشيخ نجيب إنسان شهم ومتواضع وكثير الإحترام والتقدير للآخرين ولا يألو جهداً في خدمة من يقصده لكن خلاله الطيبة الكريمة التي جعلته شفيعاً للآخرين لم تكن لتشفع له عند الذين قتلوه غيلة في أحداث الثمانينات وذلك في سنة ١٩٨٢ وربما ١٩٨٣ رحمه الله تعالى .

الطيور لها طباع تختلف باختلافها لكن بالنسبة للطير الذي سمعنا الحديث عنه الآن فإن هناك خلطاً بين نوعين من الطيور تشبه بعضها كثيراً حتى أن الناس يعرفونها باسم واحد ولا يفرقون بينها والنوعان لكل منهما الطباع والخصائص فأحدهما وسماه وذكر خصائصه والثاني وسماه وذكر خصائصه ثم قال: ولكي نميز أحدهما عن الآخر بسهولة من مظهره فإن النوع الفلاني له خط رفيع تحت رقبته يغاير لون ريشه و . . . واسترسل في الكلام عن النوعين في أحوالها .. قلت في نفسي: سبحان الله يبدو أن هذا الطائر وحده يمكن أن يستغرق مؤلفاً .. ثم عقب الشيخ مكرراً قول الشيخ الضيف بقوله نحن أهل برية ونعرف وجوه أن أهل البرية يرون فقط ولا يعرفون والذي يعرف البعض من الصيادين فقط وليسوا جميعاً .. وظل الحديث عن الطيور والحيوانات والصيد وما يتعلق بذلك من النوادر ..

فوجئنا بالساعات تقرع مؤذنة بانتصاف الليل وهذا يعني أن الحديث استغرق أربع ساعات ووجب الاستئذان فنهضنا ونهض الشيخ وعندما أردنا الخروج من الغرفة وقفنا أمام ثلاث قطع من أسلحة الصيد (جفت) معلقة وهي

نفيسة هذا حسب درايتي وهي مليئة بالفضة المحفورة بالزخرفة الرائعة فقال الشيخ نجيب: ما هذه القطع يا سيدي؟ فقال الشيخ: هذه تحتاج إلى حجلة خاصة وكانت ابتسامة إعجاب واعتبار مرتسمة على أفواه الجميع.

كشغفه بالصيد كان الشيخ شغوفاً بالأسلحة وكونه بارعاً بالصنائع اليدوية وعمليات الإصلاح التي تقتضي البراعة في استخدام المسح والخبرة والبراعة في أعمال التقنية والميكانيكا فإنه كان من هواة إصلاح الأسلحة فقد كان ينفق الكثير من الوقت لإصلاحها سيما النفيسة منها وأعرف من القطع في ذلك العديد.

ومن شغفه ومحبته للسلاح طلبت الدولة يوماً عندما أحداث مرت بالبلاد أن يسلم كل مواطن سلاحه إذا كان لديه سلاح والمقصود الأسلحة المرخصة وكان عند الشيخ مسدس وبندقية فقام الشيخ بغسلها ووضع لها الشحم المناسبة ولف كلاً منهما بالشاش وبعض اللفة والأخرى يضع الشحم ووضع النايلون .. الخ وسلمها إلى المخفر فتعجبوا لهذا الحرص النابع من المحبة وقالوا: نحن لم نجد أحداً يحب السلاح مثلك أو لهذه الدرجة

تحب السلاح ؟ قال : نعم كأولادي .

وبراعة الشيخ في الإصلاح ليست مقتصرة على السلاح بل هو معروف ببراعته في إصلاح الساعات بأنواعها وله في إصلاحها قصص تصل إلى مانتصوره إعجازاً كإحياء الموتى وهذا ضمنه الملاحي ومعرفتي حيث أنني عملت بإصلاح الساعات نحواً من ثلاثين سنة .

بعض الحضور عند الشيخ والحديث جار قال أحدهم فلان معلم يشق الشعرة - كناية عن براعته - فقال له آخر : هذه الكلمة سائدة على الألسن أنت رأيك هل من أحد يشق الشعرة؟ قال : لا أدري وبعد قليل قال الشيخ وهو ممسك بشعرة من طرفها وهو يفركها بإصبعه لتدور فنظروا إلى الشعرة فوجدوا أن الشيخ قد شقها إلى وسطها شطرين وعند دورانه الشعرة بين أصبعي الشيخ ينفتح شقاها .

في زيارة اثنين من الصيادين البارعين لكنهما من العوام للشيخ طرح أحدهما سؤالاً على الشيخ قال الشيخ احترت كيف سأجيبه وأردت صرف ذهنه ولكنه يعيد السؤال مصراً على الإجابة والسؤال التالي : شيخي الإمام عندنا

في الحارة أعرج وفاسودي فهل تصح الصلاة وراءه؟ وفي حيرتي بإعطاء جواب حسب فهمه كان صاحبه يفكر في هذه المسألة ثم هداه تفكيره فالتفت إلى صاحبه وقال: ما فيها شيء، الله قال: ليس على الأعرج حرج فقال السائل: والله صحيح صدق الله العظيم قال الشيخ: لقد أنقذني بجوابه هذا الذي أقنعه كيف وهو كلام الله تعالى.

أقول: العامة تحتاج الى خطاب حسب أفهامها المتباينة وقد هدانا عليه الصلاة والسلام إلى ذلك بقوله: خاطبوا الناس على قدر عقولهم فهو أجدر ألا يزدروا نِعَمَهُم.

وأنا أسير بجانب الشيخ حول القلعة باتجاه بيته وفي الحديث قال لي: أنت خطك ممتاز لقد أردت تعلم الخط عندما كنت صغير السن في اسكندرونه وذهبت إلى الأستاذ الخطاط ... ـ ذكر الشيخ اسمه لكني نسيته ـ وكتب لي سطراً وقد تابعت كتابة السطر أربع سنوات ثم تركت لأنني قلت في نفسي إذا كان السطر الواحد لم يصح بأربع سنوات فإن كل الأسطر حتى تصح تحتاج مني الكتابة إلى يوم القيامة ثم قيل لي فيما بعد: إن هذا الخطاط طبعه هكذا فاذهب إلى غيره فقلت:

كيف وقد قررت التخلي عن دراسة الخط .

كان الشيخ عالماً موسيقياً ولكنه لا يريد أن يعرفه أحد بذلك وكانت له جلسات خاصة جداً مع الشيخ عمر البطش (١)

---

١ - الشيخ عمر البطش ملحن حلب الأكبر وشيخ ملحني العصر بلغت ألحانه نحواً من مائة وخمسة وأربعين لحناً كلها أحصيتها وتعتبر في مرتبة القمة من حيث الصنعة الفنية والجمالية الموسيقية وقد قصده محبوه وعارفوا مكانته من الجهات المختلفة فمثلاً كان الأستاذ زهير منيني الدمشقي ابن الشيخ محمود يأتي من دمشق إلى حلب فيقضي فيها العيدين عند الشيخ عمر البطش يتلقى عنه موشحات من ألحانه ومن محفوظاته وكثر تلامذة الشيخ كثيراً عندما ذهب إلى دمشق مدرساً في المعهد الموسيقي وفي زيارة الملحن العظيم محمد عبد الوهاب إلى حلب التقى بالشيخ عمر وكان فيما قال للشيخ : أنا لم أسمع موشحاً من مقام الهزام الخالص فقال الشيخ : غداً تسمع وفي ليلتها لحن وصلة من الهزام - وهو من فروع مقام السيكا - وحفظتها البطانة وسمعها محمد عبد الوهاب فأعجب بها أيما إعجاب وقد أخذ الشيخ كلماتها من حنك وفيه أن لحنها الهزام ولكنه ←

شيخ الملحنين وشيخنا يعزف على الكمان والشيخ عمر يؤدي والموضوع مدارسة للموسيقا ومقاماتها فهي جلسة علمية.

في نفسي سؤال أريد طرحه على الشيخ لكني عندما أكون على انفراد دخلت بيت شيخي وبعد بعض الأحاديث الصغيرة وكانت الساعة الثامنة مساءً تقريبًا وكان السؤال من الذي اخترع آلة القانون؟ فذكر لي بأن الأصل فيه يوناني فقد وضعوا وترًا واحدًا يمكن التحكم بأطوال الرحمن مسافات تحدد لمعرفة المقامات وضبطها ثم أتى من طوره إلى ما صار عليه الآن وكان ذلك مع بعض القصص والكثير من النوادر الحاصلة في مراحل التطور. وقد ذكرت إجابة سيدي تفصيلًا في كتابي عن الموشحات والأشغال والتراجم. أيضًا سمعت الساعات تضج

غير معروف لعدم وجود نوته له ومطلع الوصلة لهو:

رمى قلبي رشا أحور بأهداب العيون السود

ومعسول اللمى كوثر ولكن ليس بالمورود.

وقد دونتها في كتابي عن الموشحات .. توفي الشيخ عمر البطش سنة ١٩٥٢ رحمه الله وزرت قبره في مقبرة الكلاسة.

وشدوه وتطهر وتنقد تخبر بانتصاف الليل أنا أعرف أن الوقت طويل جداً في بعض الأحيان لكن العجب أنه قصير جداً جداً مع الشيخ .

كان سيف الدين ابن الشيخ يستمع إلى محطة تركية تعزف مقطوعة موسيقية ومر الشيخ وسمع طرفاً منها فسأل ابنه ما هذه النغمة؟ فقال: كذا قال: أنت لا تفهم هل النغمة التي ذكرت تأتي من هذا المقام؟ قال: لا قال الشيخ: إذاً فهي عقد من نغمة أخرى إما أن تكون نغمة كذا أو نغمة كذا قال سيف الدين فأصغيت فكانت .

لكن كنت سألت الشيخ عن القانون وغيره فأجابني إلا أنني كنت أطمح إلى الاستمداد أكثر فحاولت أن أسأل من طرف عن نشاطه الشخصي في الموسيقا فلم أفلح لأن هذا الجانب كان قد أسكنه عليه أقفال غلاظ وقد كتب على الباب ممنوع الدخول أو الاقتراب من عالم

الموسيقا

قرأت لبعض من علماء الأمة وهم يرمون الموسيقا

ورأيت العكس عند البعض الآخر فمنهم علماء موسيقى فقط ومنهم موسيقيون أي عازفون بل سمعت مغنّي حلب الشيخ الشيخ القادري في حلب الأستاذ نديم الدرويش خطأً وقع فيه سهواً .

في الموضوع نصوص وأقوال علماء لا تخلو عادة من مد وجزر وليس فيهم المتهم في الخلاف وإنما المنشأ هو الفهم من معطيات اللغة وثبوت صحة الرواية أو ضعفها .. الخ مما هو معلوم من أدوات البحث .

وربما قدموا ما ورد في صحيح البخاري

(١) عن عبد الرحمن بن غُنْم قال : حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ليكونن من أمتي قوم يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف .

(٢) وفي لفظ ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها يُعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير . رواه ابن ماجه عن أبي مالك الأشعري .

(٣) وعن نافع أن ابن عمر سمع صوت زمارة راعٍ فوضع

اصبعيه في أذنيه وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول : يا نافع تسمع؟ فأقول نعم فيمضي حتى قلت لا فرفع يده وعدل راحلته إلى الطريق وقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع زمارة راع فصنع مثل هذا . رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه

قوله : والمعازف جمع معزفة وهي آلات الملاهي
ونقل القرطبي عن الجوهري أن المعازف الغناء والذي في صحاحه أنها اللهو وقيل صوت الملاهي .
وفي صحاح الدمياطي المعازف الدفوف وغيرها مما يضرب به ويطلق على الغناء عزف وعلى كل لعب عزف .
في حديث نافع مع ابن عمر قوله : فصنع مثل هذا .. فيه دليل على أن المشروع لمن سمع الزمارة أن يصنع كذلك واستشكل اذن ابن عمر لنافع بالسماع .. ويمكن إن ذاك لم يبلغ الحلم وسيأتي بيان وجه الاستدلال به والجواب عليه .

٤ وعن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف فقال رجل من

المسلمين يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال: إذا ظهرت القيان والمعازف وشربت الخمور. رواه الترمذي

(٥) وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله بعثني رحمة وهدى للعالمين وأمرني أن أمحق المزامير والكبارات يعني البرابط والمعازف والأوثان التي كانت تعبد في الجاهلية. رواه أحمد

قوله: الكبارات قال في القاموس .. والطبل جمع كبار وأكبار. اهـ والبربط العود قال في القاموس البربط كجعفر معرب بربط أي صدر الاوز لأنه يشبهه. اهـ

وقد وضع جماعة من أهل العلم في ذلك مصنفات لكنه ضعفها جميعاً بعض أهل العلم حتى قال ابن حزم إنه لا يصح في الباب حديث وكل ما فيه موضوع.

وقد اختلف في الغناء مع آلة من آلات الملاهي وبدونها فذهب الجمهور إلى التحريم مستدلين بما سلف وذهب أهل المدينة ومن وافقهم من علماء الظاهر وجماعة من الصوفية إلى الترخيص في السماع ولو مع العود

واليراع.

وقد حكى أبو منصور البغدادي الشافعي في مؤلفه في السماع أن عبد الله بن جعفر كان لا يرى بالغناء بأساً ويصوغ الألحان لجواريه ويسمعها منهن على أوتار وكان ذلك في زمن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه.

وحكي أيضاً مثل ذلك أيضاً عن القاضي شريح وسعيد ابن المسيب وعطاء بن أبي رباح والزهري والشعبي.

وقال إمام الحرمين في النهاية وابن أبي الدم: نقل الأثبات من المؤرخين أن عبد الله بن الزبير كان له جوار عوادات وأن ابن عمر دخل عليه وإلى جنبه عود فقال: ما هذا يا صاحب رسول الله؟ فناوله إياه فتأمله ابن عمر فقال: هذا ميزان شامي قال ابن الزبير يوزن به العقول.

وروى الحافظ أبو محمد بن حزم في رسالته في السماع بسنده إلى ابن سيرين قال: إن رجلاً قدم المدينة بجوار فنزل على عبد الله بن عمر وفيهن جارية تضرب فجاء رجل فساومه فلم يهو فيهن شيئاً فقال: انطلق إلى رجل هو أمثل لك بيعاً من هذا قال: من هو؟ قال: عبد الله بن جعفر فعرضهن عليه فأمر جارية منهن

فقال لها: خذي العود فأخذته فغنت غنايته ثم جاء إلى ابن عمر .. إلى آخر القصة .

وروى صاحب العقد أبو عمر الأندلسي أن عبد الله بن عمر دخل على أبي جعفر فوجد عنده جارية في حجرها عود .. ثم قال لابن عمر هل ترى بذلك بأساً ؟ قال : لا بأس بهذا .

وحكى الماوردي عن معاوية وعمرو بن العاص أنهما سمعا العود عند ابن جعفر .

وروى أبو الفرج الأصبهاني أن حسان بن ثابت سمع من عزة الميلاء الغناء بالمزهر بشعر من شعره . وذكر أبو العباس المبرد نحو ذلك . والمزهر عند أهل اللغة العود .

وذكر الأدفوي أن عمر بن عبد العزيز كان يسمع من جواريه قبل الخلافة .

ونقل ابن السمعاني الترخيص عن طاوس . ونقله ابن قتيبة وصاحب الإمتاع عن قاضي المدينة سعد بن ابراهيم بن عبد الرحمن الزهري من التابعين . ونقله أبو يعلى الخليلي في الإرشاد عن عبد العزيز بن سلمة الماجشون مفتي المدينة .

وحكى الروياني عن القفال أن مذهب مالك بن أنس

إباحة الغناء بالمعازف .

وحكى أبو منصور والفوراني عن مالك جواز العود .

وحكى الفضل بن طاهر في مؤلفه في السماع أنه لا خلاف بين أهل المدينة في إباحة العود قال وإليه ذهبت الظاهرية قاطبة .

قال ابن النحوي : وقد روي الغناء وسماعه عن جماعة من الصحابة والتابعين :

فمن الصحابة عمر كما رواه ابن عبد البر وغيره وعثمان كما نقله الماوردي وصاحب البيان والرافعي وعبد الرحمن ابن عوف كما رواه ابن أبي شيبة وأبو عبيدة بن الجراح كما أخرجه البيهقي وسعد بن أبي وقاص كما أخرجه ابن قتيبة وأبو مسعود الأنصاري كما أخرجه البيهقي وبلال وعبد الله بن الأرقم وأسامة بن زيد كما أخرجه البيهقي أيضاً وابن عمر كما أخرجه ابن طاهر وعبد الله بن الزبير كما نقله أبو طالب المكي وحسان كما رواه أبو الفرج الأصبهاني والمغيرة بن شعبة كما حكاه أبو طالب المكي وعمرو بن العاص كما حكاه الماوردي .. وغيره

وأما التابعون فسعيد بن المسيب وسالم بن عمر وابن حسان
وخارجة بن زيد وشريح القاضي وسعيد بن جبير وعطاء بن
أبي رباح ومحمد بن شهاب الزهري وعمر بن عبد العزيز وأما
تابعوهم فلهم لا يحصون منهم الأئمة الأربعة وابن عيينة وجمهور
الشافعية. اهـ كلام ابن النحوي.

واختلف هؤلاء المجوزون فمنهم من قال بكراهته ومنهم
من قال باستحبابه قالوا لكونه يرق القلب ويهيج الأحزان
والشوق إلى الله.

قال المجوزون: ليس في كتاب ولا في سنة رسوله ولا
في معقولها من القياس والاستدلال ما يقتضي تحريم مجرد
سماع الأصوات الطيبة الموزونة مع الآلات.

وأما المانعون من ذلك فاستدلوا بأدلة منها الحديث
رقم ١ الذي مالك أو أبي عامر وأجاب المجوزون عنه
بأجوبة منها أنه مضطرب سنداً ومتناً أما الإسناد فللتردد
من الراوي في اسم الصحابي وأما متناً فلأن في بعضه
الألفاظ يستحلون وفي بعضها بدونه.
وقالوا إن لفظة المعازف التي هي محل الاستدلال ليست

عند أبي داود .

وأجاب المجوزون أيضاً على الحديث الشريف المذكور

من حيث دلالته فقالوا لا نسلم دلالته على التحريم وأسندوا لهذا

المنع بوجوه :

منها أن لفظة يستحلون ليست نصاً في التحريم فقد ذكر أبو

بكر بن العربي لذلك معنيين :

أحدهما : أن المعنى يعتقدون أن ذلك حلال .

الثاني : أن يكون مجازاً عن الاسترسال في استعمال

تلك الأمور .

ويجاب بأن الوعيد على الاعتقاد يشعر بتحريم الملابسة

بفحوى الخطاب وأما دعوى التجوز فالأصل الحقيقة ولا

ملجئ إلى الخروج عنها .

وثانيها أن المعازف مختلف في مدلولها كما سلف وإذا

كان اللفظ محتملاً لأن يكون للآلة ولغير الآلة لم ينتهض

للاستدلال لأنه إما أن يكون مشتركاً والراجح التوقف فيه

أو حقيقة أو مجازاً ولا يتعين المعنى الحقيقي .

ويحتمل أن تكون المعازف المنصوص على تحريمها هي

المقترنة بشرب الخمر كما ثبت في رواية بلفظ ليشربن أناس من أمتي الخمر تروح عليهم القيان وتغدو عليهم المعازف .

ويجاب بأن الاقتران لا يدل على أن المحرم هو الجمع فقط.

قال وقد يكون المراد بستحلون مجموع الأمور المذكورة فلا يدل على تحريم واحد منها على الانفراد .

ويجاب بأن الأحاديث المذكورة يوجد كلام في أسانيدها .

ويجاب بأنها تنتهض بمجموعها لا سيما وقد حسن بعضها فأقل أحوالها أن تكون من قسم الحسن لغيره .

والأحاديث في هذا كثيرة قد صنف في جمعها جماعة من العلماء كابن حزم وابن طاهر وابن ابي الدنيا وابن حمدان الاربلي والذهبي وغيرهم .

وقد أجاب المجوزون عنها بأنه قد ضعفها جماعة من الظاهرية والمالكية والحنابلة والشافعية وقد تقدم مذهب ابن حزم ووافقه أبو بكر بن العربي في كتاب الأحكام وقال: لم يصح في التحريم شيء وكذلك قال الغزالي وابن النحوي في العمدة وهكذا قال ابن طاهر انه لم يصح منها حرف واحد

والمراد المرفوع منها .

كما روي عن ابن عباس وابن مسعود في تفسير قوله تعالى:

ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله .. أنها

في اللهو قال ونص الآية يبطل احتجاجهم لقوله تعالى: ليضل

عن سبيل الله ولهذه صفة من فعلها كان كافراً ولو أن شخصاً

اشترى مصحفاً ليضل به عن سبيل الله ويتخذها هزواً لكان كافراً

فهذا هو الذي ذم الله وما ذم من اشترى لهو الحديث ليروح

عن نفسه لا ليضل به عن سبيل الله .

قال الفاكهاني : لا أعلم في كتاب الله ولا في السنة حديثاً

صحيحاً صريحاً في تحريم الملاهي وإنما هي ظواهر وعمومات يتأنس

بها لا أدلة قطعية .

ومن جملة ما استدلوا به حديث : كل لهو يلهو به المؤمن

فهو باطل إلا ثلاثة ملاعبة الرجل أهله وتأديبه فرسه

ورميه عن قوسه . قال الغزالي : قلنا قوله صلى الله عليه

وسلم فهو باطل لا يدل على التحريم بل يدل على عدم

الفائدة . أهـ

وهو جواب صحيح لأن ما لا فائدة فيه من قسم المباح

على أمه التلهي بالنظر إلى الحبشة ولهم يرقصون في مسجده صلى الله عليه وسلم كما ثبت في الصحيح لهو خارج عن تلك الأمور الثلاثة

وأجاب المجوزون عن حديث ابن عمر المتقدم في زمارة الراعي أنه حديث منكر وأيضاً لو كان سماعه حراماً لما أباحه النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمر ولا ابن عمر لنافع ولنهى عنه وأمر بكسره لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز .

وأما سده صلى الله عليه وسلم لسمعه فيحتمل أن تجنبه كما كان يتجنب كثيراً من المباحات كما تجنب أن يبيت في بيته درهم أو دينار وأمثال ذلك .

لا يقال يحتمل أن تركه صلى الله عليه وسلم للإنكار على الراعي إنما كان لعدم القدرة على التغيير لأنا نقول ابن عمر إنما صاحب النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة بعد ظهور الإسلام وقوته فترك الإنكار فيه دليل على عدم التحريم .

وقال المجوزون أيضاً إن هناك ملاحظة ما هو محرم لذاته وما هو محرم لغيره ولذلك قال في الحديث

الأول إن الحر والحرير والخمر محرمة نصاً أما المعازف فلا نص يعول عليه في الحرمة وإنما كانت الحرمة باجتماع الأربع إذ أنها لا تجتمع إلا في فجور والمعازف محرمة إذا وجدت بصحبة محرم أو أذكته لأن ما يفضي إلى محرم فهو محرم ولفظ المعازف كما تقدم لفظ مشترك .

لا أقر حكماً في الموضوع وإنما هي أقوال علمائنا وقد رأيت في مؤلفاتهم خلافاً بيناً فمنهم من يحكم بالحرمة ومنهم غير ذلك وربما يسوغ لي ذكر واقعة دعوة على الغداء عند أحد أصدقائي وكنا نحواً من خمسة وعشرين شخصاً منهم تسعة عشر عالماً من علماء حلب وفيهم البعض من أساتذتي وفي العلماء من له الحضور والاجتماعي الكبير كان ذلك بعد صلاة الظهر .

قال الصديق صاحب البيت والعود بيده عند الحضور إلى المائدة ما قولكم لو اتصلنا بفؤاد خانطوماني(1) وفرقته

---

1 - فؤاد خانطوماني : أبو رشيد منشد صاحب صنعة عظيمة ظل على منهج الإنشاد كل حياته رغم مروره ببعض من الفترات

فقالوا: لا بأس وكان أن جلسنا بعد الطعام نستمع إلى فؤاد
وفرقته إلى منتصف الليل ما نقوم إلا للصلاة ونحن نسمعه
يصدح بالموشحات والقصائد الرائعة وفي فرقته قانون شكري
الانطاكلي وعود محمد أبو الرهول وكمان ين وإيقاع وعنده

اشتغل فيها بالعمل مصاحباً للآلات في الحفلات إلا أن منبته
الديني ونشأته على ذلك جعلته يرجع إلى الإنشاد كلما ابتعد
عنه قليلاً وكم وكم زار في أبو رشيد للاستماع إلى النوادر
وعندما مرض الشيخ عبد اللطيف قضيماتي منشد الزاوية
الهلالية طلبت منه أن يقوم بالمهمة فأجاب وأقام ذلك
فترة طويلة كان كثير الحفظ وقد أخذت عنه واحداً من
الموشحات النادرة التي كانت عنده تنقل أبو رشيد في
المحافظات السورية وخاصة دمشق وعمل بها في المناسبات
الشعبية والمناسبات الرسمية إلا أن مشايخ الصوفية والعلماء
الأفاضل أرادوا بقاءه مداحاً فاستقطبوه واشتروا له بيتاً
في دمشق بقي فيه إلى آخر حياته متنقلاً بين دمشق وحلب مداحاً
ومؤذناً لجامع سيلونه بحلب وقد توفي في ٥ رمضان ١٩٩٤ رحمه الله

ارفضاض المجلس قال بسادة العلماء: المجالس أمانة فلا
ينبغي أن يشيع هذا المجلس أمام الناس فإن لديهم في هذه الأمور
فكراً مغايراً للعلم   فكنا وأنا من الحاضرين إذا ذكرنا هذا
المجلس لم نذكر اسم أحد من العلماء الحضور لأن لنا أن نذكر
في هذا الموطن أيضاً أن لدى الناس تراكمات ثقافية على مر
الأيام أثبتت في أذهانهم أحكاماً في بعض الأحيان ذات
جذور واهية كمثل الحجاب وغيره.

مرض الشيخ في صيف ولم يكن خبر مرضه خافياً على أحد
وهو الذي لا ينقطع زواره   ولدى بدء العام الدراسي جاء
الشيخ - وقد شارف لبعض على الهزيمة - ليأخذ البرنامج الدراسي
فقال له أبو النصر وهو من تلامذته: لقد ألغيت دروسك بسبب
مرضك   فخرج الشيخ مودعاً التدريس في المدرسة   وبلغني
الأمر فالتقيت أبا النصر - وهو زميل الدراسة - وعنفته
بكل ما أستطيع   فقال: تريدني أن أكذب عليه وهو أستاذي؟
لقد قلت له الواقع   قلت: من الواجب عليك أن تخدم
أستاذك لا أن تطرده   قال: وكيف؟ قلت: تستطيع أن
تعطيه بصورة تدريجية الحصص الدرسية التي استأثرت بها

لنفسك وأنت إداري وتقول له معتذراً: المبرمج الآن غير منتظم وبانتظامه ستعود الأمور إلى مجاريها إن شاء الله ويخرج الشيخ بقلبه الكبير راضياً ومرتاحاً بأن واحداً من تلاميذه لا يمكن أن يقابل أستاذه بالجفاء قال أبو النصر: كان خطأً.. وبعد أقل من سنتين حلت بأبي النصر نكبة لا تتمناها لأحد.

كان هذا الموقف سبباً في عودة المرض إلى الشيخ ولكنه في هذه المرة كان - والله أعلم نفسياً لأن كثرة من الأطباء كانوا يعودونه ويشخصونه ويقررون أن جسم الشيخ سليم وما من عرض من مرض فيه لكنه قال لي مرات عديدة: المرض نخر جسمي كله والأطباء لم يهتدوا المعرفة.

عندما ذهب أبو النصر وبطانته من المدرسة في أحداث الثمانينات كنا - ونحن زملاء دراسة - البديل عنهم وأعددنا بناء جيل الدراسة والتدريس بعد أن لم يبق فيها من الأساتذة إلا أقل من أصابع اليد الواحدة ومن الطلاب ما لا يصل إلى أربعين وهو عشر العدد المعهود وقد وفق الله على النور خطانا وأعددنا للمدرسة شبابها ونضارتها بتوفيق الله لنا وكان شيخنا الآن يرسف في أغلال المرض الذي تمكن

منه وحل به الضعف والوهن ومع ذلك كان يحب زيارة المدرسة كثيراً لكن مرضه لا يسمح له بذلك إلا قليلاً وكنا نخبر بدخوله المدرسة فنهرع لاستقباله وتقبيل يديه ونلتف حوله ونصل معه إلى غرفة المدير أو غرفة الأساتذة إن لم يكن المدير موجوداً وكان الطلاب يقفون ساكتين من هذا الذي جاء مدير المدرسة وبعض إدارييها وأساتذتها لكي يقبلوا يديه فكنت أقول لهم من تلقاء نفسي: انتبهوا يا أبنائي: هذا هو النابغة العلامة الشيخ عبد الرحمن زين العابدين أستاذنا وشيخنا ومرجع علماء حلب في العلوم العقلية والنقلية.

كان الشيخ يخرج من بيته كل يوم فترة قصيرة يتروح فيها الدنيا وعالمها والفترة كانت تتقلص شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح السجين في بيته تقريباً وحيداً إلا من أهله ومن يأتي لعيادته ورأيت حدته يوماً وأنا أعوده فرجوته أن يفسح لي لعلي أستطيع الخدمة فقال: صاحب البيت هذا يريده وقد اشترينا بيتاً ونحن هنا غاصبون! إن لم نعطه بيته والأولاد بعضهم يرفض فماذا أفعل؟ أريدك أن تتكلم معهم وتحل لي

هذه المشكلة قلت: يا سيدي أرجوك أن تصرف المسألة مدة لهنك مدة أسبوع فقط وتنتهي المشكلة إن شاء الله وقد كان ذلك فقد أقنعت أولاد الشيخ وكان لهم رأي تخلوا عنه للإرضاء الشيخ.

جاء يوماً الشيخ أديب لعيادة الشيخ وطرح عليه عدداً من الأسئلة وأجاب شيخنا عليها ولما هم بالانصراف قال للشيخ: لقد أفدنا واستفدنا فقال الشيخ: أنت استفدت علماً لكن ماذا أفدت؟ قال: عيادة المريض قال الشيخ: أنت أيضاً مستفيد ثوابها وأنت لم تفدني في شيء.. نعم يجب أن يلاحظ الإنسان كل كلمة وكل تصرف يصدر منه ورحم الله القائل: إذا كنت مع الله فاحفظ قلبك وإذا كنت مع العلماء فاحفظ لسانك وفي ملاحظة الإنسان دائماً أن يراعي شعور الآخرين ما ضره لو قال: لقد أفدتنا علماً كما أنت دائماً أدامك الله لنا ذخراً مع تمام الصحة والعافية ونسأله تعالى أن يزيل البأس عنا وعنك.. الخ

لم أتوان عن عيادة الشيخ في مرضه وقد دخلت إليه وهو مستلق في السرير ولا أطيل إلا إذا طلب مني البقاء

وكنت ألاطف الشيخ في الحديث لتسليته وكان لا ينفك عن النظر إلى الجدار أمامه فالتفت فإذا طوق جلد له قطام معلق على الجدار فسألته: ما هذا؟ فبكى .. ثم إنه قال: هذا طوق كلبة الصيد التي جاءتني من إيطاليا قلت: يا سيدي هذا موضوع قديم .. قال نعم لقد ماتت منذ خمس وعشرين سنة ولم أر في حياتي كلبة صيد مثلها. لا أدع الوفاء الآن جانبًا فما كان من قصتها أن مصنعًا للبارود في إيطاليا للتاجر نجيب كنيدر أرسالية كانت موضع شكوى فأرسلوا خبيرهم ليقدر وطلب كنيدر من الشيخ أن يبين لخبير الشركة شأن هذه الجلبة فكان أن أقام الشيخ البيان الصحيح وحدد لهم الخطأ الفني في صناعة هذه الجلبة ووجه لهم النصائح التي تجنبهم الوقوع في مثل هذا الإنتاج .. وتبين لهم من كلام الشيخ الفائدة الكبيرة التي جنبتهم فيما بعد مثل هذا الخطأ ولكونه صيادًا فقد أرسلوا إليه كلبة الصيد هذه هدية ولها قصص عند الشيخ كثيرة وقد رأيتها مرة واحدة عند الشيخ في الإسماعيلية.

ما زال شيخنا يعاني المرض بعد نقل سكنه إلى حي الأندلس ولم يطل المقام به هناك حيث وافاه الأجل في أواخر الثمانينات وشيع جثمانه موكب مهيب فيه علماء حلب وفي مقدمتهم طلابه ومنهم مدير أوقاف حلب الشيخ محمد صهيب الشامي ومفتي حلب الشيخ أحمد حسون الذي صار فيما بعد مفتي الجمهورية وأقيمت صلاة الجنازة عليه في جامع الثانوية الشرعية ثم تابع الموكب المهيب شبه الرسمي مصحوباً بدراجات شرطة السير إلى مثواه الأخير في مقبرة الصالحين . يرحم الله شيخنا النابغة العلامة الشيخ عبد الرحمن زين العابدين .

الشيخ محمد أبو الخير زين العابدين

عالم جليل فاضل ناطق بالحق لا يخشى في الله لومة لائم كان من مشايخ الثانوية الشرعية وهو الأخ الشقيق لأستاذنا وشيخنا الشيخ عبد الرحمن زين العابدين وهو خطيب الدارسين والمثقفين في جامع السبيل يدافع عن الحق ويدفع الباطل وقد لاقى بسبب ذلك المتاعب التي

يلا فيها صاحب لهذا المنهج .

كان بيت الشيخ في المحافظة أمام سوق الإنتاج وفي حفل لمناسبة من المناسبات الوطنية كان أحد المتكلمين أحمد أبو صالح وهو حقوقي من المتسلقين على السياسة وربما نال إحدى الوزارات يوماً وكان في كلامه مساس بالدين الحنيف وكأن لهؤلاء الناس يتقربون بذلك إلى أسيادهم أذناب إبليس وبوجود مكبرات الصوت سمع الشيخ أبو الخير حديث المهذار المتنطع وكان الحديث للشيخ محمد أبو الخير في خطبة الجمعة حول الموضوع فتكلم وأطنب والشيخ لا يجامل في حكمه أحداً أياً كانت مرتبته أو مكانته فتراه يطلق حكمه عليه بالبراءة أو بالفسوق أو بالكفر حسب الحال وبما أن خطب الجمعة لا تخلو من رقيب ألقي القبض على الشيخ وأخذ إلى أحد الفروع الأمنية وهذه المسألة لها تكرار .

كلما أخذوا الشيخ وبلغنا ذلك الخبر في المدرسة كان الطلاب يضربون عن الدروس ويتصل مدير المدرسة بمدير الأوقاف يجب عائلة المدرسة ويخبره ومدير الأوقاف بدوره يتصل مع من بيده الحل سواء الجهات الأمنية أو المحافظ أو الوزير لا أدري لكن سرعان ما يتم الإفراج عن الشيخ .

ذات يوم كان حظ شيخنا مع رئيس فرعي أمني إسمه شوقي سباهي وهو حقوقي أراد الدخول في سباق مع فرعونه وقد عرف بظلمه في ذلك الوقت وكان الناقمون والعامة يستعيذون بالله منه ومن ظلمه وقد تولى هو بالذات الكلام مع الشيخ الذي ينظر إليه على أنه شخص كآحاد الناس ويكلمه على هذا الأساس وقد تشجع الفرعون من كلام الشيخ وإجاباته فأدى به ذلك إلى أن يقول للشيخ بصفاقة المتسلطين : أنا أستطيع الآن أن أحلق لك نصف ذقنك ونصف شاربك وأرسلك أمام الناس لتكون هزءاً - وهذا الكلام سمعته من فم الشيخ - فقال له الشيخ بحدة : أسكت فلن يسلطك الله علي انتبه أنا أحمل في صدري كلام الله وحديث رسول الله وشريعة الله وفي وجهي سنة رسول الله فإن كنت ترى أنك تقدر - فافعل ولسوف ترى من النتائج ما تحب إن شاء الله .

نزلت كلمات الشيخ على الفاجر - بأمر الله - نزول الصاعقة فارتعدت فرائصه وبدأ يرتجف وانخفض هواره وشخصه إلى أقل درجة وتكلم مع الشيخ بلهجة الراجي معتذراً بقوله : يا شيخي نحن نريد أن نقر الأمن في البلد وأنا أخشى

أن يؤدي الكلام إلى فتنة للآخرين وأنا أعتذر منك وسأرسلك الآن مع من يوصلك إلى أمام بيتك. قال الشيخ: نحن نربح الآن إذ نوجه الناس إلى الطريق القويم ونعظهم.

قال لي حفيد الشيخ أحمد الزرقا وكان صديقاً ورفيق دراسة لشوقي: لقد نصحتك فلم تسمع مني وظننت أن العرش الذي تتربع عليه سيدوم لك وها أنت الآن خرجت إلى التقاعد وليس لك في قلوب الناس ذرة احترام حتى أنك في ممارستك مهنة المحاماة ترى الموظفين يزدرونك ازدراءً ولقد هبطك الله الآن في الدرك الأسفل من الدنيا لا يلتفت إليك أحد وأنت عاجز عنه فإن الدرك الأسفل في الآخرة أشد وأعظم لأنك لم تصلح ما بينك وبينه ولا تصلح ما بينك وبين الناس. فقال المتغطرس الذليل: والله يا أبو محمود عندما يكون الإنسان في المرتبة فإنه يظنها ثابتة له أو سيصعد إلى أعلى وهذا هو الخطأ.

لقد كنا نثور لشيخنا إذا قبض عليه فقد ثرنا عليه يوماً لغير ذلك والسبب أن لدينا يوم الخميس أربع دروس قبل صلاة الظهر ودرسان بعدها وكان الدرسان الرابع والخامس للشيخ أبو الخير عندنا في الصف الثامن وقتها وعندما دخل الشيخ إلى الدرس

الرابع قال : يا أبنائي يوجد بعد الدرس ثلث ساعة للتهيؤ للصلاة ثم يأتي وقت الصلاة بعدها وأنا بحاجة للخروج من المدرسة فما رأيكم أن نجمع الدرسين وبعد ذلك تصلون الظهر وتنصرفون ؟ قلنا كما تحب يا أستاذ .. وكان الأمر كذلك وانتهى الدرسان الرابع والخامس بعد خروج زملائنا من صلاة الظهر وبدء درسهم الخامس وخرجنا بطبيعة الحال .

رأى أحد الموجهين قاعة الدرس فارغة والقاعات الأخرى تضج بالدروس فنقل الصورة للمدير وعلى غير موعد حضر مدير الأوقاف واصطحب مدير المدرسة في جولة وكان صفنا هو الأول بعد غرفة المدير ولا أحد فيه فسأل مدير الأوقاف عن السبب فقال مدير المدرسة : ربما لدى الأستاذ عذر فلم يعط الدرس وكان دفتر التوقيع على المنبر فنظروا فيه فوجدوا توقيع الأستاذ على الحصة كيف ذلك ؟ كتب مدير الأوقاف على الدفتر حضرنا الساعة كذا ولم نجد أحداً والحصة موقع عليها رأى الشيخ ما كتب له على الدفتر فكتب تحتها العبارة التالية بالضبط : كذب من كتب حضرت ووقعت ووقع تحت هذه العبارة وتاريخ كتابتها وصل ما كتبه الشيخ إلى مدير الأوقاف فأمر بفصل

الشيخ .. وكان ذلك .

مسألة كهذه لا تخفى فكل المدرسة على علم بها و انقطع الشيخ يوماً عن الدروس فعلم الطلبة أن الشيخ منع من التدريس فقامت ثورة عارمة في المدرسة بأن امتنع الطلبة قاطبة عن الدخول إلى قاعات الدرس مما ألزم الإدارة الاتصال مع الشيخ وعاد إلى التدريس وكان مدير الأوقاف بأن أبدى مصراً على فصله من أجل العبارة التي كتبها فقط لا غير وعلم أن الشيخ جمع المدرسين وعندئذ لا إشكال في الموضوع لكن عندما قامت الثورة العارمة رجع مدير الأوقاف عن قراره كما ذكرت .

رأينا في شيخنا الجرأة في الحق والثبات في أمر الله وأن الإنسان من إذا كان لله محبناً وأن الله عز وجل يدافع عن الذين آمنوا .

لم أستطع الدخول إلى عالم الشيخ وقد زرته في بيته مرة فقد كان الشيخ مع قرب من طلابه ومن الناس كان أيضاً في المقابل قريباً من وحدته .

عدت من دمشق بعد قضاء يومين فيها وذلك في سنة ١٩٧٣ وكنت متجهاً إلى داري بعد العصر بقليل ومررت المركبة التي تقلني من أمام الجامع الأموي الكبير فرأيت جمهرة كبيرة من الناس

حتى إن المركبة جاوزت بصعوبة ، واتضح أنها جنازة أحدهم وفي اليوم الثاني بلغني أنهم وبعد صلاة العصر صلوا صلاة الجنازة في الجامع الأموي على أستاذنا الشيخ محمد أبو الخير زين العابدين رحمه الله تعالى .

الشيخ كامل سالم

عالم كان زميلاً لوالدي في الدراسة ، لم يكن مدرساً ولا خطيباً ، ولم أسمع يوماً أن له جلسات علمية خاصة لكن له صوتاً سمعت جملة للمولد النبوي الشريف في بعض الأحيان وله مطالعات كما سمعت منه عندما أزوره ، وكنت بصحبته فتى يافعاً صغير السن .

كان الشيخ محترفاً تجارة العطارة ، وكان ثرياً وله في وجوه الخير والبر أياد بيضاء ، ولكنه يوصلها إلى مصارفها عن أيدي الغير لسببين في تقديري ، أحدهما : كي لا يعلم المستفيد من أين أتاه النوال ، والثاني : حتى لا يكون مقصد القاصدين ليلاً ونهاراً ، ونفقة بهذه الصورة هي نفقة سر وهي تطفئ غضب

الرب فربما كان لهذا قصده والله أعلم لأنه رجل عالم .

في طريقه إلى البيت ظهرًا جاء شخص وسلم على والدي

وهذا الرجل مؤذن وخادم جامع وادي الغرابي وقال لوالدي

لقد أتيت إلى الشيخ كامل سالم وطلبت منه أن يساعدنا في بناء الكنف

والطاهر والميضأة للجامع فلم يوافق على شيء من ذلك ولم

يتبرع لنا بشيء أبدًا ومسجدنا لا مكان فيه لقضاء الحاجة أو للوضوء

وأهل الحي عندنا فقراء وما من متبرع قال له والدي سوف

أتولى الموضوع لأنه :

الطهارة شرط العبادة

دخل والدي إلى الشيخ كامل وطرح موضوع أسباب الطهارة

في المسجد فقال الشيخ : كان عندي مؤذن وخادم المسجد منذ

قليل وأنت تعرف يا شيخ عبد الرحمن أنا أتبرع للجامع جدرانًا

وسقفًا فقط لا غير ولهذا هو المسجد أما هذه فليست كذلك

فلا علاقة لي بها فقال والدي : لكن الطهارة شرط العبادة

وإن المطاهر أهم من المصلى لأن الإنسان المسلم يمكنه

أنه يصلي في المسجد ويمكنه أن يصلي في أي مكان شاء لقوله صلى الله عليه وسلم : وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل حيث شاء أما المطاهر فلا فسحة فيها والإنسان إذا أدركته حاجته وليس ثمة مطاهر ماذا يفعل؟ أتراه يقضيها في الشارع؟ هذه حال يستتر فيها الإنسان عادة وطبعاً وشرعاً وحياءً والجامع ليس حكراً على جيرته فإذا أتى الغريب من الحي للصلاة فيه فماذا يفعل؟ قال الشيخ: هذا الكلام صحيح ولسوف أرسل من ينفذ هذا الموضوع إن الله.. وقد فعل أي وفى بما وعد.

عندما قص علي والدي هذه القصة قلت في نفسي إن الشيخ كامل رجل عالم ولا يغيب عنه فهم مسألة بهذا الموضوع لكنه ربما غلب على ذهنه الحديث الشريف من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة فوضع في الرأي بناء المساجد وغلبت الفكرة ذهنه فكانت مبدأه في أن يسهم في بناء الجدران والسقف لأنها أصل الجامع لكنه ما لا ينبغي أن نغفله موضوع الطهارة بأسبابها ومسبباتها والصورة التي بينها الوالد هي من الناحية العملية أهم لأن المواراة لقضاء

الحاجة أمر مطلوب شرعاً وأدباً ولغة ونجد هذا إلماحاً في الكتاب العزيز حيث يقول تعالى: أو جاء أحد منكم من الغائط والغائط ما اطمأن من الأرض فيه زرع يتوارى فيه الإنسان لقضاء حاجته وهذه أدبيات الحال يعلمنا القرآن إياها فعندما يقرأ الإنسان الآية نجد أنه حتى يصل إلى صورة الحال يكون المقال قد ذهب به إلى الأمر الذي يليه دون الوقوف عند تلك الصورة إلا بمقدار المفهوم المراد ولئن كان هذا الرهدي في الحال فإن الرهدي في المقال وارد أيضاً كقوله أيضاً: فجعلهم كعصف مأكول حيث أطلق الوصف على الأصل الذي أراده بعد الأدوار التي تمر عليه لتجعله على وزن (مفعول).

في الكلام عن هذا الاتجاه يجمل بنا القول أن الواقفين المسلمين لم يقتصروا على بناء المنافع الملحقة بالجوامع في أطراف بنائها أو أمامها بمداخل مستقلة بل قاموا ببنائها كمرفق عام لا علاقة له بالمسجد بالضرورة وإنما هو مستقل للسابلة عموماً لأنه أمر يخص آداب الحاجة الإنسانية والصحة العامة.

علينا أن نلاحظ دائماً أن الأمور الشرعية على أنواعها يجب

أن يكون الفهم رائدنا الأول فيها ليتحقق التطبيق الأمثل لهذه الأحكام ولكي تتحقق المصلحة من وجود هذه الأحكام .

عرف الشيخ كامل بالاستقامة والتقوى والعلم فكان مرجعاً في الأحكام الشرعية للسائلين والمستفتين وغاية أهل السوق عنده وأكرر أن الشيخ لم يكن قصوره عن قصور في فهم المقاصد الشرعية وإنما لأنه وضع لنفسه مبدأ سار عليه دائماً وعندما أتاه من لفت نظره إلى أن هناك مصلحة ملحة أكثر في موضوع الطهارات بادر إلى تنفيذ المطلوب لأنه يفهم المنطق الشرعي كل الفهم .

توفي الشيخ كامل سالم في أواخر العقد السادس من القرن العشرين . رحمه الله .

سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين
رضي الله تعالى عنه

العالم المحدث المفسر المرشد بقية السلف الصالح

شيخنا ومربينا وأستاذنا وهو ابن العلامة الكبير والعبد الصالح ولي الله سيدي الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني رضي الله عنهما وأعاد علينا من فضلهما فضلاً ومن علمهما علماً .

كان سيدي الشيخ أستاذي بدءاً من الصف الثامن الإعدادي وذلك في سنة ١٩٥٩ وكان يدرسنا مادة الحديث الشريف وما من أمر أو واقعة أذكرها عن سيدي الشيخ سوى أنه صاحب الحظوة في التقدير والتبجيل والاحترام من الجميع طلبة وأساتذة وإداريين وكنت ألازم حضور الجمعة عنده في جامع سليمان والدروس العامة التي يلقيها في جامع باب الحديد يوم الجمعة بعد صلاة العصر وفي الجامع الأموي الكبير يوم الاثنين بعد صلاة الظهر وكذا الدروس الصباحية في جامع الحموي والمجلس النبوي الشريف - والموسمي - في جامع سليمان بعد العشاء ثم نقل إلى جامع العثمانية في نفس الموعد وهي مجالس مباركة يغشاها الكثير من الناس .

كانت أمور سيدي الشيخ رتيبة جداً في كل علاقاته مع الآخرين كما قلت سواء كان ذلك في المدرسة أو مع العامة باختلافهم لأنه لا يتدخل في الشؤون ولأن مكانته العلمية السامقة الرفيعة

والحكمة التي أوتيها فرضت محبته في قلوب الناس جميعاً من عرفه ومن لم يعرفه لقد كانت منزلة بوأه الله إياها ونحمد لا ننسى الحديث الشريف إن الله إذا أحب عبداً نادى جبريل فقال : يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه ثم يوضع له القبول في الأرض ولذلك ما عرضت مسألة عليه إلا وفصلت ببضع كلمات منه عند محبيه الذين ديدنهم التسليم والإمتثال ومن ذلك الأمر الذي حصل معي .

أتاني الشيخ الشاب جاد الله أبو الدار وطلب مني داراً عندي يريد سكناها إيجاراً وعليه سيما الشعبانية وقال لي مرغباً بأن والدي يرحمه الله كان أستاذه وأن سيدي الشيخ هو شيخه .. الخ قلت : لن أعطي الدار لأحد أبداً وحاول دون يأس منه ولم أستجب وذلك لأن قانون الآجار عندنا ظالم وقتها وجاءني بعدها وقال : لقد ذكرت للشيخ أن لديك داراً ولم توافق على آجارها لي فقال لي الشيخ أن أعطني الدار وإذا لم ترغب إعطائي إياها فاذهب لمقابلة الشيخ قلت : أسيدي قال ذلك ؟ قال : نعم فقلت :

هذا المفتاح قال: وكم تريد أجار الدار قلت: ما تشاء لكن شرعاً هذا عقد يجب أن تحدد مدته والمدة سنة واحدة قال: ويجب تحديد بدل الأجار قلت نعم أنا راض بأي مبلغ كان وليس هذا ما يهمني إنما الذي يهمني هو أن أنقذ رفقة سيدي الشيخ.

كان سيدي الشيخ فعلاً يتابع أمور الطلبة حتى بعد أن يتخرجوا من المدرسة .. وذات يوم رأيت الشيخ جاد الله ولما تمض السنة بعد وكان بيننا حديث فهمت منه أن سيدي الشيخ ليس راضياً عن تصرف ما للشيخ جاد الله وتأكد ذلك عندما قال الشيخ أنا أروح لعند شيخي وما يستقبلني .. عدة مرات وبعدين قالوا: لا تأتي لعند الشيخ .. يعني شيخي طردني لم أعرف ما ذنبه لكنه هو في مخالفة المنهج والله أعلم لأن قلب سيدي الشيخ أوسع من أخطاء السلوكيات كيف وهو مرشد ومربي .. قلت: يا جاد الله أنا فهمت الآن أن الشيخ غاضب منك وأنا أريد الدار الآن أو في أقرب وقت وإذا كنت لن تخرج وتسلمنيها فعقدنا لن يتجدد أبداً قال: حتى أنت يا ابن شيخي .. كنت أود أن

أقف في القصة هنا لكن رأيت أن لا بد من الاسترسال فقد قتل الشيخ جاد الله في جامع الأصفر وقصتنا هذه كانت في أوج أحداث الثمانينات أمام من طرف الدار فقد تمسك بها والده وبقيت زوجته مع طفليها والمشكلة أن القانون لا يسمح للمالك بإخلاء المأجور لكن الله تعالى يسر الأمر وأخليتهم بأهون سبب والحمد لله.

هي واقعة من واقعات كثيرة أعرفها ولا ينبغي أن ننظر إلى شيخنا إلا أنه أب، وهي له حضور متميز في القلوب لا يملؤه إلا هو.

كان للشيخ نشاطه العلمي الباذخ وفي مدينتنا حلب مدرستان للعلم الشرعي تتبعان للأوقاف هما الثانوية الشرعية والشعبانية ولكل منهما نظام وصدر قرار بضم الشعبانية إلى الثانوية الشرعية فسارع سيدي الشيخ إلى تأسيس:

جَمعيّة التعليم الشرعي

وقد بدأت الجمعية نشاطها في سنة ١٩٦٢ بمساعدة

عدد كبير من أحباب سيدي الشيخ فوفقه الله وظهرت هذه الجمعية
إلى الوجود بأنشطة حسب البيان التأسيسي كما تقدم خيرية
وتعليمية فأما الخيرية فتصرف في سبيلها ما يصل الجمعية من
أموال الزكاة نقدية كانت أو عينية والجانب الخيري
منصرف إلى إعانة الأسر الفقيرة والحالات الطارئة وأبناء
السبيل .. الخ مما هو معروف في مصارف الزكاة وأما الجانب
التعليمي فكان في افتتاح مدرسة التعليم الشرعي وذلك في
مقر المدرسة الشعبانية التي أغلقت بالأمس القريب وكان
الانتساب إليها غير مقيد بالسن في ذلك الوقت ثم حصلت
فيما بعد أمور تنظيمية حددت السن وكان الإنفاق على
الجانب التعليمي قائماً على التبرعات .

جمعت هذه المدرسة أعلام علماء حلب وكانت
سوية المناهج عالية وبدأت المدرسة تخرج الأفواج المتتابعة
وعندما توفي عمي الشيخ نجيب سنة ١٩٦٨ وهدمت مدرسة
الحفاظ وانحسر هذا الجانب إلى الحدود الضيقة ونقلت
مدرسة الحفاظ إلى غرفة المدرس في جامع العثمانية رأى
سيدي الشيخ أن يفتتح مدرسة للحفاظ والقراءات فكان

ذلك وقام بشأنها بداية الشيخ محمد شهيد(1) والشيخ عادل حمصي(2) رحمهما الله وكان فيما هو مقرر لطلاب العلم والحفظ والقراءات راتب شهري وكساء سنوي ورغب طلاب مدرسة الحفاظ في العثمانية الانتقال إلى المدرسة الوليدة لأن العطاء فيها أكثر من مدرستهم فأمرهم سيدي الشيخ بالبقاء في مدرستهم على أن يأتوا فيأخذوا منحة شهرية من الشعبانية بقدر يجعل راتب المدرستين متساوياً وذلك لكي لا تنزوي مدرسة الحفاظ في العثمانية وبذلك بقيت المدرستان على قيد الحياة .

---

1 - الشيخ محمد أديب شهيد : حافظ مقرئ متقن كفيف كان ساعد الشيخ المقرئ الشيخ نجيب خياطة في مدرسة الحفاظ بسبع القراءات من طلابها وكان إماماً في جامع المدرسة الشعبانية توفي سنة ٢٠١٠ رحمه الله .

٢ - الشيخ عادل حمصي حافظ مقرئ متقن اختاره سيدي الشيخ لتدريس القراءات للطلاب الشيخ محمد أديب شهيد وقد توفي في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين

لقد هيأ الله بتوفيق منه ما أقر لسيدي الشيخ عينه فقد توارد الطلبة إلى هذه المؤسسة العلمية للانتظام فيها وجاءتها الأموال من المتبرعين بسخاء حتى فاضت ورغب التدريس فيها من عرفها أو سمع بها أو علم أنه سيدي الشيخ هو سيدها.

ولئن كنت أقول دائماً إن سيدي الشيخ سد ثلمة خطيرة جداً بهذه الجمعية ويكفي أن أقول ما سمعته من مدير أوقاف سليمان النسر(1) مقولته المتكررة لمن يأتي ويطلب إماماً لمسجد من فكان يقول لهم: ليس لدي أئمة ائتوني بأي شخص تقبلونه إماماً والصلاة وراءه لأعينه ولو كان من جاهلاً لا يوجد علماء وفي الحين ذاته ولمدة لفترة سنوات وسنوات قال سيدي الشيخ في مجلس خاص بنا كأساتذة في المدرسة: تتصل بنا دائرة الأوقاف تريد أن نرسل لها من طلابنا إماماً للشواغر عندها فقلنا لهم: لقد تم تعيين الذين يصلحون

---

1 - سليمان النسر: انظر ص ٢٨٦

للإمامة والباقون عندنا الآن بدون تعيين صغار في السن لا تصح إمامتهم وأي واحد منهم يصل إلى البلوغ لن نفضل به كذلك قال مدير الأوقاف في جلسة له مع جدي حيث لا يتوانى عن زيارته : لا يوجد من نرى أنه صالح للإمامة ولقد طلاب الشرعية والشعبانية وأيضاً الكلتاوية ومازال بحاجة من أين نأتي بالذين يصلحون للإمامة والخطابة ؟

هي الفترات الأولى من حياة الشعبانية والكلتاوية وقبلها كانت الدائرة الوقفية تجري مسابقة سنوية لملء الشواغر الحاصلة حسب تسلسل الدرجات لقد كانت هناك كفاءات كثيرة للاتجاهات الأربع التي تجري المسابقة فيها وهي الإمامة والخدمة والخطابة والأذان لكن ما أقصد هو الإمامة والخطبة لأن من يقوم بإحدى المهام يجب أن تكون لديه مسكة من علم لقد سدت المدارس هذه الثلمة بمرور السنوات أرى أنها طويلة إلى حد ما لأن البعض من الطلاب الدارسين يخرجون من الوطن ليعقد إلى جهة أخرى وبعضهم لا يرغب الارتباط بالإمامة

بسبب عمل لديه مشلي .. الخ الأسباب لكن وجود الدفعات المتتالية أثمرت وآتت أكلها ووجد الفائض بفترة وإن لم تكن قصيرة لكن الحق قوله تعالى: والله متم نوره فكان كما ذكرت سابقاً يأتي والدي بواحد من طلابه إلى مفتش الأوقاف ويقول له: اكتب اسم هذا عندك وأعطه إمامة أو خطابة حسب الرغبة.

هذه صورة الواقع العلمي الشرعي في المدينة الكبيرة وهل نحن بحاجة لأهل العلم للإمامة والخطابة فقط؟ طبعاً لا فما بالك إذا كان هؤلاء لا يسدون حاجة المساجد فكيف بغيرها؟ هذه هي الحسبة التي - بفضل الله - زال كابوسها عن صدر المدينة ... لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله.

لمتابعة الطلبة وسلوكياتهم شأن فقد كانت هذه المسألة في جملة الأولويات داخل المدرسة وخارجها وكان صغير الأمور وكبيرها ضمن المطلع سيدي الشيخ يوجه فيه ويأمر وينهى وفي غير مرة قال الشيخ: قولوا لمحمد أمين يتحقق من مسألة الطالب الفلاني وهي مشكلة محتملة خارج المدرسة وكنت

أسأل وأتحرى وآتي بالجواب وهكذا الأمر بالنسبة لمن يكون الأمر موجهاً إليه وبالنسبة لما حققت فيه من المسائل لم تكن مشكلة ثمة ولم تكن الاختصاصات الأخرى وفي الوقت ذاته تكون هذه المتابعات حتى لمن تخرجوا من المدرسة .

كنت بجانب ابن عمي وهو يقود سيارته وهو عندها من المسؤولين في مدينة حلب ووصلنا إلى مشارف الشعبانية وقت خروج الطلاب فتوقف قليلاً وقال لي : ما هذا؟ قلت : هذا وقت انصراف طلاب المدرسة الشعبانية قال: ومن هؤلاء؟ قلت : هم طلابها أم ترى غير ذلك؟ قال: هذه أول مرة في حياتي أرى طلاباً بهذا الشكل لهم سمت خاص فلباسهم موحد ومظهرهم راقٍ صقيل وفيهم رزانة وحشمة الكبار والعجائز وهم يسيرون بأدب ودون أي ضجيج ما هذا؟ والله شيء يشرح الصدر قلت : يا ابن عمي هذه تربية العلماء أتتوقع أن تكون مدرسة سيدي الشيخ كبقية كبقية المدارس؟ قال : طبعاً الأمر مختلف فأنا أرى طلاب المدارس الأخرى يخرجون بالضجيج والتدافع والتراكض وربما رأيت هذا يضرب وذاك يشتم وترى مظهرهم غير

ليس متأنقاً بالضرورة والذي استحوذ على ذهني الآن هو مقابلة صورة أولئك الطلاب بصورة هؤلاء الطلاب يا أخي والله هؤلاء ملائكة انظر إليهم فتيان صغار يسيرون بحكمة ورزانة ابن الثمانين قلت: إنها التربية في البيت والمدرسة ولكن من أعظم ما نقدم لأبنائنا قال تعالى: وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً، بالأمس القريب رأيت ابن عمي هذا وهو في مدارج الثمانينات فقال لي: ما زلت أذكر صورة مشرقة وحيدة عن خروج الطلبة من المدرسة تلك هي صورة خروج طلاب الشعبانية قلت: نعم فأمر عجيب تضمه الذاكرة حتما ولا تطرحه وإن مضى عليه أكثر من ربع قرن حتى الآن.

ونحن في الحرب الأهلية وفي الدخول إلى السنة الرابعة كانت المدارس الشرعية والقرآنية في بؤرة مناطق التوتر فنقلت إلى مقرات جديدة بعد أن تعطلت الدراسة فيها فترة من الزمن فافتتحت الشعبانية مدرسة للتعليم الشرعي في جامع نفيسة وبادر أهل الخير ومن وفقه الله إليه بتغطية احتياجات ونفقات المدرسة والحمد لله.

مرات عديدة حاول أرباب النظام إرغام سيدي لعمل الجمعية بإغلاق المدرسة وتعطيل الجمعية بالتالي بل واضطر وهما أن تغلق أبوابها ذات مرة أياماً عديدة بدعوى أن هذه المدارس ليست نظامية فهي تتبع جمعية ولا تتبع وزارة فالمدارس العامة تتبع وزارة التربية والمدارس الزراعية تتبع وزارة الزراعة والمدارس الصناعية تتبع وزارة الصناعة والشرعية تتبع وزارة الأوقاف أما مدارس هذه فإنها تتبع جمعيات وهذا غير قانوني .

والواقع أن وجودها قانوني لأن مهمة الجمعية هي التعليم الشرعي والجمعيات على اختلاف المناط تعليمية أو خيرية أو صحية أو ثقافية .. الخ تتبع وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل والوزارة موافقة على نظامها الأساسي حتى أعطت الإذن بترخيصها .

باءت محاولات النظاميين كلها بالفشل لأن هذا الأمر ينتج عنه في كل مرة الغليان الخطير ويهيء الله عز وجل من عباده من يقوم بنصرة الحق والهدى ويذود عنه الحيف والسنيجة فتلغى القرارات النظامية وتبقى الشعلة النورانية

التي غرسها سيدي الشيخ تشع نورها إلى يومنا وسيبقى إن شاء الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

كان سيدي الشيخ يحب اكرام العلم وأهله أساتذة أو طلاباً وقد قدمت أن ابن عمي قد أعجب بسمت طلاب الشعبانية عند خروجهم وأن لهم ذلك المظهر المحبب والسبب في ذلك أن كل من في الشعبانية لهم كساء سنوي من الألبسة الخارجية والداخلية والخدمات المختلفة تقدم لهم كالخدمة الصحية مثلاً والطالب الذي يقرر له الطبيب نظارة فإن المدرسة تدفع قيمتها ومن تكون له حاجة استثنائية فإنها تكون مقضية تقوم الجمعية بدفعها والطلبة الفقراء الذين يتخرجون من المدرسة ويكونون بحاجة للمساعدة لإتمام ومتابعة الدراسة فإن اليد دائماً تكون ممدودة إليهم .. والوجوه كثيرة لا تحصى .

في المدرسة جزء عم مكتوب بخط أستاذي الخطاط الكبير إبراهيم الرفاعي[1] والجزء بحاجة لتدقيق الشكل وإجراء التصحيح

---

١ - إبراهيم الرفاعي انظر منت

اللازم فأعطوه لأحد الخطاطين فمكث عنده فترة ثم أعاده إليهم معتذراً عن العمل به فاتصلوا بي. وكان ذلك قبل أن يوليني سيدي الشيخ شرف التدريس في المدرسة. وقال المتكلم: الشيخ يريدك في أمر. قلت: أنا بالخدمة متى يأمر سيدي الشيخ. قال: الآن إذا كان الوقت يسمح لك. قلت: دقائق فقط مسافة الطريق. وتشرفت بلقاء سيدي الشيخ فأعطاني الجزء وفهمت منه المطلوب. وبعد التنفيذ سعدت بلقاء سيدي الشيخ ورأى في الإنجاز ما سره. فالتفت إلى أحدهم وقال أعطه ما يريد فقد أنجز وأجاد. قلت: يا سيدي العطاء حاصل وفضلكم لا يقدر. قال: يا بني هذا عمل ويجب أن تأخذ أجره. قلت: قد حصل يا سيدي الأجر الأكبر أن شرفني الله برؤيتكم على ما نتمنى لكم من الصحة ولا أريد إلا الدعاء لي .. فدعا وأرجو أن يتقبل الله دعاءه في دنياي وآخرتي إن شاء الله.

ولا زلت جالساً بحضرة سيدي الشيخ الذي قال لهم: اطبعوه على ورق ممتاز وغلاف ممتاز وطباعة ممتازة فإن الطفل عندما يتناوله يرى فيه قطعة ثمينة فليس هو عنده كالأجزاء المطروحة في السوق فسوف ترى الطفل يتعامل

معه باحترام وعندما يكون ورقه جيداً وجلده جيداً - كنت أريد أن أقول غلافه - فإنه سيكون محفوظاً أكثر. قالوا: أمرك سيدي وتم التنفيذ كذلك.

كتب العلم كلها محترمة وفي مقدمها كلام رب العزة تعالى رأيت عند سيدي الشيخ التقدير للعلم وأهله وكتبه وكل ما له علاقة به وكانت أوامره تعطي للعلم وأهله المظهر اللائق المحترم غاية.

قلت في حلب مدارس شرعية ثلاث تعنى بالعلم الشرعي وهي تتبع جمعيات وقد ألغيت جمعية الفرقان ومدرستها التي كانت حيالها سنتان وجب وبقيت الشعبانية والكلتاوية فقط أما الثانوية الشرعية فهي تتبع الأوقاف ولا تتبع أي جمعية إذا كانت قوانين اليوم كما نعرفها تنظم الجمعيات وأنشطتها فما حال لهذه الأنشطة قبل القوانين المعاصرة لقد كانت أحكاماً شرعية عظيمة معروفة باسم:

الأوقاف

الوقف في المفهوم أو في المصطلح الخروج عن ملك شيء لوجه الله أو لملك الله وقد أطلق علماء السلف عليها إسم الأحباس لأن الوقف في اللغة الحبس ولغوي الشريعة حبس الملك في سبيل الله تعالى بصرف نفعه ويبقى أصله ويصح عندنا بلفظ الصريح والكناية .

والأصل في مشروعية الوقف :

(١) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له . رواه الجماعة إلا البخاري وابن ماجه .

وقد فسر العلماء الصدقة الجارية بالوقف .

(٢) عن ابن عمر أن عمر أصاب أرضاً من أرض خيبر فقال يا رسول الله أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالاً قط أنفس عندي منه فما تأمرني؟ قال : إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها فتصدق بها عمر على أن لا تباع ولا توهب ولا تورث في الفقراء وذوي القربى والرقاب والضيف وابن

السبيل لا جناح على من وليها أن يأكل منها ويُطعم غير متمول

وفي لفظ: غير متأثل مالاً. رواه الجماعة

وفي حديث عمرو بن دينار قال في صدقة عمر:

ليس على الولي جناح أن يأكل ويؤكل صديقاً له غير متأثل

قال: وكان ابن عمر هو يلي صدقة عمر ويهدي للناس من

أهل مكة كان ينزل عليهم. أخرجه البخاري

(٢) وعن عثمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة

وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال: من يشتري بئر

رومة فيجعل فيها دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة

فاشتريتها من صلب مالي. رواه النسائي والترمذي

أرشد في قوله: إلا من ثلاث إلى تجدد ثوابها فإن الولد

كسبه والعلم الذي يخلفه تصنيفاً وتعليماً وتلامذة والصدقة

الجارية وهي الوقف الذي يتجدد ثوابه بتجدد الانتفاع به.

وفي حديث ابن عمر أرض خيبر وهي المسماة ثمغ والحديث

فيه مشروعية الوقف الذري وأن الوقف عليهم صلة للأرحام.

وقد روى أحمد عن ابن عمر أنه قال: أول صدقة - أي موقوفة - كانت في الإسلام صدقة عمر.

وقال الواقدي: إن أول صدقة موقوفة كانت في الإسلام أراضي مخيريق أوصى بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوقفها.

وفي حديث متفق عليه قال صلى الله عليه وسلم: أما خالد فقد حبس أدراعه وأعتده في سبيل الله.

ويكون الوقف على التأبيد لقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يباع ولا يوهب ولا يورث) ولا يجوز نقضه ولقوله صلى الله عليه وسلم (صدقة جارية) ولو جاز نقضه لما كانت الصدقة جارية.

وينتفع الواقف من وقفه كبقية الناس لقوله صلى الله عليه وسلم: فيجعل فيها دلوه مع دلاء المسلمين.

وقد ذهب العلماء إلى أنه يصح وقف كل ما ينتفع به.

(٤) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتساباً فإن شبعه

وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة حسنات . رواه أحمد والبخاري

(٥) عن أنس أن أبا طلحة قال يا رسول الله إن الله يقول : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وإن أحب أموالي إلي بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول حيث أراك الله فقال : بخ بخ ذلك مال رابح مرتين وقد سمعت : أرى أن تجعلها في الأقربين فقال أبو طلحة أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه متفق عليه .

في دلالات الأحاديث الشريفة نجد أن وجوه الوقف لا تنحصر فهو نظام هدي يسد كل ثغرة نقص في المنافع وفي وجوه الخير ولهذا ينبغي من ملاحظة الواقفين للواقع المعاش وجوانب تجدده ومن الوقف أنواع ظاهرة معاينة كمثل المساجد والمظاهر العامة وقد وضعوا لها أوقافاً وترى بعضهم الآن يمنعون الناس منها بإغلاق أبوابها أو وضع طاولة وكرسي ليبتزوا أموال الناس بدعوى أنهم يحافظون

على نظافتها وخدمتها فالواقفون يقفون ويخصصون الريع لدوام خدمة الوقف وخادم الوقف يأخذ الأجر على خدمته ومع ذلك يستثمر هذا الوقف باستغلال حاجة الناس من زاوية كهذه تلاحظ فارق التقوى بين واقف باذل للمال وبين موظف في خدمة الوقف ويستغل مكانه عمله للأجور عليه لا شك أن الفرق كبير بين من يبذل لخدمة الناس وبين من يستغل حاجة الناس فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد وقفوا إضافة إلى المساجد المدارس والسبلان والمدارس وقفوها على تنوع فيها لتلبية الحاجات المختلفة فقد وقفوا مدارس للعلم منها عامة للجميع ومنها خاصة لجهة ما كمثل المدرسة الأحمدية فهي وقف على أكرادها وراء النهر على المذهب الشافعي ووقفوا مدارس لحفظ القرآن الكريم ولاحظ الواقفون أن من أرباب المهن أو الوظائف راغب في طلب العلم ولا وقت لديهم في النهار فكانت المدرسة البهائية (بظهر خان خيري بك في سوق الزرب) فيها درس واحد صباحي ينصرف الطالب بعده إلى عمله والسعي خير معدد وفي وقت الدرس لهذا عدد من المواد

وقد خصص الواقف شيئاً من ريع الوقف كراتب لطلبة العلم كبار السن هؤلاء وأذكر أن آخر شيخ لهذه المدرسة هو الشيخ عمر مارتيني رحمه الله وقد بلغت هذه المدارس بأنواعها قرابة أربعمائة مدرسة في مدينة حلب ومنها المدارس الكبيرة ومنها المدارس الصغيرة وقد انحصر عددها بعد إلغاء نظام الوقف إلى مدرستين هما الثانوية الشرعية والمدرسة الشعبانية التي ضمت إلى المدرسة الشرعية التي بقيت وحيدة في المدينة ومعها وحيدة أخرى هي مدرسة الحفاظ

وكان الرأي في إلغاء المدارس نابعاً من أن هذه المدارس ليس لها نظام إداري أو تدريسي فكان النظام الإداري والعلمي هو شيخ المدرسة ومتولي الوقف وربما بقي الكثير من الطلبة طوال حياتهم طلبة للعلم في هذه المدارس لقبض النوال المعلوم آخر الشهر فشبهوها بدون المعجزة بدلاً من دور العلم وقالوا لو أننا جمعنا هذه المدارس جميعاً ضمن مدرسة أو مدرستين ووضعنا منهجاً إدارياً وعلمياً فإننا سوف نحصل كل سنة على دفعة جديدة من العلماء الدارسين وقد كان ذلك .

والحق يقال أن المناهج الدراسية لها مستوى جيد فلكي ينتقل الطالب من الصف التاسع إلى الصف العاشر يجب أن يكون حافظاً للألفية ابن مالك في النحو وعالماً بشرحها فكلنا كان مختص والدي في النحو عندما كان طالباً .. وقس على ذلك فكانت المدرسة تخرج العلماء وكثير من أساتذتنا خرجتهم هذه المدرسة وكثير من أعلام علمائنا أيضاً خرجتهم هذه المدرسة .

تدنت مستويات المناهج إلى المنحدر الخطير وأتكلم عن نفسي فقد تخرجت من المدرسة ولم تبلغ إجادتي النحو إلى المنصف تقريباً فاجتهد له فيما بعد على والدي رحمه أن مدرس النحو عندنا العلامة الشيخ عبد الرحمن زين العابدين وكنت أقول أنا لم أسمع تفسير القرآن إلا في مصر الأزهر مع أن مدرسنا في التفسير هو العالم الكبير الشيخ محمد أبو الخير زين العابدين والتقصير هنا في المناهج الدراسية ومستواها المتدني والا فأساتذتنا ومشايخنا فيهم من فيهم .

وفي رأيي لو أنهم أبقوا على تلك المدارس وأخضعوها لأمور علمية وتنظيمية لكان في الموضوع سعة في عدد الدارسين

ولا نقع في إشكالية مخالفة شرط الواقف إذ شرط الواقف كنص الشارع والتدخل في المنهج الإداري والدراسي ثم نرفع جدوى النفع من هذه المدارس وفي هذا تأكيد وجزم على شرط الواقف الذي وضعها للنفع بينما مخالفتهم شرط الواقفين بإلغاء المدارس الوقفية حرم الأمة من المرجو عندها من العلماء والثمار التي كانت تجنيها يانعة لتقاني من قلة الثمار النضجة منظرها لكن يظل الخير والبركة أن المدرسة الخسروية (الثانوية الشرعية) باقية وقائمة على شرط الواقف ربما أو على شيء منه فأنا لم أطلع على حجة الوقف لهذه المدرسة وأنا أدعو الله لها بالبقاء منارة علم تخرج طلاب العلم.

البارحة تماماً هو يوم الخميس التقيت أحد طلابي وهو الشيخ علي عيد فقال لي إن المدرسة قد تهدمت نتيجة للحرب الأهلية وبقي منها سليماً الرواق الشمالي وقبة الجامع نزلت من عليائها لتجثم في أرض المصلى فأثار في حزناً عميقاً على مصاب صرح من صروح العلم النادرة وعلى خسارة أثر من الآثار النادرة التي تشمخ على ترابنا قلت لا حول ولا قوة إلا بالله وإن كان

الجبر يمكنه أن يعود إلى مكانه يوماً .

إن واقع التصرف هذا بالمدارس الوقفية أفرز أسلوب العودة عن طريق الجمعيات المذكور والمشاهد .

ولابد أن نلاحظ أن المدارس الوقفية كانت ترافقه بعضها بوقف الكتب فكانت المكتبات الوقفية التي حوت على رفوفها كتباً بعضها يوزن بالذهب وكانت المدرسة الأحمدية[1] واحدة

---

١ - المدرسة الأحمدية : في حي الجلوم الكبرى زقاق الشيخ عبد الله مقابل الواجهة الشرقية لجامع بهرام باشا (البهرمية) بناؤها أثري غاية في الروعة والجمال قام ببنائها رجل من آل الجلبي من أكراد ما وراء النهر والمدفونين المدرسة في المقبرة الموقوفة لهم على يمين الداخل إلى المدرسة وفيها غرفة بناها الجلبي فدفن فيها وقد جد العائلة من هناك لمجاورة الشيخ أبو بكر الهلالي شيخ الزاوية الهلالية وفي المدرسة مكتبة من النوادر في العالم الإسلامي وحكى لنا شيخنا الشيخ عبد القادر الهلالي عن مقتنياتها وكتبها عجباً حيث كان يتردد على المدرسة ومكتبتها إكراماً للصلة الهلالية الحلبية .

من بضع أعظم مكتبات العالم الإسلامي كيفاً لا كماً وكانت تحتوي على أدوات فلكية من اسطرلابات وأرباع وغيرها وفيها تفسير نرهش وستون حاشية وعندما ألغيت المدارس الوقفية جمعت مكتباتها في المدرسة الشرفية التي استقبلت ما وصلها أما الكتب المجزئة فقد طارت بسرعة البرق ودون كلل لمسافات الطويلة البعيدة وإبليس ينظر ورئا أن أخنت الخيانة على الأمانة وقد زرت المكتبة الوقفية غير مرة ورأيت كتبها وقلت في نفسي إن مدينة فيها قرابة أربعمائة مدرسة لو أننا أتينا من كل مدرسة بالبضع من الكتب لاحتوت هذه المكتبة على أكثر من هذه الأعداد ربما بكثير ومباشرة يحضرني قول الشاعر:

ورثنا المجد عن آباء صدق ... أسأنا في جوارهم الصنيعا
إذا المجد الرفيع تعاورته ... بناة السوء أوشك أن يضيعا

لقد حصل معي ما أذكره للتاريخ أمانة رأيت مخطوطة بين كتب والدي - وكنت صغير السن - فأعجبني خطها فاحتفظت بها وبعد سنوات قرأت مضمونها فلم أستوعب فسألت أبي قال: من أين أتيت بها؟ قلت: من بين كتبك فقد أعجبني خطها فاحتفظت بها لأتدرب وأكتب مثل هذا الخط

قال: يا بني هذه المخطوطة استعرتها من المكتبة الأحمدية لقراءتها وأذكر أنني لم أعدها إلى المكتبة وبحثت عنها مراراً ولأنني لم أجدها قلت ربما أعدتها ونسيت موضوع المخطوطة يبحث في ترتيب كتائب الجيش وصفوفه وفيهم الخيالة والسيافة والنبالة والرماحة. إلى قال لي أبي: فخذها إلى الأوقاف وسلمها لهم ليرسلوها بدورهم إلى المكتبة الوقفية.

قلت له: يا شيخ .... هذه كانت للمكتبة الأحمدية وأريد أن تصل عن طريقكم إلى المكتبة الوقفية فتصفحها وقال: وصلت قلت: سأسجلها في الديوان قال: طبعاً سوف أسجلها بعد أن أطلع عليها قلت لا بأس وتركتها عند الشيخ وذهبت.

سنتان كانتا أو ثلاث وأنا جالس في مكتبي في القيادة العامة للجيش أتصفح إحدى المجلات فوجدت فيها صورة لصحيفة من المخطوطة - وأنا أعرف خطها ورسومها الغريبة التي تشبه هذا الرسم - وقد كتب تحت الصورة العبارة التالية: وأخيراً عثر متحف المتروبوليتان على النسخة المفقودة من مخطوطة كذا..

فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله.

جاءت الحرب الأهلية فدخل الجيش إلى المسجد الأموي الكبير والمكتبة الوقفية بجواره وذلك في سنة ٢٠١٣م فهدموا مئذنة المسجد وأطرافاً منه لقد أزاحوا المئذنة من وقوفها شامخة أربعة عشر قرناً وأحرقوا المكتبة بعد أن سرقت منها نفائس بعضها اليتيم الوحيد في هذه الدنيا والحديث عن المكتبات ذو شجون فمنه الممتع ومنه المؤلم والواقفون اقتنوا الكتب فهي مخطوطة وغالية الثمن والبعض من أهل العلم وطلابه لا قدرة لهم على شرائها.

وقد كان للواقفين توجهان: ذري وخيري فالذري هو الذي موقوفاً على ذريته من كان منهم مستحقاً للنفع من هذا الوقف حسب شرطه وقد قامت دوائر الأوقاف بحله وتصفيته وإعطائه للوارثين أما الوقف الخيري فبالإضافة إلى ما تقدم نجد أنهم وقفوا أراضي للمقابر ومنهم خصص قسماً من ريع الوقف لإطعام الطعام ولقراءة القرآن والشؤون الصحية وهناك وقف لإعانة الفقراء ووقف لرعاية كبار السن والعجزة ووقف الزبدية ومبدؤه أن السيد إذا أرسل ابناً أو أجيراً لشراء شيء فوقع الإناء من يده وانكسر

فكان يذهب إلى المتولي بالكسر ويرجع بالصحيح وفي دمشق مدينة المرحمة على منفعة بردى أرضها موقوفة للحيوانات المسنة يضعها صاحبها هناك فترعى من أعشاب الأرض وتشرب من أمواه بردى إلى أن تنفق .. إلى آخر ما هنالك من وجوه الوقف التي لا تحصى .

أساء البعض من المتولين في ولايتهم لوقفيتهم التي يتولونها وتقرر إلغاء الولايات لتنضوي الأوقاف وملكياتها الوقفية تحت عباءة وزارة الأوقاف وكانت صالحة لبعض الوقفيات لكنهم جمعوا في سلة واحدة فتعطلت شروط الواقفين عموماً وهذا غير جائز في فقهنا إلا في حالات محددة وضمن شروط خاصة .

عصفت أحداث الثمانينات ببلادنا فارتحل سيدي الشيخ مجاوراً الحبيب المصطفى سنوات عدة وظل المدرسة قائمة بأمر الله ثم بالأيدي التي ربّاها والتي اختارها سيدي الشيخ رضي الله عنه وعاد راعياً للصرح العلمي الشامخ الذي أسسه وللتلامذة أساتذة وطلبة علم وعادت منارة النور تشع من هذه المدينة علماً وهداية

ولنظل ـ دينه شاملة في الدعوة إلى الله وملاحظة الأحوال التي تقتضي بذل النصيحة لمحتاجها والتوجيه إلى جادة الصواب لمن ند عنها وإرشاد المسترشد في الموطن الذي يحل فيه العالم أو طالب العلم .

في زيارة لسيدي الشيخ في المدرسة الشعبانية ـ قبل أن أكون مدرساً فيها ـ يسألني سيدي كعادته عن المطالعات والمراجعات والدروس التي أتلقاها أو ألقيها وبصورة عامة أقول كان يسأل عن النشاط العلمي ثم يسأل عن النشاط العملي فإن رأى أن المسؤول بحاجة إلى مساعدة بذلها وإن كانت أموره ميسرة دعا له بالتوفيق وعندما يسألني سيدي الشيخ عن النشاط العلمي كنت أذكر له الدروس والمطالعات .. الخ فقال للحاضرين من صحبه وكانوا يومها أربعة وقد رأوا أن سيدي الشيخ قد أشار إلي بالجلوس إلى جانبه : هذا شيخ ولكنه شيخ سري ومظهره لا يدل على أنه شيخ .. قالها بابتسامته الحبيبة المعهودة ثم التفت إلي وقال : يا بني أنتم لستم خسارة في أنكم درستم العلم وتوجهتم إلى العمل بل أنتم الربح الكبير لأن الناس سيأتون إلى الجامع لسؤال

عن أشغالهم وبعضهم قد يكسل عن الذهاب ولكن عندما تكونون أنتم بينهم فعندئذ لا حجة لديهم ولا كسل فيسألونكم أنتم وفي مثل حالتكم الناس قد ترون ما يقتضي التنبيه أو التوجيه في أمور يقعون فيها من حيث لا يشعرون وعندئذ تنبهون وتوجهون فأنتم بين الناس صمام أمان ودور كم يظل أهم من دور الشيخ في الجامع لأنهم يقصدونه فيما يريدون أنه مشكل بينما أنتم تنبهون على ما لا يرون مشكلاً فأنتم مرشدون وواعظون في مواقع عملكم ولذلك أنتم الربح ولستم خسارة كما يتوهم البعض .

قد تقول هذه العبارات المنطقية الحكيمة ربما يقولها كل أستاذ لتلاميذه أقول: نعم ولكن أنا فهمت من كلام سيدي الشيخ المعنى الأرقى وكأنه يريدني أن أفهم مراده وهو: قم بعملك ولكن كن المنارة فيهم مبادئاً إليهم ناصحاً لهم واعظاً فيهم قدوة لهم قولاً وفعلاً وعملاً .

وشرفني سيدي الشيخ بالتدريس فيما بعد وخرجت من قاعة الدرس فابتدرني الموجه الشيخ محمد علي بقوله: اتصل الشيخ منذ قليل وقال: قولوا لمحمد أمين لا تتوسع فقلت: حاضر

وكان أخي يريد شراء أرض في البلد من أجل بنائها معامل وأراد أن أراها قبل إمضاء العقد للشراء وكنت مشغولاً جداً لكنني وعدت بالذهاب لرؤية الأرض فجاء الأمر من سيدي الشيخ قال أخي: ألست وعدت لننهي المسألة؟ قلت نعم لكن سيدي الشيخ أمرني أن لا أتوسع فقال: إذن صرفنا النظر عنها وكان ضمن منظورنا شراء محل أيضاً أبرمنا عقده وكان أن ندم البائع بتصرف دل على ذلك فقمنا بفسخ العقد .. وهكذا أوقفت كل توسع كنا مقدمين عليه امتثالاً لأمر سيدي الشيخ وبعد عدة أشهر اتصل سيدي الشيخ وقال: قولوا الحمد لله أمين اختصر فقلت حاضر وتخففت إلى أبعد الحدود في أنواع التعاطي في العمل كان الابتداء أواخر سنة ١٩٩٣ وأول سنة ١٩٩٤ وما أن دخل الشهر الرابع ٩٤ حتى ثارت موجة جامعي الأموال فاضطربت الأسواق والأسعار في فوضى عارمة وكانت في الواقع كارثة اقتصادية وكنت وعملي ضمن عاصفتها الهوجاء لكن الله سلمنا في النتيجة والحمد لله قلت لأخي أرأيت كان منتظر العاصفة علينا عشرات الملايين لكننا بفضل الله نجونا لأننا بامتثالنا أوامر سيدي الشيخ أنقذنا الله وإلا لوقعنا في الإفلاس

تقريباً ولم تقم لنا قائمة (وليس هذا المقام محلاً لبسط مثل هذه الأمور لكنها إشارة لموافقة).

السعيد من يمتثل أوامر ذوي الفضل فمن فعل يكون الحائز على عوائد البر والخير والتوفيق من الله أكثر لم لا والعالم هو المرشد إلى طريق الله وكأن ربي سبحانه جعل هذه الكرامات ليشعر الإنسان من داخله أن الخير في اتباع الإنسان للمرشد في أمور الدنيا والدين كيف لا والله تعالى أنار لنا الدرب فيهما معاً وهو الذي يهدينا إلى ذلك بقوله: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله فكان دين الصحابة رضي الله عنهم الاتباع ويجب أن يكون ديننا أيضاً كذلك لأن العلماء ورثة الأنبياء لهذه الوراثة في الدعوة إلى الله الذي أمر نبيه صلى الله عليه وسلم قال سبحانه: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والعلماء الأفاضل يدعون إلى الله ورسوله فأي خير أعظم وأي فضل أكبر ولن نعجب عندما نرى الإتحافات من ربنا عز وجل وإكرامنا بفضلهم وبركتهم إذا اتبعنا الهدي الإلهي المحمدي الذي أوتوه وإنما نعجب ممن حرم نفسه من مائدة الله ورسوله المفتوحة عندهم ولن أسترسل في النظائر ويكفي

القول إن سيدي الشيخ رضي الله عنه كان له اهتمامه مع الناس يدعوهم ومع محبيه يرشدهم والواقعات كثيرة على مدى صحبة أربعة عقود ونيف مع سيدي الشيخ ليست لهذه الواقعات معي وحدي وإنما مع الكثيرين ممن أعرف ذكرت منها شاهداً أو اكثر معي أو مع غيري يكفي أن نتصور أن من وفقه لبناء صرح علمي شامخ كالطود جعل فيه الهمة العالية العظيمة شامخة كالطود ونعلم أن أمور الله عز وجل فيها العجب ولكن عجبنا فإننا لسنا نوقن إلا بأن الله اكبر .

كانت صحة سيدي الشيخ ضمن الابتلاء وقد بين لي محبي الدكتور عمر الحالة الصحية التي كانت محل العناية حتماً وأعني أن أي جهد يبذله يكون إضافياً لكن الله هو المعافي وكان أن اكتفى بزيارة يومية إلى المدرسة للإطلاع على أمورها والتوجيه والاجتماع مع الأساتذة بين الفينة والأخرى يزودهم بإرشاداته ويسمع منهم ويحاورهم رضي الله عنه وكلما ارتفعت سوية المرض تقاصرت الزيارة للمدرسة وكان الهاتف يسد الحاجة إلى أن عهد بالأمر إلى أولاده وبقي سيدي الشيخ في عالمه الخاص في شبه

عزلة إلا من زيارة على الندرة ولئن كان الحال عندنا كذلك فإن الحال عند سيدي الشيخ كان عملاً دؤوباً على التأليف حيث بلغت مؤلفاته نحواً من ثلاثين مؤلفاً منها العديد في تفسير القرآن الكريم سورة إثر سورة ومنها العلمية كشرح المنظومة البيقونية والإيمانية مثل شهادة لا إله إلا الله والإيمان بالملائكة وفي الشمائل كتاب سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إضافة إلى أبحاث أخرى ومسودات لدروسه وفيها نفائس الفوائد.

كان سيدي الشيخ حافظ بلاد الشام إن لم نقل حافظ العصر وكانت عنايته بالقرآن الكريم درساً وتفسيراً فهو شيخ الكتاب والسنة.

استبد المرض بسيدي الشيخ فأدخل المشفى وأجريت له عملية جراحية ناجحة ثم إن قدّر الله تعالى سبحانه رغم احتفاله غرفة العناية الفائقة ولكن الأجل المحتوم لا ينفع معه نطس ولا طب فقضى سيدي الشيخ آخر أنفاسه ليرحل إلى الجوار الكريم وكان ذلك مع ارتفاع صوت المؤذن بجوار المشفى بأذان العشاء يوم الاثنين ٢٠٠٢/٣/٤ الساعة السابعة

سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين

بلغ المنعي المحبين المحتشدين أمام المشفى وأمام البيت فكان الحال ما نعلم وفي صباح الثلاثاء كانت المآذن تطلب قراءة الفاتحة لروح الشيخ عبد الله سراج الدين .

أغلقت الكثير من المتاجر أبوابها للمشاركة في التشييع واكتظت الشوارع الممتدة من بيت سيدي الشيخ في الفرقان إلى المدرسة الشعبانية بكثافة لم ير أحد مثلها واستنفرت أجهزة الدولة في المدينة رجالها وحلقت طائرة هليوكوبتر تذرع أجواء الشوارع التي سيسلكها الجثمان جيئة وذهاباً وجاءت الوفود من الجهات للمشاركة في التشييع وكانت الجموع المحتشدة تضج بالتكبير والتوحيد والجثمان لا يكاد يستطيع اختراق أمواج البشر لكن الطريق لها نهاية على طولها والمسافات تقصر على بعدها وكان أن وصل جثمان سيدي الشيخ إلى المدرسة الشعبانية وقد ووري الجثمان الطاهر في المدفن على يمين المصلى .

لقد كان سيدي الشيخ في حياته المباركة يزور الصرح العلمي المبارك أما اليوم فقد استقر فيه لا يبرح .

في مساء اليوم الثلاثاء أذاع التلفزيون السوري للعالم الإسلامي نبأ وفاة سيدي الشيخ العلامة الحافظ الإمام عبد

الله سراج الدين رضي الله عنه .

ومن لقاء عمل واتصال هاتفي على اختلاف المتفقد يومها والتالي يسأل من كانت منطقته نائية بعيدة ويقول لقد رأينا يوم الاثنين أمراً غريباً وكأن المدينة خلت من الناس فاستغربنا ذلك وسألنا فقيل لنا بأنه أكبر عالم في الإسلام توفي فهل هذا صحيح؟ فكنت أقول لهم : نعم لقد انطفأ السراج .

وأقول : لئن انطفأ هذا السراج الأكبر عندنا فعزاؤنا أنه رضي الله عنه أسرج لنا سُرُجاً كثيرة نرجو من الله عز وجل أن يديم الخير فيها .

ليرحم الله سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين الذي لا يعرف فضله إلا الوهاب سبحانه أسأل الله أن يحشرنا معه تحت لواء السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم .

رثاء للشاعر خالد حسن حلاق

حلب لنعشك يا إمام تودع ... وشيوخها غمر التجلد يسمع
تبكي ويا ليت البكاء يعيدكم ... حكم القضاء بأنه لا يرجع
يا شيخنا هذي الجموع توافدت ... بأنينها بدموعها تتوجع

سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين

بكيا بها برجالها بشيوخها ... حلقات تودع من به تتولع
شوقاً إليك وفي القلوب صبابة ... حباً بأعماقه الجوى يتوضع
يا منبراً أعرف الحقيقة منهجاً ... فغدا منارا بالحقيقة يسطع
يا من كل المخلصين ودرة ... للدين في تاج الزمان ترصع
يا همة حرى بليل مظلم ... تهفو إلى رب السماء وتضرع
يا عاشقاً لله تطلب وده ... وبذكره عبر الليالي تخشع
يا آملاً لقياه في حياته ... لما أتت شوقاً للقاء تسارع
يوم الوداع وأي يوم حزننا ... يوم به كل القلوب تصدع
يوم به بكت الحجارة مثلنا ... حتى المآذن والمنابر أجمع
يوم الوداع مصيبة قد أوهنت ... أوصالنا من عزمها تتزعزع
زاغت عيون الناس في إحداقها ... لما رأت نعي الإمام يوزع
فتجمدت فوق الحروف وأشخصت ... نظراتها وكأنها لا تقنع
هل مات من ملأ القلوب هداية ... هل مات من له مقام أرفع
هل مات من وهب العلوم هداية ... تهدى لمن يبغي العلوم ويجمع
هل مات من سكن القلوب ولم يزل ... بالنور في أعماقها يتربع
كادت قلوب الناس تنكر موته ... مع أنها خلف الجنازة تدمع
لولا يقين بالإله وحكمه ... ما ظلت بعد فراقه تسترجع

ثم الصلاة على النبي محمد   ما دام ذكر الله فينا يُسمع

رثاء الشاعر الدكتور شهاب الدين فرفور

أجلْ لهو خطبٌ قد تبدّت عجائبُه   وأرّقه جفن العين والفكرَ صاحبه
فسارت به الركبان في كل جانب   بكاءً وأحزاناً وقد طال جانبه
رويداً سراج الدين فالرزء مفجع   لكل ذوي قلب لأنك سالبه
لعاديك لا تعجل فترك آخذ   بأرواحنا والسر في الحزن طالبه
طلعتَ على الشهبا سواداً فضاءَه   صلاحك حتى قيل من ذا يقاربه
وقمت على التعليم والهدي مخلصاً   فأتعبت بالإخلاص خصماً يحاربه
وما أكثر الكذّاب في كل موطن   فشأنك فيهم مُفحِم الشر ضاربه
ولو أن بعض الغيب أصبح حاضراً   لكُشِّف وجه منك غابت عجائبه

• • •

عرفناك يا ذا الصبر لله طالباً   ومثلك من في الله أضحت مطالبه
عرفناك ذا إرث لكل نبوة   وإرث رسول الله دين تصاحبه
فمنك أحاديث الرسول تبينت   معالمها والفقه فيك مذاهبه
ومنك مضامين التصوف حققت   وفضلك بين الناس جلّت مراتبه
ولست بمدّاح ولكنني امرؤ   دخيل عسى أن يمنح الجود واهبه

سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين

رويداً سراج الدين جئنا قوافلاً   لنحظى بفيض منكم ونواكبه
وعلمتنا أن التصبر شيمة   لكل كريم من معدن الصدق غالبه
ولكنه رزء تعاظم شأنه   وأحبطنا حتى بدونا نجانبه
وأرّقنا حتى غدا الحزن وصفنا   ففقدك ليل قد تهاوى كواكبه
وفقدك خسر لا يعوض بعضه   فكيف وشعبانية الشيخ ناحبه

• • •

أليس لكم آثارُ عزّ حسابها   أليس لكم جيل تجلت مناقبه
أليس لكم صهر من الدين نوره   تربى على آثاركم عز جانبه
تعاليت ربي قد أخذت سراجنا   ودجّ سواد الليل حلك جلاببه
فهل بعد هذا الحزن تعويض نقصه   بأمثال نور الدين فالدين راغبه
ولم لا وقد ألفيت فيه تسامياً   لدى العلم والتحقيق فيه مواهبه
إلهي سلبت الناس لب لبابها   فهبنا من التصبار ما لا نغالبه
وهيء لنا من أمرنا خير رشده   وأبدل بنا خيراً فقد غاب آيبه

رثاء الشاعر أنس ابراهيمُ الدغيم

لكل شيء وإن حلت مراميه   يوم وتطوى من الدنيا أساميه
عبارات إلي من أشهى مطوقة   في صوتها ألم يبدو فتخفيه

سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين

أنت فحين دنت سني شلت فبكت   فهي في القول شاكيه وباكيه

نعت إلي سراجاً من مواقده   يسمو الضياء على أبهى مجاليه

إذا فتيل سراج الزيت أطفأه   أمر بليل أشاع الفكر ناديه

فكيف إذا سراج الدين يأخذه   من بيننا قدر جلت أياديه

يا رب نحمد بما قدرت راضية   نفوسنا ثم لم نرتب بقاضيه

فإن بكينا فلا تعتب فذا ألم   والقلب يبكي إذا الآلام تكويه

وإنه كان فينا صالحاً وله   بين الهداة بدور من مساعيه

يا رب لا أتألى إنما ظني   به جميل وظني الخير تعليه

يا سيدي ولهواك اليوم يملؤني   حباً فآخذ وردي من مجاريه

تلك المعاني على مبنى الكلام بكت   كذا مبانيه تبكي في معانيه

بكى على قلمي حبري فحين بكى   حبري توهنا أشعري في مآقيه

لهذي قوافي ذابت في محاجرها   وخيل شعري يشكو من توجيه

إني أنا اليوم ورقاء الهوى كلي   أفنانه حبك أشدو من مثانيه

يبكيك ما صح من قول الرسول كما   يبكي المحيط على أغلى لآليه

بكى عليك بخاري الحديث ضحى   ومسلم يشكو فقد واليه

ما كان متصل أو كان منقطع   إلا ويبكيك تاليه وراويه

ويستحم بدمع الحزن مرسله   فلابن ماجة بحر من مآسيه

رحلت عنا ولم ترحل بوارقكم ... عنها خطرات لهوانا وبواديه
نم مستريحاً فنور الدين بعدكم ... الله من ثوب الأرزاء يحميه
طهر سريرته بيضاء سيرته ... خضراء جيرته حمر مواضيه
زهراء طلعته وضاء فكرته ... غيداء غيرته بيض لياليه
يا راحلاً عن عيون القوم لا عدمت ... تهدي العيون ضياء طيفكم فيه
فألف ألف سلام من محاجرها ... تهدى إليك وشعري اليوم أهديه
عليك فاتحة القرآن أقرؤها ... وأنظم الشعر فاصغ عن قوافيه
سقاك رب الورى من عينه كوثره ... ماءً فراتاً وجل الله ساقيه

وقد أكثر الشعراء في رثاء سيدي الشيخ رضي الله عنه مما اطلعت عليه ومما بلغني مما يضيق على سفر استضافته فرحم الله سيدي الشيخ الذي لا يفيه حقه إلا صاحب الفضل سبحانه.

الشيخ أحمد سردار

عالم لم يتعن التدريس يوماً وإنما اكتفى بأنه كان القيم على المكتبة الوقفية إلى آخر حياته وربما كانت له دروس قليلة جداً لأفراد معدودين جداً وكان خطيب جامع

السبيل خلفًا للشيخ محمد أبو الخير زين العابدين وقد بقي فيه إلى آخر حياته أيضًا.

كان للشيخ توجه للسيرة والتاريخ وقد أكثر من الاطلاع فيهما وقد قرأ ابن عمي الشيخ محمد صلاح عليه فيهما وأجازه الشيخ السرداء في السيرة والتاريخ.

كانت معرفتي بالشيخ معرفة عادية وأعني معرفة لا خصوصية فيها وقد قمت بزيارة المكتبة الوقفية في معهد بالمدرسة الشرفية مرات للاطلاع والقراءة ونظرًا للمعرفة بيني وبين الشيخ ولقلة الزائرين فقد كان يجري الحديث بيني وبينه حول المكتبة وذكر لي وجود مخطوطات هامة في المكتبة رأيت بعضًا مما كان في متناول اليد ونظرًا لحرصه عليها فقد كان يتحفظ جدًا عندما يطلبها أحد منه وهذا أمر حصل معنا.

كنا أنا وابن عمي الشيخ صلاح نقرأ علم الفلك على عمي الدكتور عمر وكانت لنا حاجة بكتاب في الفلك مخطوط في المكتبة الوقفية يعرفه عمي فقال: قولا للشيخ أحمد إنني أريد هذا الكتاب لنصوره ونعيده إليه فهذا الكتاب

يفيدنا كثيراً في دراستنا هذه واتفقنا أن كنت والشيخ صلاح
فرأينا الشيخ السردار قرب المكتبة فبلغناه تحية عمنا ورغبته في
تصوير الكتاب المخطوط فقال: أنا سآخذه إليه وأعطيه
إياه فقلت في نفسي: لن يفعل لشدة حرصه على المكتبة
ومقتنياتها فبادرته بالقول: نحن المعنيون بالكتاب لأن
عمي يقرأ لنا علم الفلك وعمي سيعطينا الكتاب لنصوره
ونعيد الكتاب بعد تصويره قال: لا بأس يحصل إن شاء
الله فأنا أتعامل في التصوير مع مكتبة وأنا أتصرف فأخرجت
من جيبي مائة ليرة - ولكي نكفي لتصوير المخطوط ربما خمس
مرات - وقلت: هذه من أجل التصوير فقال: لا لا إن
عمك أخي وصديقي وهو طبيب العائلة وفي القريب
سوف أذهب إليه نزلنا عند رغبته ووعده ولم يف
بالوعد ولا وعده كأننا فعلاقته بعمي على الأقل حميمة
لكن سامحه الله وبالنسبة لنا لم يكن الأمر عسيراً فقد أتينا
بأكثر من كتاب وتابعنا درسنا مع عمي.

لقد كان الشيخ أحمد حريصاً على المكتبة محافظاً عليها فهو
إنسان عالم وهو يعرف أن يده هي التي تحفظ ما بقي

الشيخ أحمد السرداح

في هذه المدينة من

المكتبات

التي هي كنوز العلم ودور المعرفة وهي ذخائر العقول ومنار الأفهام ولها في التاريخ تاريخاً كيف لا ولها المحبوب فهي الجليس الأنيس وهي التي تجد منه بيلبها وهي الصديق الذي يأتيك كلما دعوته ليفيدك بالنفع ويذهب عندما تتركه دون أن يجد عليك فهو أفضل جليس للإنسان وقد صدق الشاعر إذ يقول :

خير مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

ولئن أفاضوا في الكتاب مديحاً فإن أحد أصحابه

بالمنزلة من السابقين أو اللاحقين ولا عبرة لشاء يطرح منها إذ هو الأقل والأولى في المنافسة وقد قال أمير الشعراء أحمد شوقي

أنا من بدل بالكتب الصحابا لم أجد لي صاحباً إلا الكتابا

تجد الكتب على النقد كما تجد الإخوان صدقاً وكذابا

صاحب إن عبته أولم تعب ليس بالواجد للصاحب عابا

رب ليل لم نقصر فيه عن سمر طال على الصمت وطابا

وكأي مأثور محبب يكون إيجابياً أو سلبياً فأما السلب فيها فيتمثل في أمور ثلاث رئيسة وهي جاهل يفرط أو سارق يحسد مالك أو جائحة لا ترحم وهو ما تراه فيما أعرضه وأما الإيجاب فيها فهو الرغبة في اقتنائها .

وقد فعل ذلك الملوك والأمراء مما هو معلوم للجميع ونذكر قصة كتاب كليلة ودمنة وكيف نقل من مكتبة ملك الهند ولا يغيب عن الخليفة المأمون الذي أعطى على ترجمة كل كتاب وزنه ذهباً كما نذكر مما نعلمه أن القراصنة سرقوا مكتبة ملك المغرب عندما كان ينقلها بحراً واشتراها منهم الملك الإسباني وفيها أكثر من خمسة آلاف من نفائس المخطوطات وتم التفاوض بين الملكين على إعادة المكتبة مقابل أسرى عند ملك المغرب الذي لم يوافق وبقيت المخطوطات في مكتبة الإسكوريال إلى يومنا .

فهذه مكتبة أخذها قرصان (سارق البحر) وباعها إلى الملك .

ومن المكتبات العامرة العظيمة مكتبات الأندلس التي وضعت في الساحات العامة وأحرقت عندما سقطت الأندلس ١٤٩٢ وكان أحد أمراء القساوسة رأى منظر الإحراق فاستنكر فعلهم فقالوا:

هذه كتب الإسلام فقال: لا هذه كتب علم وليست كتب دين وأمرهم بالكف عن إحراقها ففعلوا إذ كان مسموع الكلمة عندهم وكانت النيران أكثر من ثلثي الكتب حسب رواية ولهذا الغش لصوص الدسائس في جامعات الأندلس ومطلع على المكتبات فيها ويجب أن نعلم أن نعلم أن البقية الباقية من الكتب في الأندلس هي المركزات الأولية والأساسية للحضارة في أوربا كلها إذ كانت قبلها ترسف في ظلمات الجهالة .

إن هذه البلية الكبرى لهذه المكتبات العظيمة في الأندلس أعنى عليها جهل الجاهلين وحقد المتعصبين فوقع التفريط فيها بهذا الشكل المريع .

وكشبيه بها ما حصل للمكتبات العامة في مصر أيام الدولة الأيوبية وكان ذلك على يد قره قوش(1) بغية الصالحة التي كان في مقابلتها

---

1 - قره قوش : رومي كان في الأناضول وهرب من ربقة الأسياد إلى بلاد الشام فدخل في خدمة الملك الناصر أيوب وكان مخلصاً جداً ووفياً جداً ودؤوباً على العمل جداً وقد أرسله الناصر أيوب مع ابنه صلاح الدين الأيوبي وأخيه أسد الدين شيركوه إلى مصر

صيادون ومخالفون .

قلت في الكلام على المدرسة الأحمدية[1] ومشكلة الكتب التي أخذت من المدارس الموقفية لدى إتباعها للدائرة الموقفية أن هناك الكثير من الكتب والمخطوطات والمقتنيات كانت في عداد المهاجرين في بلاد

لإزاحة الفاطميين فقام بإصلاح الأسوار وشق الطرق وبناء الجسور والقلاع بدأب لا يفتر ليلاً ونهاراً كل ذلك لحرب الصليبيين وقد أسر الصليبيون فافتداه صلاح الدين بأربعمائة أسير أراد قراقوش إصلاح المكتبات فأتاه (الناصحون) الدجالون فاستخلصوا من المكتبات بعضاً من نفائس الكتب اشتروها بأثمان بخسة غشاً وتدليساً فكانوا يفرقون بين أجزاء الكتاب الواحد إلى أكثر من مكان في المكتبة ويقولون لهذا الكتاب ناقص فلا يجوز أن يبقى في مكتبة عظيمة كهذه فيقنعوه بالبيع على أن يعوضه بما يجمع من المال ويفعلون ذلك في الأجزاء المتممة وبذلك حصلوا على النسخ الكاملة للنفائس هذا النوع من التدليس سرقة مقنعة فكل كتاب يخرج من باب المكتبة هو خسارة سيما إذا كان وحيداً فريداً ليس له صنو ولن يهتدي إلى طريق العودة عادة .

١ ـ المدرسة الأحمدية : انظر ص ٣٨٩

الله الواسعة ولم يكن الأمر خافياً على أحد فوجهت الاتهامات جزافاً وما يهم في الموضوع الاتهام الذي أشاعه البعض عن تورط الشيخ أحمد الزرقا[1] في التصرف بكتب المدرسة الحلوية[2] وهذا اتهام خطير جداً ومرفوض وسألت والدي وهو من تلاميذ الشيخ ومن المعاصرين للحدث فقال: لقد كان شيخنا على معرفة ببعض محتويات المكتبات الوقفية العامة التي يحتاجها في بعض الأحيان فيذهب

---

١ - الشيخ أحمد الزرقا: انظر ص ٢٢٥

٢ - المدرسة الحلوية: مقابل الباب الغربي تماماً للجامع الأموي الكبير وهي إحدى الكنائس الأربع التي تحولت إلى مساجد في مدينة حلب والثانية جامع المدرسة في سوق البهرمية والثالثة جامع الحيات خلف خان الوزير والرابعة جامع المدرسة أيضاً في باب النيرب وهو مقر للبادنجكية وطريقتهم القادرية والمدرسة الحلوية قامت بنائها القديسة هيلانة والدة الملك قسطنطين ويرى الداخل إلى بابها على يمينه حجراً أسود وعليه صليب مربع بينما الحجر من مقلوب في نفس مكانه يقال إنه كان يوضع فيه الطعام للمحتاجين وعندما آلت للمسلمين جعلوها مدرسة وكانت أيضاً لها مكتبة عامرة.

إلى هذه المكتبة أو تلك عند الحاجة فيطالع في الكتاب الذي يرغبه وقد يأخذ أحد الكتب إعارة ثم يعيده وهو بذلك كغيره من قاصدي هذه المكتبات بل للشيخ حظوة فهو فقيه الأمة وهو العبد الصالح التقي وعندما جمعت المكتبات في المكتبة الوقفية لم يكن مكلفاً بأي عمل يتعلق بالكتب حتى المدرسة الشبانية التي كان هو شيخها لم يتدخل في أي من موضوعاتها فهو رجل علم وعمل فقط ولا أحد يعجب لمثل هذا الاتهام الذي أشاعوه بكل بشاعة ربما لأن بيته على بعد أمتار من الباب الشمالي للجامع الأموي وهو نفس البعد عن المدرسة الحلوية فإن من لم يتأثم من سرقة مال الوقف اتراه ذلك التقي الورع الذي يتأثم من إطلاق الاتهامات زوراً وكذباً وبهتاناً على أشراف الأمة من العلماء الأفاضل يكفي القول :

لو أن كل كلب ألقمته حجراً   لأصبح الحجر مثقالاً بدينار

وأنا أعرف بعضاً ممن تصرف بالكتب الوقفية رغم عدم معاصرتي لكن من فضول التتبع لذلك سألت والدي عمن تصرف وعمن أطلق الاتهامات فلم يجب قلت : أريد أن أعرف فهذه يوميات تاريخ فقال : الله المحاسب لهم جميعاً وأنا لن أدخل نفسي في غيبة أحد .

قلت إن الشيخ السردار حافظ على المكتبة الوقفية ثم إن

الدائرة الوقفية جهزت لها صحناً غاية في الجمال والأناقة وزودت المكتبة بأجهزة الكمبيوتر وتواردت الهدايا من الكتب والمكتبات إليها ومن المكتبات الخاصة التي وهبت مكتبة الدارس الباحث الأستاذ محب الدين الخطيب وقد جاءتها من عندنا مكتبات إحداهما مكتبة ابن عمي الشيخ محمد أبو اليمن غيالمة والأخرى ما بقي من مكتبة زوج عمتي الشيخ محمد الحوحه .

في الحرب الأهلية كما قلت أحرقت المكتبة الوقفية بعد سرقة مقتنياتها وأنوه إلى أن مكتبة ابن عمي الشيخ محمد أبو اليمن لو كانت باقية في بيته لذهبت لأن بيته هدم وكذلك الأمر بالنسبة لمكتبة زوج عمتي وكنت قررت أن أهب مكتبتي للمكتبة الوقفية لكنني أرجأت ذلك وقلت أجعلها وصية وعندما هدم مقدم البناء الذي أسكنه والمكتبة كلها في الواجهة الأمامية لكل الطوابق ولا أجزم بمصير الجزء الأمامي ومحتوياته فقلت في نفسي ليتني وهبتها للمكتبة الوقفية وبعد حوالي سنة وعندما احتلت المكتبة الوقفية قلت الحمد لله أنني لم أهب مكتبتي للمكتبة الوقفية إذاً لانتقلت إلى عالم الرماد والآن أعلل نفسي بأن شيئاً من مكتبتي ربما أو كلّها على قيد الحياة لا أدري؟ وأرجو من الله

وفي كل الأحوال فبعدي عنها يؤلمني أيما إيلام.(1)

لهذه وبعضه من آفات المكتبات وضمن علمي واطلاعي لهناك مكتبات خاصة تذكر في لهذه المدينة ذابت منها مكتبة الصديق عبد القادر عنداني ولهي ضخمة جداً ولا أدري ما حل بها بعد وفاته ومكتبة الفتالي وقد سألت ابنه عنها فقال: باعها الورثة ولهي مكتبة ضخمة تحوي ثلاثة عشر ألف مجلد فقلت لا حول ولا قوة إلا

1- للمناسبة فقد عرض علي بعد وفاة الشيخ أحمد السردار رحمه الله أن أستلم المكتبة الوقفية مديراً لها فلم أوافق لأن لدي أعمالي وأصروا علي بالاستلام وقالوا: أنت دارس شرعي ومجلد كتب وفيها ساعات وأنت مصلح ساعات وفيها مخطوطات وأنت صانع ورق ومرمم مخطوطات كما أن لك دراية بالمخطوطات من حيث ورق المخطوطة وخطها وزخرفتها وتذهيبها ولهذه المكتبة صرح شامخ نادر لا يجوز أن يتسلمه أي كان فوافقت بصورة مبدئية وفوجئت بأن القانون يقضي بأن التعيين عن طريق تسلسل الدور من مكتب العمل فوليت لها رأ [...] تكن صلتي بالمكتبة متينة وأنا من جمعية أصدقاء المكتبة الوقفية وأقدم خدماتي لها.

بالله .. وقس على ذلك .

وفي ظروف الحرب الأهلية سرقت الكتب من دار الإفتاء ومن المكتبات الخاصة في البيوت ورأينا ما عرض علينا منها وعليه اسم صاحبها ومنهم العلماء الأحبة الذين نعرفهم منهم الدكتور أحمد الحجي كردي حفيد مفتي حلب وما ذاك إلا لأنها في المناطق الملتهبة التي لا يستطيع أهلها دخولها لكن السارق يستطيع لأنه هو المستبيح لهذه البيوت من المقتنيات .

إن الحديث عن المكتبات وما فيها وما قدمت وعن حوائجها وسوء أقدارها وأحوالها له تاريخ يطول وما ذكرته نبذة فيها لبعض أمثلة عما هو حبيب إلى قلوبنا وهو الكتاب .

بقي الشيخ أحمد القيم على المكتبة الوقفية وفي أواخر عهده بها قيل بأن المخطوطات نقلت جميعها إلى المكتبة العامة بدمشق قلت في نفسي هذا لا يجوز لأن المخطوطات وقف بينما المكتبة العامة ليست وقفاً وتتبعت الأمر فكان أن المخطوطات نقلت إلى دمشق لترميمها في مركز الترميم في المكتبة العامة هناك ولم يكن مركز الترميم قد أسس في مدينة حلب وهم هناك كسالى في العمل

لذلك عندما أسس مركز الترميم في حلب أعيدت المخطوطات إلى حلب وقمت بترميم بعضها ولكنه لا أحد يدري ماذا حل بها فهي في المكتبة الوقفية المحروقة .

انتهت بالشيخ أحمد السرداء الرحلة في هذه الدنيا مفارقاً لها وللمكتبة التي حفظها بأمانة وكان ذلك في العقد الثامن من القرن العشرين رحم الله الشيخ أحمد السرداء .

شكر وعرفان بالجميل

بعد نقل المكتبة الوقفية من المكتبة الشرفية إلى مقرها الفاخر وبعد وفاة الشيخ السرداء تسلم إدارتها الدكتور محمود مصري وكان معظم العاملين في المكتبة والقائمين عليها هم من أصدقاء المكتبة وليسوا موظفين وأسجل الشكر والدعاء للأخ المحب تركاوي الذي خاطر بحياته وجلب كيساً لهاردات الكمبيوتر التي حفظت فيها مخطوطات وكتب ووثائق .. وأنا لست مطلعاً على المحفوظ فيها لكنه هذا ما تحتويه المكتبات عادة سيما وأنه الدكتور محمود عنده رغبة جامحة في التوسع في التوثيق وذكرت أنه بدأ بتوثيق مجموعتي الموسيقية المفقودة والمسروقة لننتقل بعدها إلى

توثيقه بمجموعة الخط العربي الكبيرة ونعود إلى القول قاتل الله الحرب فأنا لا أعرف ما حل بالمجموعتين النادرتين .

الشيخ مصطفى الترميني

عالم فاضل كان موجهاً في الثانوية الشرعية وله البعض من الدروس فهو أستاذي طبعاً لكنه هو أيضاً شيخي عندما كنت صغيراً لأنه صاحب الكتاب العائد إليه في جامع القري المتقدم ذكره مع الكتاتيب ص ٣٥ ولكن كنا نخشاه في الكتاب صغاراً إنما كان ذلك هيبة فهو لم يكن بطاشاً باليد والعصا وإنما كان جاداً ومعه أنس وعندما دخلت الثانوية الشرعية رأيته هو نفسه الجاد ومعه الأنس وأعني أنك ترتاح في الحديث معه في أي فيسمعك ويدلي رأيه في مسألة فيسمعك للآخر ولا يتركك حتى تتركه وقد أنهيت حديثي فيما جئت به .

كانت علاقتي بالشيخ وطيدة ربما لأنني كنت عنده في صغري ربما لأن والدي وأعمامي يدرسونه في المدرسة ربما لأن ابنه كان معي في صفي ولكنه كما وصفت ولم تكن هذه العلاقة

لتدخل في مرحلة الخصوصيات فعمله الإداري لا يعطي الوقت الكافي ومن ثم يذهب إلى جامع القرية حيث الكتّاب والإمامة .

زرت بيته مرات عدة لأنه ابن رفيق دراستي وعندما مرض الشيخ استدعت حالته الصحية نقله إلى أحد مشافي دمشق فذهبت إلى دمشق لعيادته في المشفى بمنطقة الحلبوني وتماثل الشيخ للشفاء وأتى إلى حلب وفي مدة ليست بالبعيدة عاوده المرض بالزيارة ولم يرحم شيخوخته فقضى في ستينات القرن العشرين رحم الله الشيخ مصطفى السرميني .

الشيخ ياسين سريّو الموقت

عالم من سلالة علم عرفت بلقب الموقت لأنهم توارثوا هذه الوظيفة عن الآباء وورثوها الأبناء إلى أن وصلت إلى الشيخ ياسين والشيخ ياسين الموقت رجل يعتقدون فيه الولاية وينسبون إليه الكرامات وهو دائماً في وحدته لا يخالط أحداً من الناس ويستقبل قاصديه للقراءة والاستشفاء أو ليقرأ لهم على ماء يأخذونه ليشربه مريضهم أو للاستخارة .. الخ في غرفة بيته والتي هي على

يمين الداخل في الممر المؤدي إلى صحن الدار وقد درته فيهامرة واحدة وأنا في سن مبكرة ويأتونه قاصدين غرفة في الرواق الشرقي من الجامع الأموي الكبير(1) هذا بالنسبة لقاصديه بحذه

---

1 - الجامع الأموي الكبير : تم بناؤه في عهد بني أمية على رقعة من الأرض تم شراؤها إذ كان قسم منها حديقة للمدرسة الحلوية عندما كانت كنيسة وهو إلى يومنا الجامع الأكبر في المدينة وقد ظل الجامع محافظاً على هيكلية بنائه الأموي ودخل التجديد فيه على وجه اللزوم في بعض نجارة الأبواب وأساليب الإنارة لدى دخول الكهرباء وكانت عمليات الترميم الثلاث التي شاهدتها فيه على مدى عمري الذي عشته تحافظ بكل دقة على الأصل ما استطاعت كانت عملية الترميم الأولى في أوائل الخمسينات وامتدت إلى أقل من ستة أشهر وعملية الترميم الثانية في أواخر الستينات ودامت أكثر من ستة أشهر أما عملية الترميمات الثالثة وكانت في الثمنينات واستمرت لأكثر من سنتين وكانت واسعة جداً شملت ما تحت الأرض من تدعيم لأصول البناء وما فوقها بناء ونجارة وكهرباء .. الخ حتى عاد مجلياً كالعروس في الترميمين الأولين ←

الغاية أو لسبب آخر أما الذين يقصدونه تبركاً فكنت أراهم وقوفاً وجلوساً أمام وحول غرفته في الرواق الشرقي للجامع وهم يحركون شفاههم ربما بالتوحيد أو بالذكر أو بتلاوة القرآن الكريم.
كنت أرى الشيخ يخرج من غرفته قبيل وقت الظهر أو العصر حسب

أذكر أنهم تكلموا في موضوع فك المئذنة وترقيم أحجارها وإعادة بنائها لأن فيها ميلاً بقدر ١٠ سم - هكذا سمعت - إلا أنهم عدلوا عن ذلك لأنه طبيعي بالنسبة لرقعة قاعدتها وهو طبعاً لا يخرج بها عن خط التوازن ولا أدري إذا جرى مثل هذا الكلام في الترميم الثالث لكنها نالها الترميم اللازم دون هدم أي حجر منها كما شاهدت وأقول ولا يلومني أحد إذا أعدت مراراً وتكراراً أنها هدمت سنة ٢٠١٣م ١٤٣٥هـ فوالله ما ذاك لذاتها وحسب بل لأنها أقدم وأطول عنوان أثري إسلامي في مدينتي فهي رمز للأبنية الأثرية في هذه المدينة والرموز الحضارية لا يخفى عليها إلا مغرض أو جاهل أو حاقد فهي من رموز حضارة الأمة الإسلامية وهذه المئذنة ظلت شامخة أربعة عشر قرناً دون أن يجهلها الوقوف أغتالتها يد الإثم والبغي أرجو أن أرى المئذنة وقد أعيد بناؤها مع عودة الأمن والسلام.

تواجده في الجامع يحمل بيده ساعة الجيب ينظر إليها ومن ثم ينظر إلى امتداد ظل الشمس على درجة كبيرة أمام الرواق الشرقي فإذا - حسب علمه - دخل الوقت أشار إلى المؤذن وذلك برفع يده اليمنى ويقول: خود أي أذن والمؤذن يراه جيداً لأنه واقف أمام باب الغرفة التي يصعد من درج داخلها إلى المئذنة وهي في آخر الجهة الشمالية قرب الزاوية الشمالية الغربية جانب باب الجامع الشمالي فإذا جاءه الإذن من الشيخ دخل الغرفة وبدأ الأذان وذلك بعد أن يعطي :

الإشارة بالأذان

وهي طريقة ابتدعوها لتوحيد الأذان في المدينة كلها ولا تعود إلى زمن بعيد لأن الوسيلة فيها هي الكهرباء(1) فكان المؤذن يبدأ

1- الكهرباء: نبت أنوارها في مدينة حلب سنة ١٩٢٨ بإنشاء أول محطة لتوليد الكهرباء في المدينة وهي أيام الانتداب الفرنسي وكانت شركة مساهمة أممت سنة ١٩٥٤ ودفعت الدولة قيمة أسهم المالكين ولا تزال المحطة قائمة كأثر بنائها ومولداتها أمام الحديقة العامة وقد بلغت سن التقاعد.

الشيخ ياسين سريو «الموقت»
الإشارة بالأذان

أذانه ولهوين غدغ مفتاح كهرباء فيضيء مصباحاً كبيراً في قمة المئذنة فيراه المؤذنون في الجوامع الأخرى فيؤذنون .

قبل ظاهرة الكهرباء واستعمالها في قمة المئذنة مع الأسطوانة الحمراء كان الأذان يصل المدينة سماعاً ولهذا الصوت الحاصل بوجود المكبرات فعندما يؤخذ الأمر بالأذان ينطلق صوت المؤذن من الجامع الأموي الكبير فيأخذ عنه المؤذنون الذين يصل الصوت إليهم ويأخذ عنهم الذين يلونهم وهكذا .

إن المصباح إذا أضاء أشعر بدخول الوقت لكن تضاريس المدينة لا تسمح لكل المؤذنين برؤية الإشارة الضوئية فعمدوا إلى وضع إشارات ضوئية على المنارات المرتفعة لبعض المساجد في المناطق الرابية المرتفعة كمثل جامع الكلتاوية ومئذنة جامع القلعة الذي تصله الأسلاك بجامع المحوي الذي تحجبه القلعة عن رؤية مئذنة الجامع الكبير فيأخذ من جامع الكلتاوية ويصدح المنشد أديب الدايخ بأذانه غاية في العذوبة يأخذ بالمسامع ويجتذبها لأن مئذنة القلعة تحمل إلى جانب ضوء الإشارة مكبرات ضخمة وأذكر أننا نتوقف عن الدرس في الثانوية الشرعية لإجابة المؤذن وبعد أن ينتهي مؤذننا في الثانوية نظل متوقفين لنستمتع بصوت

الشيخ ياسين سريو "الموقت"
الإشارة بالأذان

أديب الصائغ البديع .

كانت إشارات الروابي المرشدة للآذن القيفان وعندها فالأذان ينطلق في وقت واحد تقريباً في المدينة كلها ومع ذلك فإن بعض الجوامع المحجوبة الرؤية بسبب شواهق البناء وعندئذ فمؤذنوها يعرف كل منهم صوت أقرب مؤذن يرى الإشارة بالأذان فإذا سمع صوته يؤذن رفع بدوره صوته بالأذان .

وقد عمد خالي محمد سريو - يوجد رضاع - بعد وفاة والده الشيخ ياسين فوضع في ذروة المئذنة شكلاً أسطوانياً أكبر من البرميل لونه أحمر مثبت كعتلة متمفصلة يصل حبلها إلى غرفة المؤذن الذي يشد الحبل فترتفع الأسطوانة إيذاناً بالأذان وذلك في أوقات النهار أما في أوقات العتمة فالضوء هو الوسيلة الوحيدة للإبلاغ .

الخال محمد أبو ياسين آخر الموقتين في مدينة حلب ارتحل إلى السعودية وأنشأ عملاً للأولاد هناك وبلغني مؤخراً نبأ وفاته رحمه الله الذي كان متزامناً مع اغتيال مئذنة الجامع الأموي الكبير .

كان الشيخ ياسين يبيت وقد أنفق ما عنده من موارد يومه على الفقراء والعوائل المستورة وكانت رتابة حياته على هذا الشكل وقد وقد شارف على إنهاء عقده الثامن فارتحل أواخر ستينات أو أوائل سبعينات القرن العشرين يرحمه الله .

الشيخ عبد الوهاب سكر

عالم فاضل تخرج من جامعة الأزهر كان مدرساً في الثانوية الشرعية وهو في الوقت عينه كان مديراً للمدرسة الشعبانية وهو آخر مدير لها وقد انتهت إدارته عندما تقرر إغلاق المدرسة وإلحاق طلابها بالثانوية الشرعية فبقي الشيخ مدرساً في الثانوية الشرعية ثم في المدرسة الشعبانية عندما افتتحها سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين تحت اسم جمعية التعليم الشرعي وبالنسبة لي فأنا لم أحظ منه في الثانوية الشرعية بغير مادة السيرة النبوية المباركة مع أنه يدرس عدداً من المواد .

وفد الشيخ إلى حلب من بلدة الباب وأقام في حلب والشيخ له حضور اجتماعي كبير في الباب رغم إقامته في حلب فقد

سعى غير مرة بالإصلاح بين فريقين كبيرين وحسم الخصومة بينهما لما يحظى به من أناة وروية وفي الوقت ذاته ما يتمتع به من احترام وتقدير .

رشح نفسه يوماً لعضوية المجلس النيابي ففاز من الناجحين وشغل مقعداً في المجلس .

يجمع لين كلامه وتواضعه إلا أن رزانته أكبر من أريحية الطالب وهي الأريحية المرضية بين الأساتذة والإداريين وربما كان هذا هو السبب في عدم وجود خصوصيات لأحد من زملائي الطلاب مع الشيخ إن هي إلا علاقة الطالب المحب مع الأستاذ المحترم الذي يكن له التقدير والمحبة .

توفي الشيخ عبد الوهاب سكر في العقد الثامن من القرن العشرين رحمه الله تعالى .

الشيخ عبد الله سلطان

عالم جليل كانت له إمامة وخطابة جامع السيمي بجوار بيته حول القلعة وله درسه العام في الجامع الأموي الكبير وقد حضرت درسه مرات عدة .

والشيخ منغلق على الناس ومنفتح كل الانفتاح على ثلة من الأحباب وهم تلامذته الذين لا يكادون يخلون بيته ومن فقته من أحد منهم(1).

لئن كنت حضرت درسه العام في الجامع الأموي الكبير إلا أنني فشلت في حضور مجالسه الأخرى الخاصة بتلامذته وقد تنسمت الخبر عن إقامته مجلساً للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في موعد منتظم بمنزله فذهبت وطرقت الباب ثلاث مرات فلم يفتح لي. والحضور من أنه لا أفهم لأنه إغلاقه يعني أنه مجلس خاص. فقفلت راجعاً ولم أخف وسألت صديقاً لي ممن يحضرون مجالسه فقال هو مجلس خاص قلت: لا مانع وأنا احترم الخصوصيات لكن هل من مانع في حكاية ما هو داخل هذه الخصوصية؟ وحكى لي صديقي ما وراء الحاجز...

كانت الخصوصية التي سميتها انغلاقاً هي خصوصية كلية

---

1 - تزوج الشيخ لبضعة أشهر في شبابه ثم طلق قبل أن ينجب فهو يعيش في بيته وحيداً فلا حرج في ملازمة إخوانه له في البيت وقد تتبعت مسألة زواجه وطلاقه ومن أي عائلة تزوج فلم أفلح لأنه

فالشيخ لديه عدد قليل من الخواص ولا يريد التوسع في الكم فهو كشيخ لهم يتعامل معهم كأفراد عائلة له لهذا السبب ومجلس الخاص سواء كان مجلساً للوعظ أو للمولد الشريف فإنه لم يكن المجلس العام الذي تحكمه الآداب العامة وإنما هو كالمجلس العائلي تحكمه الآداب العائلية لذلك كان مجلساً محافظاً فيه على الخصوصية .

كان الشيخ ميسور الحال وكان كريماً ويحب إطعام الطعام سواء كان ذلك في بيته أو عندما يخرج بأصحابه إلى مزرعة له حول المدينة فقد كانت للشيخ درايته الواسعة بفنون الطبخ فكان يعد الطعام له ولتلامذته أو بيدهم ولكن بإشرافه وتوجيهه .

قد يجيب الشيخ دعوة داعيهم مع الإخوان ضمن شروط فإذا كان الداعي فقيراً لتلافت هذه أمور الضيافة التي سيجهد أن تكون مناسبة لمقام الشيخ وإخوانه وقد يجيب ضمن شروط عدم التكلفة محذراً إياها أو قد يرسل إليه ما يراه مناسباً كي لا يرهقه أما إذا كان الداعي على يسار فقد يجيب الشيخ لكن ضمن شروط محددة وأمور معلومة مرسومة .

قلت: لقد زارك الشيخ في بيتك يوماً هو وبعض إخوانه فما هي الشروط التي اشترطها الشيخ؟ قال: كانت رغبة الشيخ اقتصار المجلس على البعض من إخوانه هو الذين يحددهم وأن لا ندعو أحداً من طرفنا ليظل المجلس خاصاً وأن لا نضع طعاماً ونقتصر فقط على الفواكه والشاي وأن نزين قاعة الجلوس كمثل زينة الحجاج ونكثر الأضواء وقد فعلنا ذلك ولم نخالف شيئاً مما ذكر في الرغبات وقد جاء الشيخ والإخوان ومعه كيس فيه دقة[1] صنعها بيده وفي الجلسة وزعها على الحضور

---

١ - الدقة: تصنع في السودان عادة من القضامة التي تطحن ناعمة جداً ويضاف إليها قليل من ملح الليمون وملح الطعام وبعض الإضافات ذات النكهة وهي تختلف من منتج لآخر وكل منهم يضع حسب اختياره ومنهم يضيف إليها القليل من الفليفلة لتأخذ النكهة الحارة بالدرجة اليسيرة جداً فتكون مقبولة عند الصغار .. أما التي يصنعها الشيخ فلذيذة جداً وهي بتقديره من بذر البطيخ يطحن وينخل وتضاف له إضافات ترفع نكهته إلى درجة لذيذة جداً لكن ما هذه الإضافات؟.. الله أعلم

وكان المجلس وعظاً ومديحاً للنبي صلى الله عليه وسلم .

قلت في نفسي هذا المجلس محمدي لأنه اقتداء بالنبي في إطعام الطعام إكراماً للضيف أيأكان الطعام ولأنه اقتداء بالنبي فيما جاء به وعظاً وإرشاداً وتعليماً وتوجيهاً ولأنه احتفاء بالنبي بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم وبمديحه وإضفاء الزينة والأنوار وهي مظهر يعبر عن البهجة والسرور بسيد الخلق صلى الله عليه وسلم .

هكذا رأى الشيخ أن الصفاء في الاصطفاء فكان له اختيار لثلة من الأحباب اجتمعوا - كما قدمت - كعائلة واحدة ظلت قائمة على العهد الذي بقي فيه الشيخ بينهم .

لم أكرر المحاولة في الدخول إلى عالم الشيخ لأنني سألت وعرفت أن الذي قدر لي من خير الإخوان يكون بسبب إذنه وموعده ومع ذلك فهو نادر لذلك لم أعاود الكرة لأن خصوصية الشخص تهمني أكثر من خصوصية المجلس وقد نتعرف على جانب لا بأس به من خصوصية شخصه .

انتظم الشيخ في قائمة الراحلين عن دنيانا في العقد الثامن من القرن العشرين يرحم الله الشيخ عبد الله سلطان .

الشيخ ابراهيم السلقيني

عالم جليل وهو سمي جده الشيخ الذي كان شيخاً لجيل أساتذتنا وعلمائنا الأفاضل .

كان الشيخ إبراهيم مديراً لمدرستنا الثانوية الشرعية يوماً عندما كنت طالباً فيها والشيخ كان له نشاط فاعل في التدريس العام والخاص ثم إنه فيما بعد رشح نفسه لعضوية المجلس النيابي (مجلس الشعب) فحاز على كرسي فيه وكانت له مساجلات كثيرة مع المسؤولين كان يناقش فيها عن القضايا من الزاوية الشرعية ولم يأل جهداً وأعرف منها واقعات عديدة كمثل المساجلة بينه وبين وزير الدفاع السوري وقتها مصطفى طلاس(1) بشأن إطلاق اللحية حيث يحظر على العسكري إطلاق لحيته .

---

1 - مصطفى طلاس : وزير الدفاع السوري لأكثر من عشرين سنة من بلدة الرستن كان ضابطاً في سلاح المدرعات رفقة الأحداث والاضطرابات المختلفة وذلك عندما كان في حمص ودخل بدباباته إلى فرع الشرطة العسكرية وقبض عليهم بسبب حادثة مخجلة في ليلتها من أجل المطربة سميرة توفيق وضابط سكير ... ووصل الخبر إلى العاصمة فأوصى ⇐

كان أستاذنا الشيخ ابراهيم قد تابع أنذاك أخذ الدكتوراه من مصر وكان مدرساً في كليات الشريعة بدمشق وحلب كما أنه ارتحل الى الخليج

بالتهدئة حيث أن هناك قدراً على النار والطبيخ لما ينضج بعد وعندما جرى الإنقلاب على أمين الحافظ وتغير النظام صار مصطفى طلاس رئيساً للأركان بعد ترفيعه إلى رتبة لواء وبعد سنوات صار وزيراً للدفاع ورفع إلى رتبة عماد وأحيل إلى التقاعد في سن متقدمة وفي أيام الحرب الأهلية غادر سورية ثم إن ابنه انشق والجوبرية عميد في القصر الجمهوري وهرب من سورية .

وضع مصطفى طلاس اسمه على العديد من المؤلفات مثل الرسول العربي وفن الحرب والكتاب الموسع عن الورود والزهور ..الخ وفي قناعتي أن الكتب التي يوهم أنه ألفها هو لا يجيد قراءتها ومن قام بالتأليف إنما هم أناس مساكين كانوا يؤدون الخدمة الإلزامية وكان قد أسس داراً للنشر أسماها (دار طلاس) كانت تأتي بكتب تحتوي الخط المفروض على عناوينها أو على مؤلفيها وكان يرسل الشاحنات العسكرية إلى لبنان لشراء الورق ولوازم المطبعة فتأتي أرتالها محملة بكميات كبيرة وتدخل دون

للتدريس هناك ورجع إلى سورية وكان آخر المطاف أن اختير

أي رسوم طبعًا لهذا عدا عن تجاوز الحصص المقننة التي تعطيها الدولة من الورق للمطابع وصناع الدفاتر بقيمة ثلاث ليرات سورية للكيلو وكان يباع في السوق السوداء بثلاثين ليرة. إن لهذا الجانب وحده كان لا يثري ثراءً فاحشًا وبعد تقاعده اضمحل نشاط الدار وأما أعرفه شخصيًا فهو قد لا يستطيع التكلم بالفصحى خمس جمل لأنه لم يستطع النهوض بثقافة عن المستويات المفرقة في الشعبية ورأيته في مقابلة تلفزيونية بعد تقاعده وقد أجريت في منزله فكان حريصًا جدًا على أن تكون في غرفة المكتبة ويدخل في حديثه الكلام عن كتاب أو مؤلف فينهض ليجلبه بحيث تظهر جوانب مكتبته والكاميرا تتبعه.

لهذا هو شرف العلم فكل فرد يريد أن يظهر بمظهر العالم وإن لم يكن كذلك لكن العلم في أربابه لا يخفى كما أن المدعي لا يخفى فالمرء مخبوء تحت طي لسانه فإذا تكلم عُرِف ويروى أن عالمًا من فاس زار المدرسة العثمانية فاحتفوا به وتبين أنه مدعٍ فقال فيه أحد الظرفاء:

أتانا رجل من أهل فاسٍ يجادل في العلوم وفي القياسِ
وما فاس ببلدته ولكن فسا ليفسو فساءً فهو فاسي

لتعيينه (مفتي محافظة حلب) وكان ذلك بسعي الشيخ أحمد بدر الدين حسون مفتي الجمهورية فالشيخ إبراهيم أستاذه وأستاذنا جميعا .

بقي أستاذنا الشيخ ابراهيم في منصبه لهذا سنوات قليلة جداً حيث ألم به المرض وأدخل المشفى غير مرة إلا أنه لم يقاوم مرضاً غلبه وكان في المرحلة الأخيرة من الرحلة في هذه الدنيا التي ارتحل عنها في سنة ٢٠١١ في بدايات الحرب الأهلية . رحم الله أستاذنا الشيخ إبراهيم السلقيني .

الشيخ محمد السلقيني

عالم جليل هو ابن الشيخ إبراهيم السلقيني أستاذ جيل العلماء أساتذتنا ووالد الشيخ إبراهيم أستاذنا .

الشيخ محمد السلقيني كان أستاذ الفقه الحنفي والأصول في الثانوية الشرعية وكان على غاية من الوداعة محبوباً من طلابه ومن الناس لذلك كان مسجده يغص بهم في دروسه العامة وفي صلاة الجمعة .

كان الشيخ على الغاية من التواضع يجيب دعوة الداعين

على كثرتها وغايتهم التبرك بوجوده وقد حضرت من هذه المجالس العديد وهي لا تخلو من كلمة يلقيها على غاية من البساطة التي تناسب الحضور فترى آذاناً مرهفة وأعناقاً مشرئبة وفي العموم فإن الشيخ يحظى بكل الرضى والتقدير والاحترام لعلمه الغزير المتمكن فيه سواء كان ذلك في الأوساط العلمية أو الشعبية .

كانت العلاقة مع الشيخ هي العلاقة العلمية العامة وحسب وهو من هذه الناحية قد أفاض وأجاد وأفاد .

ارتحل الشيخ عن دنيانا في أواخر العقد الأخير من القرن العشرين يرحم الله شيخنا الشيخ محمد السلقيني .

الشيخ وجيه السيد

عالم فاضل لم يلتفت إلى التدريس وإنما التفت إلى العمل التجاري فكانت لديه مكتبة ومطبعة الاستقامة وقد كان زميلاً لوالدي في الدراسة في الخسروية وهو خريجها أيضاً .

كانت له إمامة جامع باب النصر وكانت مكتبته هناك مقراً للفتوى حيث يرجع إليه أهل سوقه فاسمه وغيرهم عامة

ومثل هؤلاء العلماء بين الناس يكونون قدوة بعلمهم وعملهم فهم يقتبسون منه حاجتهم من العلم ويتعلمون سلوكه الشرعي.

ذكرت العديد من علمائنا الذين توجهوا إلى العمل الحر تجارة أو صناعة أو غير ذلك وكان جليًا لدينا أن أرباب العلم والدعوة والإرشاد لا يعيقهم الزمان ولا المكان عن مهمة الدعوة سواء كان قيامهم في الأمور العلمية أو الأمور العملية لذلك ترى بأن العلم خير كله ورجاله الصالحون هم خيار الناس قال عز وجل يصف هذه الأمة بقوله: كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر.

تقدمت السن بالشيخ ودب الوهن في جسمه إلى أن ارتحل في سنة ٢٠٠٤ رحم الله الشيخ محمد وجيه السيد.

الشيخ محمد الشامي

عالم ارتضى لنفسه منهجًا وهو الحظوة لدى أرباب السلطة وأعوانها وما ذاك إلا لخدمة العامة ومصالحهم كان هذا ما رأيته منه في مواطن كثيرة ولكثير من الأشخاص فقد

كانت له أياد بيضاء في إلغاء غير قرار صادر بإيقاف المدارس الشرعية التي تتبع الجمعيات - الشعبانية والكلتاوية - حيث يبادر إلى مصادر القرار في العاصمة فوراً ويستصدر الإذن بالسماح للمدارس الشرعية بالاستمرار. وترى في مثل هذه الواقعات تنازع النقيضين.

الخير والشر

إن هذه القرارات كانت تصدر في السلطة من واحد من أبناء حلب ومن عجيب المفارقة أنه كان ذات يوم مدرساً في الثانوية الشرعية وهو أكثر من غيره اطلاعاً على المناهج ما هو تعليمي منها وما هو سلوكي وتربوي وهو الذي رأى ذلك بعينه وعاشه بنفسه والمفروض أنه يجب أن يميز الخبيث من الطيب لأنه كان مدرساً في المدارس الأخرى أيضاً لكن رأينا عندما تسلم حبائل السلطة أراد القضاء على المدارس الأشرف والأقدس في بلدنا وهي الشهادة من مسؤول مثله أو أعلى منه مرتبة عندما نطق بها فيما تقدم من حكايتي من خروج طلاب المدرسة الشعبانية وأنا معه في سيارته وهو كما

فلست ابن عمي الذي توقف ينظر إليهم بغاية الإعجاب من أدب يتمتعون به ورزانة الشيوخ تزينهم ومظهر جيد تأنقوه أليس عجباً أن يحاول المأفون الخبيث ذاك إلغاء أشرف وأرقى معاهد علم في البلد؟ لكن الله تعالى جعل كيده في نحره وكتب لها البقاء رغم أنفه وكيده وكتب له الشقاء بسوء فعله وهو القائل سبحانه: ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ثم إنه صار في عداد الهالكين وما رأيت أحداً ذكره بالرحمة أو ذكره بخير أبداً إذ لم يكن المفسد الأكبر بإلغاء المعاهد الشرعية الشريفة المباركة وحسب بل لأنه كان المتغطرس والبعيد عن الجميع ولذلك لم يتوجه إليه أحد بالرحمة من الله عليه بعد هلاكه أحد فلم يكن يحظى بالحمد أو الشكر في حال حياته من أحد فهو الذي رأى بعينه في حياته تجافي الناس عنه لتجافيه عنهم وكان عليه أن يتذكر أن سمعة المرء أطول من حياته فلئن قدم لقومه خيراً كانت سمعته بهذا الخير باقية بعد حياته وإن قدم غير ذلك فإنه لا يبقى له بعد موته إلا ما قدم هذا ليس عند الناس بل وعند رب العزة سبحانه فإن الإنسان عندما يدخل قبره لا يصاحبه فيه إلا عمله فبئس ما قدم لنفسه أن

أراد محو بذرة الدين في البلد فتكلس في الدنيا بفضل الله وله عند الله ما يستحق ثوابا ومهيأ له إن شاء الله .

ولئن كان طوى كشحه عمن خرج من بينهم فالحمد لجميله وسود الفعل والخلق فالجاهلي في الفعل والقول أحمد فهو أخو الشهامة والنجدة والمعونة أليس الجاهلي زهير هو القائل :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم

ألم يكن الجاهلي على جانب من الخلق الكريم؟ بلى فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

ولا خلق لهذا الشخص ولا دين ولا شرف ولم أشأ ذكر اسمه كي لا أقع في محظور ولكنني تذكرت قول النبي صلى الله عليه وسلم : اذكروا الفاجر بما فيه فإن من مآثره أنه أراد الزواج بثانية تقارب سن أولاده فرفضته وأمها وأبوها وهو عندئذ في قمة هرم السلطة فقرر إلقاء الجميع في قعر ظلمة فقال لي أخوها وهو من تلامذتي الأوفياء لقد أعددنا العدة للهجرة قبل أن يطالنا بظلمه وقد هاجروا ولم أعد أرى واحدا منهم حتى اليوم وقد كانت هجرتهم منذ ثلاثين سنة تقريبا ولم يعد منهم أحد إلى الوطن رغم مضي أكثر من ست سنوات على وفاته فهو

الشيخ محمد الشامي / الحيدرالشر

محمد زهير مشارقة نائب رئيس الجمهورية .

لا زلنا اليوم نتغنى بكلمة زهير التي ذكرتها في البيت السابق ونطرب إلى يومنا ونحن نتغنى بوفاء السموأل ونذكر بكل العجب الإيثار الأعظم في تاريخ البشرية في قصة حذيفة العدوي .. الخ وأقول على مثل هذا أسفاً على من يلفظ الإسلام فلم يعمل بهديه واتبع سبيل سيده إبليس وأولئك الجاهليون الذين ليس لهم من دين يرشدهم فطالما في بعض ما هدا الهم عقلهم إليه في الخير فليضع الإنسان نصب عينيه أن مسؤول عن نفسه وبيته وجاره ومن .. الخ فمن شاء فليحسن ومن شاء فليسئ فإن الفد هو يوم الحساب عند الله يوم تبيض وجوه وتسود وجوه وفائز الفد هو الفائز .

لكن كان الشيخ محمد الشامي قد سعى في مصالح المعاهد الشرعية بحلب في هذا الموضوع وغيره فقد كان له سعيه الذي لم يطلبه منه أحد بل بمبادرة منه لاقتناع عدد من المدارس الشرعية التي تتبع وزارة الأوقاف أعرف منها الإعدادية الشرعية بالفردوس وقد درست فيها سنة واحدة سداً لنقص الأساتذة وكان مديرها

زميل الدراسة محمد رشو الذي قال يوماً للشيخ محمد صهيب الشامي وكان مديراً للأوقاف لهذه المدرسة بذرة أبيك فقال الشيخ صهيب : وهي في يد أمينة وكان صادقاً

كان الشيخ لا يتوانى عن حضور مجالس العلماء ويتردد إليهم وخاصة مجالس الشيخ محمد النبهان ومجالس علمائنا فيها تنوع بين درس علم أو مولد نبوي شريف أو مجلس قرآن وكان للشيخ أحمد الإدلبي مجلس قرآن في الجامع الأموي الكبير في رمضان بعد الفجر وكنت أحضره أحياناً حيث يجلس الجالسون على يمين الداخل إلى الجامع من الحمص - أي من الباب القبلي - حيث يكون على يسارهم مقام سيدنا زكريا عليه السلام وقد روى لي أحد الحاضرين يوماً أن والدي حضر هذا المجلس - وهو يحضره كلما تيسر له ذلك - وكان أيضاً الشيخ محمد الشامي أحد الحضور وفي سنة الشيخ الإدلبي أن كل حاضر في الجلسة يجب أن يقرأ غيباً أو حاضراً حتى الشيخ نفسه حيث يبدأ بقراءة عشر ثم يسير دور القراءة عن يمينه إلى أن تختم الحلقة عنده من جهة اليسار فيختمها بقراءته أيضاً وفي هذه الجلسة ملاحظات بالتجويد بالدرجة الأولى وفيها أحياناً ما يقتضي التفسير

أو الموعظة وكان أن قرأ الشيخ محمد الشامي وأحتفظ شيخ المجلس لوالدي بالقراءة لتكون قراءة الختام بدلاً من فختامه هو فقرأ والدي وهو الحافظ المقرئ بصوته الندي على القراءات وما أن ختم قراءته حتى انبرى الشيخ محمد الشامي متكلماً فكان في جملة ما قاله: لقد سمعت قراءة الشيخ عبد الرحمن فكأني أسمع القرآن ينزل الآن ولأول مرة وعندما سمعت الشيخ عبد الرحمن في حالة يتلو القراءات(1) اطمأنت وكأن فيضاً من النور ملأ قلبي ولبي

1- القراءات: معروفة لدينا لا ينكرها إلا جاهل وقد رأيت منهم عديداً وإن الكلام عنها يقتضي بحثاً مطولاً معروفاً في مظانه لكنه هي سبع متواترة تصح الصلاة بقراءتها وثلاث تكمل العشر وهي غير متواترة تقرأ في الصلاة أو لا تقرأ .. خلاف وأربعة تكمل الأربعة عشر وهي ضعيفة تقرأ خارج الصلاة فقط ولكل منها طريقان وذهب العلماء فيها مذاهب منها أنها لهجات العرب وقد قال من رد هذا بأن هناك اختلاف لفظ واللفظ لغة وليس لهجة مثل قوله تعالى: فتبينوا، فتثبتوا .. إلى آخر الأقوال والموضوع فيه أصول كقوله صلى الله عليه وسلم: أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرؤوا ⟸

والصدق أقول لقد كان في نفسي قبل الآن منها شيء فحافظوا على هذه المجالس فإن الخير والبركة فيها وفي أرواح جلاسها وإن الله يتحف جلاسها بإتحافات خاصة قال من ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى فيه إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده لقد سمعت القرآن وكأني أسمعه لأول مرة لأني سمعته من أهل القرآن فقال الشيخ أحمد الادلبي: نعم لقد سمعناه من أهل القرآن.

ذات يوم دعيت إلى بيت الشيخ ونحن كذلك إذ دخل بهجت حسان (1)

ما تيسر منه وقصة عمر بن الخطاب وقد جاء بالرجل إلى النبي ص فأقر كلاً منهما على قراءته وللشيخ زاهد الكوثري مقالة نفيسة فليرجع إليها

1 - بهجت حسان: من الملحنين الكبار في مدينة حلب لحن كثيراً من الموشحات الغزلية والدينية تعتبر معظمها في مصاف المرتبة العالية من الألحان وهو من شيوخ الطرب والصنعة في حلب وهو على درجة عالية من الخلق وعذوبة الروح واسمه الحقيقي بهجت محولي واختار اسمه الفني لأن عائلته لم تتقبل منه هذا التوجه الفني ولم يكن الفن بالنسبة له مهنة للتكسب فقد كانت له مهنة توفي بهجت في ثمانينات القرن العشرين

الشيخ محمد الشامي

أستاذ صنعة الموشحات والسماع وأحد شيوخ الملحنين ومعه فرقة من الشبان صغار السن الذين أدوا بعض الموشحات فكان ذلك بعثاً للسرور والإعجاب ولا أذكر سبب زيارته مع الفرقة لبيت الشيخ لأنهما لم يتحدثا في مراميها سوى بضع كلمات وعد الشيخ فيها خيراً فكان الواضح أنهما تكلما في ذلك من قبل لأن الشيخ قال له سيكون كما وعدتك إن شاء الله.

لقد قضى الشيخ محمد الشامي حياته في خدمة العباد وأعماله هذه لا تعد ولا تحصى لطالما كرس حياته في هذا السبيل وجاءت أحداث الثمانينات فاعتبره الإخوان المسلمون من عملاء السلطة علماً أنه ليس سياسياً ولا علاقة له بها فقتلوه وهو يخرج من غرفته في جامع السلطانية ومعه جار الجامع الحاج صبحي لبنية الذي أصابته الرصاصات أيضاً فأردته قتيلاً وكان ذلك في سنة ١٩٨١ وقد قتلوا عدداً من العلماء الذين لم يتعاطفوا معهم ومنهم الشيخ أديب ذكور إمام جامع ميسلون والشيخ نجيب مصري وأخوه الشيخ محمد مصري الذي كان للأوقاف مديراً وبين الأخوين نحواً من أربعين يوماً وكل خارج على السلطة يضع لنفسه مبررات يحاول إقناع جماعته بوجوب الخروج ويحاول إقناع الناس عموماً بأنه

الشيخ محمد الشامي

يجاهد في سبيل الله وعندنا في الشريعة ضوابط مشروعية :

الخروج عن الطاعة

حيث حصل ذلك في الثمانينات وفي الحرب الأهلية الآن وإن كانت الواقعات السببية تختلف فمشكلة الثمانينات ترجع في جذورها إلى موضوع الدستور والخلاف الذي جرى فيه بشأن عبارة دين الدولة الإسلام ولم يوافق الرئيس وقتها على وضع هذه العبارة بحجة أن الدستور السوري في المراحل السابقة لم ينص على ذلك يوماً ورأى أن الإخوان المسلمين هم الذين أثاروا الضجة في البلاد وبعد الاستفتاء على الدستور تم إقراره طبعاً لأنه لا أحد يقرأ بنوده والذين يقرأون معظمهم لا يفهمون ما قرأوا ثم يساق الموظفون والعمال ومن هم تحت كنف الدولة إلى الانتخاب وهذه البدعة التي وضعها جمال بن عبد الناصر في الانتخابات عموماً هي السائدة وبعد الاستفتاء على الدستور وحصول حرب تشرين ودخول سنة ١٩٧٤ قال لي أحد العناصر الأمنية وهو صديق لي لقد أتانا أمر بمراقبة عدد من أفراد الإخوان المسلمين وإلقاء القبض على عدد منهم قلت : هل بقي إخوان أو غيرهم ؟ نعرف أنه تم حل الأحزاب بحصول

الوحدة سنة ١٩٥٨ فالجيل القديم دخل في الشيخوخة ومنهم الذي مات وجيل جديد لا يوجد لديهم لكن معلومات الدولة متطورة دائماً أوسع .

في تقديري أن هذا كان السبب واعتبروه هجوماً عليهم وأنهم يجب أن يكونوا في موقف الدفاع عن النفس فبدأت الخلايا تنشط وتقوم بالتدريب كما تبين ذلك للجميع فيما بعد حيث تطورت الأمور بينهم وبين الدولة اليقظة لما يحدث وثارت زوابع الفتنة في ذلك الوقت وارتحل الكثير من الضحايا بسبب وبدونه واشتعل أتون الفتنة في سوريا كلها وقتها وخاصة في حلب وحماه ودمشق .

لكن هل جماعة الإخوان كلهم انخرطوا في هذا الأتون ؟ كلا لم يكن الأمر كذلك فمنهم كثير كما تبين فيما بعد لم يكن لهم رأي في السلاح فيصلاً للأمور ولكن ما حصل قد حصل .

أما الحرب الأهلية فبدأت الشرارة من لا شيء ؛ طلاب صغار السن كتبوا عبارات أثارت غيظ رئيس الجهاز الأمني في درعا فقبض عليهم وعاقبهم بمنتهى القسوة ما جعل أهلهم يتجمعون فقال لهم كلمة أشعلت ثورة لقد قال لهم : إذا مات أولادكم فلا تحزنوا وأتونا بنسائكم فإنا سنجعلهن يحملن أولاداً غير أولئك هذه الكلمة

اشتعلت ثورة لأنهم وضعوا في المناصب الأقرباء ولم يضعوا الحكماء وكانوا يرون أن القوة وحدها والبطش بالعباد هو ما يسوي الأمور ولكن هذا كله لم يكن مجدياً واستمرت المظاهرات وما من حكيم تدخل لإنهاء الأمور إلا القوة وظل الأمر كذلك شهوراً كانت نتيجتها الإمتداد إلى الجهات المتعددة وهناك دائماً من يركب الموجة ويحولها مسمى الجهاد لكسب التعاطف معهم واتخذ كثيراً أسماء توحي بأنهم على صراط الله المستقيم كإسم لواء التوحيد وأسماء توحي باتباعهم للصحابة كإطلاق إسم أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وغيرهم حتى بلغ عدد الفصائل المسلحة في سورية حسب إحصائية أكثر من ألف ومائتي فصيل مقاتل وكان الإسم مضيئاً والفعل رديئاً فقد أطلقوا على جموعهم الأسماء الشريفة وسرقوا البيوت والمحلات وتركوها نظيفة وأدخلوا البلاد في دوامة حرب أهلية في الداخل أورثت دماراً وخراباً ولازال والأمر حتى اليوم عصي على الحل فلا الدولة قادرة على الحسم لأن ذلك سيورث خسائر كبيرة ولا الفصائل التي كثيراً ما تقتتل مع بعضها بقادرة على الحسم ولا الدبلوماسيات قادرة على الحسم ودول الخليج تغذ الثورة المدعاة بالأموال إمعاناً في زيادة الفوضى في بلادنا التي عرفت بأمنها ووداعتها .

كل واحدة منهن بضع دول الأكثر أماناً في العالم مصار ولكننا الأكثر فوضى قتلاً وخراباً وسرقة وهجرة وتشريداً في العالم أهكذا الجهاد؟ ومتى يكون المسلم مجاهداً؟ متى يكون الجهاد مفروضاً علينا؟ ومتى يخرج الناس عن الطاعة؟

نعلم قول النبي صلى الله عليه وسلم أطيعوا ولو تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة.

و نعلم قوله صلى الله عليه وسلم: السمع والطاعة حق ما لم يأمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة. وقد قال علماؤنا في المعصية إذا أحل حراماً أو حرم حلالاً مما هو معلوم من الدين بالضرورة والحق أننا لم نر شيئاً من ذلك وإلا لنادينا بالجهاد بعد أن نعد له عدته وقد قال علماء العقيدة عندنا (ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا من وجب عليه السيف)(1) ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا

1- في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة.

ولا ندعوا عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة ونتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة(1) سيما وأنه الله تعالى قال: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني.

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف. وعند البخاري كأن رأسه زبيبة وفي هذا الباب أحاديث عدة فوق ما ذكر.

ونحن ما رأينا في رئيس الثمانينات شيئاً يوجب القيام عليه شرعاً ولهذا أمر نحن اطلاعي شخصياً حيث كنت في القيادة العامة وتصرفات ضمن الإطلاع المباشر وأعرف ذلك من ابن خالي الذي كان ضابطاً عنده .. وغيره وغيره والرئيس الحالي كمثل ذلك

---

1 - العقيدة الطحاوية ص ٣٧٩ طبع ١٩٨٤.

وقد عرفت ما عرفت منه لهم على صلة به ومن التصرفات الشخصية التي تبلغنا عنه لكنه منه له في أمرشاده أوجه المبر- الذي يقنعه ونحن لانحيد عنه مرجعيتنا الوحيدة شريعة الله وكنت أقول وما زلت : إن كنتم تريدون الجهاد في سبيل الله حقاً فهذه إسرائيل فجاهدوها لكنني أذكر بقول السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم: الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها .

لقد رحل الشيخ محمد الشامي غيلة في بيت من بيوت الله شهيداً ولايزال ذكره حياً في الأذهان لما قدم للخدمات الجليلة لمجتمعه . رحم الله الشيخ محمد الشامي .

الشيخ محمود صابوني

عالم له مع والدي زمالتين : إحداهما زمالة الدراسة الشرعية والثانية زمالة تعلم الخط عند حسين حسني وقد تابع الشيخ محمود الخط فأجاد إلى حد ما في بعض أنواعه واتخذ لذلك مكتباً وعمل بهذه الصنعة حياته وقد التقاه يوماً والدي

الشيخ محمود صابوني

وتكلما في موضوع الخط وذكرا أيام أستاذهما حسين حسني وفي سياق الحديث ـ والشيخ يعرف أنني درست الخط لدى الأستاذ إبراهيم الرفاعي ـ فسأل عني وعن مدى تقدمي في الخط فقال له والدي : لقد تقدم كثيراً وأصبح خطه أفضل من خطك فوجم قليلاً وانتقل إلى حديث آخر إذ كان يرى نفسه ربما الخطاط الأول في المدينة والله أعلم ولكن في الواقع يكتب الثلث أجود من بقية الخطوط التي يكتبها في مستوى الوسط تقريباً .

كان الشيخ محمود الصابوني أستاذاً في المرحلة الابتدائية في المدرسة الحمدانية جانب الأوقاف وهي قريبة من بيته كما كان إماماً للأوقات الخمسة في جامع الفصيلة وكان أيضاً خطيب الجمعة ولديه مجموعة لا بأس بها من خطوط حسين حسني ولم أسمع له نشاطاً علمياً أو دروساً للعلم أو الوعظ بل كانت حياته رتيبة بالشكل الذي ذكرت ويخرج بين الفينة والأخرى إلى أرض له زراعية في الحاضر وتقع في الجهة الجنوبية من حلب .

مرض الشيخ محمود وأدخل المشفى وبعد دخوله المرة الثانية توفي في العقد الثامن من القرن العشرين رحمه الله .

الشيخ رجب الطائي

رجل عالم هذا في تقديري لأنني كلما دخلت إلى جامع الرومي(1) أراه يطالع الكتب في غرفة وكنت أذهب إلى زيارته مع والدي وأعمامي في العيد وأرى أنه صحبتهم إياه على أنه رجل عالم فقد كنت صغير السن ولرغبتي في الخط كان نظري يتجول في جدران الغرفة المملوءة باللوحات الفنية الخطية والشيخ رجب الطائي عبد صالح جداً كما كنت أسمع عنه وهو من مهاجرة الدولة العثمانية بعد الانقلاب العثماني والله أعلم لأنني أذكر أنه في لهجته لكنة رأيته كثيراً لأنني أتردد إلى دار عمتي أمام باب الجامع لكنني لم أعرف الكثير عنه لأنه توفي في أواخر الخمسينات وكنت شارفت على منتصف العقد الثاني من عمري رحم الله الشيخ رجب الطائي

---

1 - جامع الرومي : جامع أثري قديم يقع على يمين الذاهب من وسط باب قنسرين باتجاه السفاحية وهو واسع بطرازه العثماني تقام فيه الصلوات الخمس والجمعة .

الشيخ صبحي طبنجات(1)

عالم برع متميزاً عن علماء المدينة بعلم الفلك الشرعي وكانت له إمامة جامع المهمندار وكان صاحب صنعة الأحذية وربما كان له من علماء حلب شريك واحد في علم الفلك هو عمي الدكتور محمد خياطة فكلاهما له باع في الفلك وقد كان لهذا العلم هو الرابط الأقوى بينهما فكانت لهما في هذا السبيل جلسات وجلسات وكان الناس يأخذون منهما أوقات دخول الأشهر القمرية وخاصة دخول شهر رمضان وشهر شوال وذلك لفريضة الصيام ابتداءً وللفطر انتهاءً .

لكن ما لا يسأل عنه الناس هو توقيت الصلوات الخمس

١- طبنجات : جمع طبنجة اسم تركي للآلة مثل المسدس لها سبطانة طويلة تحشى بالبارود وتطلق طلقة واحدة قديمة والأحدث منها كانت تطلق الطلقات المعروفة وتحشى بطلقة واحدة وهي والدة المسدس المعروف الآن لا يوجد في حلب عائلة طبنجات وما سمعت بهذا اللقب يحمله غيره فهل هو مهاجر لكنه لا لكنة له؟

الشيخ صبحي طبنجات

وذلك لوجود مؤقت في الجامع الأموي الكبير وقد قام الشيخان طبنجات والدكتور بحساب أوقات الصلاة لمدينتنا حلب بدقة متناهية فعلاً وأصدرا توقيتاً أو دعاه مديرية الأوقاف (انظر التوقيت ص ١١٢) لم يعمل به أحد وكان أول المحتجين عليه من المؤقت بن الشيخ ياسين بدعوى أن توقيت آبائه صحيح وقلت وقتها نحن لا نشك بعلم آبائه ولكنه هو ليس عالماً بالفلك ولا دراية له بحساب وقت واحد من الأوقات الخمس وبينت أن الأوقات الخمس يجب إعادة حسابها دورياً في مدة لا تتجاوز مائة وخمسين سنة

فقد سمعت مرات وعندئذ فيمكن أن يكون المهاجر والده؟ لا أدري والشيخ لم يعقب لكنه قام بتربية طفلين ولا أعرفهما فلا فائدة وإذا لم يكن الشيخ من المهاجرة فهو ينتمي إلى عائلة بغير هذا اللقب ولهذا الأمر حاصل كثيراً فلدى تسجيل الواقعات للأحوال الشخصية حصل مثل هذا فأستاذي إبراهيم الرفاعي لقبه رفاعي بينما أخوه لأمه وأبيه لقبه حلبي وأبناء عمي الحاج بشير أربعة فمنهم خياطة ومنهم بلهوان ولهم إخوة لأب وأم وقد تم التصحيح بدعوى قضائية والنظائر كثيرة فهل الشيخ صبحي منهم؟ الله أعلم

لتعديل ما اعتدل منها .

وبالنسبة لموقت الجامع الأموي فهو ليس مسؤولاً عن المؤقتات التي تصدر في المدينة فإنني أرى الاضطراب واضحاً في إثبات أوقات الصلاة فيها ولهذا ما كنا نزيد ضبطه لأنه الخال محمد سريو لأنه يعتمد إحدى المؤقتات (الرزنامات) مع تمكين دقيقتين لعدم تلقيه علم التوقيت .

كانت بيني وبين الشيخ معرفة عادية ودون خصوصيات تذكر وقد توفي الشيخ في أواخر العقد السابع أو أوائل العقد الثامن من القرن العشرين يرحم الله الشيخ صبحي طبنجات .

الشيخ أسعد العبه جي

عالم جليل مشهود له مفتي الشافعية إلى آخر حياته لم تكن لي به أي صلة سوى أنني كنت أراه دائماً في مقره في جامع العثمانية يكاد لا يبرحه وقد رأيته حاصداً للثناء من كل لسان والتقدير لعلمه وفضله من علماء البلد .

وقد ذكرت أنه للشيخ أسعد رأي شرعي بفتوى أصدرها

بشأن الفتنة التي ثارت في موضوع الصلاة الناريه(1) أذاب بها الجليد وحل الصدأ بحنكة وحكمة الفقيه المقتدر المتمكن .

وأنا أحتفظ بالوثائق الجمة الكثيرة لكل ما أكتب وكم كنت أتمنى أن تكون مرفقة توثيقاً لما أكتب لكن النزوح عن مكتبتي ووثائقي منذ ثلاث سنوات بسبب الحرب كانت لهي غربتي الحقيقية وإن كنت في مدينتي .

ألف الشيخ أسعد العبجي كتاباً سماه سلم الوصول إلى علم الأصول ولا أعلم له مؤلفاً غير هذا الكتاب .

توفي الشيخ أسعد في العقد السابع من القرن العشرين رحمه الله

الشيخ عبد الرحمن عرب

عالم احترف التجارة ورأيت أنه عالم متواضع وقد كان له محل في سوق الذرب لتجارة الألبسة والأقمشة وكان يأتي في بعض الأحيان كل أسبوع تقريباً ليكتب له والدي

---

1 - انظر ص ٢٠٧

خطبة الجمعة لكي يلقيها فقد كان خطيباً للجمعة في جامع الدباغة(1) وربما كان عيباً لا يمكنه الانطلاق كخطيب لذلك كان يحمل ورقة يقرأ موضوعها وهذا ليس عيباً فكل إنسان له قدرات معينة أما كونه يأتي ليكتب له والدي الخطبة فلا أدري لماذا؟ فمن جهة العلم فالرجل عالم وهو من زملاء والدي في الدراسة

1- جامع الدباغة: جامع أثري قديم يقع على يسار الخارج من باب انطاكية الأثري باتجاه جسر نهر قويق أو باتجاه سوق الهال في يومنا هذا وربما جاء اسمه لوقوعه بالدباغة وداره على ضفة نهر قويق على مسافة قصيرة وقد هدمت المنطقة وتغيرت المعالم حتى تحول سير النهر ضمن إصلاح سار في المدينة وجدير بالذكر أن مئذنة المسجد المربعة لم تهدم وظلت قائمة حتى الآن كأثر فارقه مسجده بعد صحبة مئات السنين.

لكن هل لا توجد لديه المراجع فيأتي ليأخذ تسلسل الموضوع بشواهد من الأحاديث الشريفة .. الخ ؟ ربما لكنه هو تاجر وقادر على شراء الكتب لذلك قدرت أن علمه متواضع وقد سألت والدي لهذه التساؤلات فما حظيت منه بإجابة شافية سوى قوله هو صديقي فما المانع إذا كتبت له :

خُطبة الجُمعة

هي من شعائر الإسلام كما نعلم وقد ورد الأمر بها نصاً (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) ومنبرها هو موقف سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محل التوجيه والإرشاد والموعظة لذلك ينبغي لمن يتصدر أن يكون عالماً أو على مسكة منه على الأقل وفي كل الأحوال يجب على القائم بهذه المهمة أن يكون على قدر مسؤوليتها واحترامه لما هو مناط به سواء كان ذلك ارتجالاً أو قراءة بالمكتوبة في يده وربما حضرت أو نقل لي عن البعض الخروج عن وظيفة المنبر إلى السياسة بدعوى أنها مصلحة عامة

ولهذه مسألة تخص أصحاب السياسة لطالما أن الخطيب لن يزيد في أمر شيئاً ولا ينقص ولا أنه يغير شيئاً فليست خطبة عندئذ إلا فضول كلام وليعلم أن جامعين يعرفون السياسة أكثر منه لهذا من جانب ومن جانب آخر البعض يستجدي من المصلين بالمسجد وربما لأمور أخرى ولهذا عيب في الخطيب لأن في ذلك الخروج عن مهمة المنبر وهو يأخذ على القيام بالخطبة لا على الاستجداء وأسمع مراراً أن الشيخ فلان لم يشبع من جمع النقود والواقع أن بعضهم يفعل ذلك للأسف.

عندما يقول لي المؤذن قل لهم إن مسجدنا بحاجة إلى كذا كي يتبرعوا فكنت بعد الاطلاع على مواطن الخلل وأنه بحاجة للإصلاح أقول وبصوت عادي: يا أبا أحمد اطلب أنت ممن ترى فيه إمكانية وأريحية وإذا تقاصر المبلغ فأنا أكمل فإن هذا المنبر للتوجيه والإرشاد وليس للاستجداء والتشوف لما في جيوب العباد وقد كانوا ينهضون بالعبء جزاهم الله خيراً

فعلى أهل العلم أن يحترموا العلم الذي وهبهم الله إياه ليحظوا بالاحترام:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو أنهم عظموه في النفوس لعظما

كنت أحترم الشيخ عبد الرحمن غاية الاحترام لأنه لم يخجل من هذا الطلب وأراه منّة من فقهه ولكونه بذلك يقوم بوظيفته بالأمانة المطلوبة وبصدق، وظل على ذلك إلى أنه توفي في أول السبعينات قبل والدي بفترة ليست بالبعيدة رحم الله الشيخ عبد الرحمن عرب.

الشيخ علي عرب

عالم لم يحترف التدريس وإنما كان له عمل حر ثم إنه كان موظفاً في الأوقاف يضطلع بوظيفة التفتيش الديني وعمله الحر قبل الوظيفة كان صاحب مكتبة ثم إنه نقل فيما بعد قيماً للجامع الأموي الكبير عوضاً عن التفتيش الديني وظل فيه إلى آخر حياته توفي الشيخ علي عرب في ثمانينات القرن العشرين رحمه الله

الشيخ عبد الجواد عطار

عالم له وظيفة الإمامة والخطابة وكان أستاذ الخط

العربي في الثانوية الشرعية فهو أستاذي وكان قد درس الخط عند الخطاط التركي الأستاذ حسين حسني وكان خطه الرقعة جيداً ولم أره كتب غير الرقعة فلا أدري إن كان درس بقية الأنواع.

كان الشيخ مقرئاً مجيداً وكان مقدماً للقراءة القرآن في المناسبات الرسمية لرتابة قراءته وجمالها المتميز وليس في علمي إذا كان يعرف النغمات أم لا وأقدر في ذلك الوقت أنه لا دراية له بهذه الصنعة.

توفي الشيخ في أواخر السبعينات يرحمه الله

الشيخ جميل العقاد

عالم أتم درس العلم في الأزهر وأقام في مصر زمناً ثم إنه عاد إلى حلب مدرساً وكان أحد خطيبي الجامع الأموي بحلب حيث أن الجامع الأموي له اثنين من الخطباء أحدهما الشيخ جميل العقاد يخطب جمعة بينما في الجمعة التالية يقوم بخطبة الجمعة وصلاتها مفتي المحافظة الشيخ محمد الحكيم وهو خطيب الأموي قبل أن يكون مفتياً وظل بعد أن تسنم سدة الإفتاء خطيباً إلى

آخر حياته وكان المؤذن لصلاة الجمعة الشيخ بكري كردي (1).

---

1 - الشيخ بكري كردي : واسمه بكري مصطفى بكري وهو من شيوخ الملحنين عمل على المسارح مطرباً لأنه لم يكن موفقاً في التجارة ثم إنه تخلى عن تلك الأجواء واقتصر على أداء الموشحات في إذاعة حلب ثم تخلى عن العمل فيها بسبب التحاسد بين الفنانين وهو يمقت الأجواء المشحونة ويحب أجواء الصفاء فهو على خلق رائع قويم لكن الحاجة ألجأته إلى تلك الأماكن التي لم ترق له وهو الذي ينبض قلبه بالإيمان فهو حافظ لكتاب الله عز وجل .

اتجه بكري إلى الأذان في الجامع الأموي فرجع إلى جانب متجره الذي تركه واستقر في الجامع الأموي فكان بذلك مع ما جبلت عليه نفسه من تقوى وقد نال بفضل الله الستر بين الجامع وبين الحفلات التي يدعى إليها والمجالس الخاصة ولدي منها تسجيلات نادرة .

لحن بكري الكثير من الألحان المختلفة الغزلية والدينية ومنها الوطنية مثل : عزة الأوطان من عزتنا وقد لحن ثلاثة أدوار نعرف منها دور من مقام العجم : القلب مال للجمال وفيه ابن من التلحين أما الدوران الآخران فقد حفظتهما الكسندر ابن اده ⟸

الشيخ جميل العقاد

كان الشيخ جميل عالماً وواعظاً من طراز غريب عن المعهود من الواعظين إذ كان يأتي بالحديث الشريف فيقرؤه على السامع ويطلب من جلاسه أن يعيدوا قراءة الحديث معه وكلما شرح فقرة من فقراته أعاد الحديث كله وهم يقرؤونه معه وهكذا إلى أن ينهي ما يقتضيه المقام شرحاً ووعظاً وعندئذ يستمع إلى الحديث من جلاسه وقد حفظوه كان هذا منهج في دروسه عامة وقد حضرتها بعد صلاة الصبح في رمضان في الجامع الأموي وعندما يحضر مجلس المولد النبوي الشريف في بيت المدانه[1] (أي المدني)

وهي معروفة فنياً باسم (نور الهدى) وقد ماتا بموتها حتى أن زوجها توفي بكري كردي سنة ١٩٧٨ رحمه الله.

١ - المدانه (أي المدني) نسبة إلى المدينة المشرفة بآنها صلى الله عليه وسلم وهم آل السجان دارهم في حي المغازلة كبيرة جميلة يقيمون فيها حفلاً للمولد النبوي الشريف كل ليلة جمعة امتداداً لعهد أبيهم وكان القائم شيخاً للمجلس هو الحاج طه سجان المدني ويختم المجلس بالطريقة الرشيدية وقد توفي الحاج طه سجان المدني في سنة ٢٠١٢ رحمه الله.

الشيخ جميل العقاد

وتكون حصة درس قصيرة للشيخ يأتي بحديث قصير وشرح موجز يحرص من خلاله أن يكون الحضور قد حفظوا الحديث الشريف ثم يعودون إلى المديح بصوت المنشد محمد جمال[1] أبو سليم هكذا كان أسلوب الشيخ في الوعظ .

---

١ - محمد الجمال : أبو سليم منشد لم يجاوز الإنشاد إلى الطرب تلقى الإنشاد عن والده كما تلقى عن الشيخ عمر البطش وهو أستاذي تلقيت منه العديد من الموشحات وهو يتلبب من صنعته كمذاء وله ذوق رفيع في اختيار كلمات القصيدة فإذا اختار كلمات كتبها بحجم كبير وطلب من والدي أو من الشيخ جميل العقاد أن يشكلها ثم إن يقرؤها أمامه ثم يحفظها ثم يعيد قراءتها أمام الذي شكلها له من حفظه فإذا وافقه عليها أطلق صوته صداحاً بها ،
كان أبو سليم على الغاية من الإعجاب بالملحن العظيم محمد عبد الوهاب لذلك أخذ عدداً من ألحانه وعرضها على الشيخ جميل العقاد الذي نظم له كلمات في المديح على قدها ومن ذلك :

خايف أقول	اللي في قلبي	تتقل وتعند ويايا	فقال الشيخ
طه الرسول	فخر العرب	حادي أجل المزايا	مقام كرد

كان النظم للشعر قريحة حاضرة للشيخ بفصيحه وعاميه وقد أمتاز بنظم شطرة التاريخ التي تعتبر عصية على الكثيرين ولهي التي تحمل بعد لفظة أرخ أو تاريخه .. الخ بيتاً أو تتمة البيت بكلمات إذا أخذت حروفها وحسبتها وفق حساب الجمّل أعطت التاريخ المطلوب للحدث بناء كان أو غيره من الواقعات .

كان الشيخ ذا روح جذابة فعلاً فتراه في دروسه يتكلم الفصحى تارة والعامية الحلبية ونسمع منه كثيراً في الدرس اللهجة المصرية وإذا سرد قصة تناسب المقام فإنه لايقول قال الرجل أو قالت المرأة وإنما يسندها إلى عمك أبو يحيى

ذهب أبو سليم إلى مصر أيام الوحدة لزيارة الموسيقار عبد الوهاب بعد أن أرسل إليه رسالة فحواها أنه منشد ومغرم بفنه ويريد زيارته فإذا كان الأستاذ لايمانع في الزيارة وسوف يستقبله فإنه سيأتي مصر وإذا كان لايقبل زيارته فلاحاجة له في زيارة مصر فرد عليه الأستاذ محمد برسالة ترحيب بالزيارة التي حكى لي تفاصيلها الممتعة توفي أبو سليم جمّال في العقد الثامن من القرن العشرين رحمه الله .

وفيما لديك أم رجمي وإذا خطر سؤال في ذهن أحدهم كبيراً كان أو صغيراً فإنه يسمع سؤاله ويجيبه عليه ويشرح وكأنه يتعامل مع طلاب في المدرسة لذلك ترى درسه ووعظه كله تفاعل مع الحاضرين وأعيدها دائماً مذكراً أن وعظ العالم هو الوعظ المفيد لبعده عن السفاسف .

هكذا كان منهج الشيخ فريداً جذب به الكثير من القلوب إليه والذي لم يتخلى عنه إلى أن تخلى عن هذه الدنيا مؤثراً جوار الحق سبحانه وذلك في سنة ١٩٦٥ يرحم الله شيخنا الشيخ جميل العقاد .

الشيخ عبد القادر عيسى

عالم لم يكمل الدراسات العلمية لكنه لا بأس بعلمه وهو شيخ طريقة مرشد كان في بداية أمره من مريدي الشيخ حسن حياني في جامع كرم شرقي بباب النيرب ثم انه استأذن الشيخ في أن يكون له مجلس للدرس والذكر في مسجده المعروف بساحة حمد وهو جامع صغير فأذن له وطلب من إخوانه أن

رفدوه بالتواجد فكان أن التف حوله جمع من المريدين ثم إنه ذهب إلى دمشق وأخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ محمد الهاشمي (١) وتابع مجالسه وفق الطريقة الشاذلية وفي كل مجلس لابد من درس فيه فتوة للأسئلة وقد رغب الشيخ في الانتقال إلى جامع العادلية (٢) فلم يتيسر ذلك له إلا بعد وفاة

---

١ - الشيخ محمد الهاشمي : رجل عالم ومن أفاضل أهل الطريق المشهود لهم وهو شيخ الطريقة الشاذلية والشيخ الهاشمي مغربي الأصل وفد إلى سورية وأقام في دمشق وكانت له مجالسه هناك وقد توفي الشيخ في ستينات القرن العشرين رحمه الله .

٢ - جامع العادلية : في منطقة السفاحية له بابان أحدهما شرقي أمام باب سوق القطن والآخر غربي وسط سوق الحوص وهو جامع يشغل مساحة واسعة والقبلية وحدها هي المسجد أمام الجهة الشمالية التي تشكل الصحن وقد جعله الواقف غير مسجد ليتسنى للناس الدخول من أمام سوق القطن إلى الحوص عبر الصحن وبالعكس وبذلك لا حرج في مرور محدث أو حائض أما من الناحية القبلية ففيه مقبرة وهي حسبما أعرف تخلص إلى

الشيخ الرزاز إمام الجامع واستقر إلى أن عصفت بالبلاد أحداث الثمانينات فارتحل إلى الحرمين الشريفين وقد صادف

آل العادلي وقد حاولت الدخول إلى المقبرة فلم أستطع لأن في مسلك الدخول إليها داراً صغيرة لخادم الجامع والسبب أنني أردت رؤية قرابة أحد متولي الوقف الذي استدعى أفضل الخطاطين وكان يأمر الواحد منهم بكتابة حرف الواو الملفوفة بخط الثلث عدة مرات - وكانت له دراية - فوافق على أن يكتب القبر أحدهم يعتبر جامع العادلية ذا الطراز العثماني من الجوامع الرائعة الجمال ومن الواضح أن تشييده كان بأيد مبدعة جداً ويكفي أن تنظر إلى مدخل القبلية لتجد زخرفة الحجارة تتدلى منها شربيات يحار الفكر في صنعتها وتركيبها وإن شئت أن تبتعد عن الجامع وتنظر إلى مئذنته وهي أجمل مئذنة في حلب على الإطلاق ليس في شرباتها أو شرفتها فقط وإنما في قوامها الذي يضيق قليلاً وهو يرتفع إلى الشرفة لتراها كالغادة الهيفاء شامخة إلى السماء وفي هذه الحرب دخلته الظلمة فأرجو الله أن يحفظه ويحفظ البلاد والعباد.

أنه احتجز في الحرم المكي مع الناس الموجودين فيه وذلك عندما أغلقت أبواب الحرم في مشكلة المهدي المدعى لكنه استطاع الخروج بمساعدة أصحابه من إحدى النوافذ قبل إنهاء المشكلة.

كان الشيخ عبد القادر عيسى مرشداً واسع الصدر جداً فقد حضرت مجالسه كثيراً ثم زرته في غرفته زيارة خاصة مع والدي لدى عودة الشيخ من الديار المقدسة في إحدى السنوات الغابرة فكان من غاية في الأنس وهي بالنسبة لي زيارة لا تنسى.

رأيت في الشيخ عبد القادر عيسى المرشد الكبير وصاحب الخلق المحمدي والتهذيب العظيم في واقعة قلّ حصولها وهي تحسب له علامة مضيئة في موضوع:

احترام المجالس

في دار عمي الدكتور محمد والتي مساحتها نحواً من خمسمائة متر مربع جرى عقد قران ابنة عمي والدار تغص بالمدعوين وخصصت الدار للإنشاد وكل واحدة تصدح في جهة من الدار وفي مقدم المدعوين السادة العلماء منهم سيدي الشيخ عبد الله

والشيخ محمد السلقيني والشيخ عبد القادر عيسى .. الخ وقد حرصنا على جلوس السادة العلماء في قاعة خاصة بهم بعيدين عن الضوضاء وليس معهم أحد سوى من يصحبهم وكنت وأبناء أعمامي منتشرين في الدار لملاحظة أي حاجة لخدمة الضيوف من ماء وقهوة .. الخ حيث نشير إلى القائمين بالخدمة إلى المطلوب ونظرنا إلى عمي إذا ظهر وهو يرحب بالضيوف نرقب منه إشارة إذا كان له بحاجة إلى أحدنا .

وفي قاعة السادة العلماء الذين تعمدت عدم ذكر أسمائهم كرامة لهم قال أحد هؤلاء العلماء ودون سابقة إنذار للشيخ عبد القادر عيسى وهو يهم بصفعه على وجهه أنت تقول علي مجنون؟ فقال الشيخ عبد القادر : لا وأشاح بوجهه متفادياً الصفعة ولم ينبس ببنت شفة وظل جالساً وكأن شيئاً لم يكن أبداً ولم يكن بوسع أحد من العلماء في القاعة أن يتكلم حيث أن المشكلة انتهت عند هذا الحد ولو فرضنا جدلاً أن الشيخ عبد القادر عيسى صفع ذلك الشيخ العجوز صفعة لقتله فهو إلى جانب ذلك العجوز المتهالك يعتبر في ريعان الشباب لكنه وأعيد قولي هو المرشد صاحب الصدر الواسع وهو الإنسان الذي لم يجب سوى قوله : لا

الشيخ عبد القادر عيسى / احترام المجالس

وهو بذلك أعطى المجلس حقه من الاحترام وأعطى صاحب البيت أيضاً حقه من الاحترام لأنه لو تكلم بكلمات لساد الهرج والمرج وفسد الحفل كله بل كم لهو جميل أن ترى الجهلة يجلسون بغاية الأدب والسادة العلماء يتشاجرون ويتصايحون ويتضاربون هذا غير معقول البتة لذلك كان موقف الشيخ عبد القادر عيسى موقف العاقل الرزين الحكيم الذي احترم المجلس وصاحبه واحترم السادة العلماء أن يتكلم أحد منهم بكلمة.

قال لي ابن عمي الشيخ صلاح وكنا وقتئذ في ريعان الشباب ماذا تفعل لو كنت مكان الشيخ عبد القادر؟ قلت: لا أفعل شيئاً فالناس لهم عنوفنا قال: لو في غير بيتنا؟ قلت والله لا أستطيع إلا احترام المجلس وأهله لكن لو قابلني بهذا في غير مجلس وأراد إهانتي وهو ليس شيخي ولا هو أستاذي فإذا لم أضبط أعصابي فثقه بأني سأفرغ فيه وفيمن يشد أزره كل فنون الملاكمة التي تعلمتها وكل فنون القتال القريب التي تدربت عليها وأنا في الجيش ولو كنت في سن أحفاده وهو في سن جدي فلا أحد يقبل الإهانة كلاهما شيخ وأتباعه بالآلاف فالشيخ عبد القادر مرشد عاقل خلوق مهذب وذاك مرشد أزعر ليس لديه احترام لأحد بل هو في الحقيقة ...

نحن قبلنا أكثر من هذا من الأبوين حيناً ومن أساتذتنا حيناً
في حين على الندرة لأنه للتوجيه والتربية وليس للتحقير والتبكيت
بل هو محبب منهم يشعرونك بأنك موضع ملاحظتهم وتوجيههم فكم
وكم مثلاً أمسكت أذني وعركتها ولكي تتكلم ماشاء الله لها أن تتكلم
وأنا أضحك سروراً وأقول أمرك يا أمي فإذا تركت أذني انعطفت
على يديها ورجليها بالتقبيل كان هذا على الندرة لكن حصوله
كان حتى أواسط عقدي الخامس وهو المدى الذي قدره الله
لصحبتي معها أرجو من الله أن يجمعنا تحت لواء سيد المرسلين .

كما دتي تتبعت الموضوع لأفهم سبب ما حصل فتبين لي بالوجه
أن شيخاً هو صديق الشيخ المعتدي وهو يحضر مجالسه قال له: إن
إن الشيخ عبد القادر قال عنك إنك مجنون .

بالنسبة للشيخ عبد القادر حضرت مجالسه كثيراً وما سمعته تكلم عن
أحد يوماً .

وبالنسبة للشيخ المعتدي ينبغي أن لا ينسى قوله تعالى (فتبينوا)
وبالنسبة للشيخ الناقل إن كان بكلام من عنده فهو بهتان وإن
سمعها من شخص فوضعها في أذن الشيخ المعتدي فهو نمام (وأما أحدهما
فكان يمشي بالنميمة) .

كانت الواقعة مزعجة بالنسبة لي جداً أن أرى مثل هذا التصرف يصدر من عالم مرشد. وما زاد عجبي أكثر حصولها أمام سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين فأنا أعرف هذه المواقف فإنه موقف كهذا يسيئه وقد كان ذلك فعلاً.

أقول: إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم وأقول حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم. وقد قال الشاعر:

يا علماء العصر يا ملح البلد ... ما يصلح الملح إذا الملح فسد

فهل من حاجة للقول إن آفات اللسان لا تولد إلا الفتنة وقد تكون قاتلة:

إحفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الشجعان

فهل من الحاجة لنا أن نربي مربينا وأن نرشد مرشدينا وأن نعلم علماءنا .. ما لكم كيف تحكمون؟.

تنقل الشيخ عبد القادر عيسى في عدد من البلدان واستقر به المقام في تركيا لفترة لم تكن طويلة حيث داهمه المرض وتوفي

في استانبول ودفنه في المقبرة التي دفن فيها الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري على مسافة ليست بالبعيدة عن قبره وكان ذلك أواخر العقد الثامن من القرن العشرين رحم الله الشيخ عبد القادر عيسى ورضي الله عن الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري .

الشيخ فوزي فيض الله

عالم جليل فاضل كان صديق الطفولة والشباب لسيدي الشيخ عبد الله سراج الدين رضي الله عنه كان هذا الرجل دارساً لحصل على الدكتوراه مرتين وعلى الماجستير ثلاثاً وعندما قيل له إن كثرة لا تفيدك شيئاً ويقصدون من الناحية الوظيفية فكان أن قال: إنها تفيدني كثيراً فهي تحثني على الدرس والمطالعة والاجتهاد فأنا أحصل من أخذي لشهادة بدرجة متواضعة .

لقد عرفت اسم الشيخ فقط ولم أعرف شخصه فهو لم يكن مقيماً في حلب فقد كان يدرس في جامعة دمشق وهو مقيم هناك ولا يأتي إلى حلب إلا قليلاً كما أنه تعاقد مع إحدى دول الخليج وبقي سنوات

ثم رجع إلى سورية .

قال لي صديقي وزميل دراستي الشيخ عبد الرزاق دملخي إن الشيخ فوزي فيض سوف يأتي إلى حلب فما رأيك في درس أصول عنده ؟ قلت : أتمنى ولكن لا صلة بيني وبين الشيخ فقال : الصلة موجودة فأنت تعلم أنه جاري .. وجاء الشيخ والتقيته لأول مرة لكنه جاء زائرًا لا مقيمًا وعاد إلى دمشق .

بقي للشيخ نحو من ثلاثة أشهر ليحال إلى التقاعد فنقل من التدريس إلى وزارة الصحة ؟؟؟ وتقاعد من هناك .

ارتحل الشيخ بعد ذلك إلى الخليج ولا زال هناك إلى يومنا .. متعه الله بالصحة والعافية .

الشيخ أحمد المصري

لديه مسكة من علم إلا أنه حافظ متقن وواعظ جيد كان الشيخ أستاذًا في مدرسة الحفاظ للقسم الأول من الدوام المخصص لمن يؤدون أمامه ما حفظوا من واجب في اليوم السابق لهذا اليوم ومدة هذا الدرس من الساعة السابعة إلى التاسعة

صباحاً حيث يبدأ الدرس الثاني من الساعة التاسعة إلى الحادية عشرة حيث يأتي الشيخ دليس جبارة ويسمع لهم يومياً حفظ الماضي.

كان للشيخ أحمد المصري دروسه الوعظية في جامع ساحة الملح (التوتنجا) قريباً من بيته.

والشيخ ليس من المدعين وإنما هو ممن يعرفون مكانة أنفسهم ومقامها. فقد قال لنا الشيخ محمد خليل في أحد الدروس اختلفت أنا وفلان - عالم نسيت إسمه الآن - في تفسير عبارة فقهية في أحد الكتب ولم يستطع أحدنا إقناع الآخر بتفسيره فقلنا ونحن نذهب للشيخ أحمد المصري ونسأله فهو قريب منا فذهبنا إليه ومعنا كتابنا وسألناه عن العبارة فقال: أنا رجل واعظ ولست بعالم إسألا غيري واحتفى الرجل بنا وكان بطلعته هذه موضع تقديرنا واحترامنا له فرحم الله امرأ عرف حده فوقف عنده وأقول: الصدق في أقوالنا أقوى لنا وهذا الاعتراف يرفع صاحبه لأنه ليس عيباً.

ظل الشيخ يلقي مواعظه الصالحة على عباد الله طيلة حياته يحظى بالتقدير والاحترام وقد أوصى قبل وفاته بنحو من ستة أشهر أن يحفر له قبر في قبلية جامع ساحة الملح

وقد فعلوا وحفروا له قبراً في القبلية على يسار الداخل إليها بعيداً عن جدارها الشمالي نحو متر ونصف ثم إنه عندما توفي دفن فيه وقد زرت قبره فهو أستاذي عندما كنت في مدرسة الحفاظ وقرأت الفاتحة مهداة لروح شيخي وترحمت عليه وأنا راجع في ذهني :

شروط الواقف

فقد وردت عبارة فقهائنا محددة كل التحديد في هذا الموضوع وهو قولهم : شرط الواقف كنص الشارع أي لا يجوز لأحد أن يغير ما نص عليه الواقف .

قلت في جامع العادلية الجامع هو القبلية مع مصطبتين معمدتين أمامها وما تبقى فليس بجامع وفي الجهة القبلية من المصلى مقبرة لا يصح أن تكون غير ذلك ونفس الأمر ينطبق على العثمانية فالقبلية مع مصطبتين معمدتين أمامها وبعد المصطبتين في الصحن يوجد للبلاط اتجاه هو أيضاً جامع وبعد نحو من مترين ينعكس اتجاه البلاط ليدل على بدء

حدود المدرسة حيث أن الناس يمرون بين بابيه الشرقي والغربي كطريق وكذلك الأمر في المدرسة الشرعية وجامع العادلية .. وغيرها والمقرر عندنا الوقوف عند شرط الواقف حتماً فلا مسوغ مثلاً لنقل سجادة أو غيرها مما هو موقوف لهذا الجامع إلى ذاك لأن ذلك مخالف لشرط الواقف وإن أي تصرف فيه مخالفة لشرط الواقف إنما تصح إذا كان فيها مصلحة للوقف ولأن ذلك يرضي الواقف لو كان فإذا تلفت السجادة التي وقفها وتم استبدالها بسجادة صالحة فهذه مصلحة للوقف وهكذا مما لا يخفى على أحد.

وعوداً إلى قبلية الجامع فإن الواقف لهذا الجامع (أي جامع ساحة الملح) وقفه جامعاً كله ضمن جدرانه بصحنه ومصلاه فليس فيه مدفن ولا طريق ولا مانع من المرور بين بابيه الشرقي والغربي الظاهر فكيف أمر شيخنا أن يحفر له قبر في المصلى وهذا ما حصل في غيره حيث دفن الشيخ أحمد المكتبي - وهو عالم - في مصلى جامعه قرب سوق الموازين ولم يكن ذلك بأمر منه وإنما هو تصرف الآخرين.

وليت شعري لو أن كل إمام مسجد دفن في المصلى

- القبلية - لأصبحت المساجد مقابر كلها ولهذا أمر لا يقبله العقل لأنه غريب عن المنطق الشرعي .

لأنهم اعتدوا على مقبرة موقوفة للعائلة الأيوبية في جامع السلطانية فهو بناء أيوبي وفيه مقبرة أيوبية تحديدًا وقد دفن فيها الشيخ محمد الشامي رحمه الله وهو ليس أيوبيًا .

ولو كنت أنا الواقف لجامع ساحة الملح - التونبغا - وقد أتوني مستأذنين في دفن أستاذي الشيخ أحمد فيه لما أذنت لأنه خروج عن ملكي إلى ملك الله موقوفًا كجامع لا كمدفن وانتهى الأمر .

الشيخ حسن جباني الرجل العالم المرشد عندما بنى قسمًا من أرضه له مسجدًا بنى غرفة صغيرة جدًا أمام القبلية وقال هذه الغرفة لي في حياتي وبعد مماتي إذا مت في حلب فهنا الواقف العالم شرط عند وقفه وقيامه بالبناء أنه لهذه البقعة مدفنه ولا مانع من ذلك أما ما فعله ويفعله الناس فهو باطل لأنه دفن شخص في أرض مملوكة دون إذن صاحبها يوجب نبش القبر وإخراج الجثة إلى غير مكانه إذا لم يأذن صاحب الأرض وهنا أتراهم أخذوا إذن الواقف وحتى لو

أن الله أحياء وأذن لهم فإن إذنه لا يصلح لأن الوقف خرج عن ملكه وصار في ملك الله كما هو مقرر.

وأقول: ما الفائدة من الدفن في الجوامع؟ أتراهم يظنون أن في كل قبر من قبور الجوامع سرداباً إلى الجنة؟ أم أن الدفن فيه ينيلهم الرحمات الكثيرة من الله؟ فإن كان كذلك فالأولى بالدفن في الجوامع لهم الفساق والظلمة لتنالهم الرحمة فهم بحاجة إليها أكثر من العلماء الأفاضل ولكانت الكعبة المشرفة بيت الله الحرام ملأى بقبور ملوك آل سعود.

لنذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم دفن في بيت عائشة أم المؤمنين ولم يدفن في المسجد.

هذه صورة من صور انتهاكات شروط الواقف التي هي كنص الشارع والتي لا تجوز مخالفتها قطعاً وإن انتهاك حرمة الأوقاف حصلت عندما جمعت وأخذت من أيدي المتولين حيث ضاعت الشروط كلها تقريباً ولابد من القول في مقابل ذلك إن البعض من المتولين قد أساءوا ومنهم خان الأمانة ولا أرى إلا أن أذكر قول ربي عز وجل: ظهر الفساد في البر والبحر .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

زرت شيخي في بيته يوماً وكان يضع في بيته صورة للظالم من الظلمة هو جمال عبد الناصر وكنت أرى الغرابة كل الغرابة في ذلك فالشيخ رجل القرآن والوعظ وهو الإنسان الفاضل الصالح أنا طبعاً لا أستطيع الدخول في جدال معه بهذا الموضوع لما أحمل له من مكانة في قلبي واحترام كواحد من شيوخي ولكنني كنت أتمنى أن لا يكون هذا المظهر عند واحد مثله .

لقد عمّر شيخنا وامتد به العمر وطال ولكنه كان في عداد الراحلين بعد مقتل ولده نجيب ومحمد في أحداث الثمانينات وذلك بنحو سنتين أو ثلاث وذلك في أواسط الثمانينيات من القرن العشرين يرحم الله شيخنا الشيخ أحمد المصري .

الشيخ محمد المصري

عالم حافظ مقرئ كان جاراً لنا وهو زميل والدي في الدراسة وهو صاحب مصنف فلديه مكتبة وقد أرسلني والدي للعمل عنده لتعلم حرفة تجليد الكتب وكان يأنس بوالدي كثيراً وعند مجيئه إلى بيتنا غالباً ما يقرع الباب ليصحبه إلى بيت المجاور لبيتنا وفي بعض

الأحيان يصطحبني والدي معه وكنت أراهما في بعض الأحيان يكتبان مسائل الفرائض وأنا أنظر إليها وأستغرب هذه المسائل فهي غير المسائل التي أتعلمها في دروس الحساب في مدرستي وأجدني فيها لا أفهم منها شيئاً .

كان الشيخ محمد مقرئاً وأجاز تلقي القراءات العشر عن الشيخ الأبوتيجي كمثل ابن عمه الشيخ عبد الوهاب مصري الذي خلف عمي الشيخ نجيب خياطة في مدرسة الحفاظ وعندما توفي الشيخ عبد الوهاب خلفه ابن عمه الشيخ محمد مصري في إدارة مدرسة الحفاظ وكان قد أسن .

كان الشيخ خطيباً للجمعة في جامع خان الجلوم وقد حضرت خطبته مرات فرأيته مفوهاً وهو صاحب صوت جميل ومسحة طرب فكنت أسمعه وهو جالس مع المنشدين في حضرة المولد النبوي الشريف يشترك معهم ويقول القصيدة أيضاً وذلك في دار عمي الحاج مصطفى خياطة ولم أره يشترك إنشاداً في مجلس آخر .

ذهب محل الشيخ عندما تم الهدم بشأن مشروع باب الفرج وذلك سنة ١٩٨٠ فاعتزل العمل وبقي إماماً لجامع عمر سالم

في منطقة الفيصلية حيث كان يسكن المنطقة آخراً .

تزوج الشيخ بعد عقده الخامس ولم يعقب وظل مديراً لمدرسة الحفاظ إلى أن توفي في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين رحم الله معلمي الشيخ محمد المصري .

الشيخ أحمد المكتبي

عالم فاضل كان صاحب حرفة تجليد الكتب من الطراز الأول ثم إنه تخلى عن الصنعة وانقطع للعلم والإمامة في مسجده قرب سوق الموازين وكانت لي معه صداقة وزرته في بيته مرات وكانت له دروسه العلمية الخاصة في مسجده كما أنه له دروسه الوعظية العامة وله أيضاً جلسات قرآنية يعلم فيها التجويد .

ربطتني بالشيخ العلاقة الطيبة جداً وكنت أجيب دعوته في المناسبات الخاصة التي تعرض عنده ومنها مثلاً حفل زفاف ولده ورأيت في الشيخ البساطة التي جعلت منه مقرباً للقلوب ومحبباً إليها لذلك كان يحظى بالتقدير والاحترام الكبيرين من

كل من عرفه. وظل الشيخ في حياته الرتيبة على ذلك إلى أن وصل إلى نهاية المطاف في العقد الثامن من القرن العشرين يرحم الله الشيخ أحمد المكتبي.

الشيخ عمر مكناس

عالم فقيه شغل أمانة الفتوى حياته كلها بجدارة حيث كان فقيهاً متمرساً جداً ومشهوداً له في ذلك وما عرفت عنه غير أنه يقضي نهاره في دائرة الفتوى وبقية يومه في بيته بين كتبه وكان بعض أولاده لي صديقاً فحاولت منهم التعرف على أي جانب آخر فقالوا: لاشيء سوى ذلك فليس له دروس وله بعض الزيارات للأرحام أحياناً ويستقبل زائريه على الندرة من غير القرابة لأمر ما.. وقد زرته يوماً في بيته وذلك للتهنئة بتخرج ابنه من الجامعة وكان في الزيارة اثنان وكنا متحلقين حول طاولة في صحن الدار والشيخ يشركنا في الحديث معه وقد شعرت في جلوسي معه أن هذه الدنيا خالية من كل شيء إلا السعادة وكنت أذوره نادراً في دائرة الفتوى

الشيخ عمر مكناس

زيارة قصيرة فهو الرجل العلمي العالم الجاد البشوش

توفي الشيخ في الثمانينات ورغب الشيخ محمد بلال المفتي

أن أخلفه في أمانة الفتوى فلم أرغب في ذلك من أسباب التي

ذكرتها فيما سبق . يرحم الله الشيخ عمر مكناس العالم الجليل .

الشيخ محمد الملاح

عالم جليل وفقيه متمرس جداً وهو واحد من مقدمي

عائلة الزرقا في الفقه وأحد ورثة الفقه عنهم .

كان والده آذناً في الثانوية الشرعية فأدخله فيها للدراسة

وكان أن تعلق بالعلامة الشيخ أحمد الزرقا أستاذ الفقه

في المدرسة ولازم صحبته وكان يذهب مع الشيخ صيفاً إلى

بستان له في قرية بزاعة قرب بلدة الباب وظل على ملازمة

الشيخ أحمد الزرقا إلى أن توفي في سنة ١٩٣٨ يرحمه الله وظل

محافظاً على صداقته مع ابن شيخه العلامة الشيخ مصطفى الزرقا

بكل الوفاء .

بدأت علاقتي الشخصية مع الشيخ الملاح عندما كنت طالباً

عنده في الثانوية الشرعية حيث كان استاذي في الفقه وكانت لي عنده حظوة لاهتمامي في المادة وتفوقي بها لذلك كان يتوجه في درسه إلي بالدرجة الأولى .

كان الشيخ معطاء جداً فهو مدرس في الثانوية الشرعية وله دروس فقه خاصة في المدرسة العثمانية وفي المدرسة البهائية(1)

---

1 ـ المدرسة البهائية: تقع جانب الجهة اليسرى من خان خاير بك وبينها وبين القلعة بناء حكومي عثماني كان مديرية للتربية ثم مديرية الخدمات الفنية وهذه المدرسة فيها عدد من الغرف ومصلى وكان شرط واقفها أن يعطى فيها درس واحد صباحي وهو شرط يوافق من أراد طلب العلم في السن المتقدمة التي تقطع الدروس في أوقات النهار وللطالب في هذه المدرسة جماية شهرية في المقابل ويكون مسؤولاً عنها إدارياً شيخ المدرسة فهو يعين الأساتذة ويحدد المقررات المدرسية للمواد المعطاة كان آخر شيوخ هذه المدرسة هو الشيخ عمر ماريتني يرحمه الله .

عند إلغاء المدارس الوقفية وحصرها في المدرسة ⟸

الشيخ محمد الملاح

كما أن له درس في التفسير بحجازية الجامع الأموي الكبير بين المغرب والعشاء وله درس للأسئلة بعد صلاة الجمعة في جامع العثمانية حيث كان خطيب الجمعة بعد أن انتقل من جامع كثيرة.

حياة كلها علم ودرس وتعليم وفتاوى وردود .. الخ

وقد ذكر لي ابن عمي الشيخ محمد منير خياطة يوماً أنه التقى الشيخ محمد الملاح وسأله عنه والده وأبناء عمومته وذكر لي أنه كان مارّاً من المسجد فرآه عند انفضاض الدرس فقلت أنا لا أعرف مواعيد الدروس وأماكنها وليس من الصعب معرفتها لكن لا بد من الإذن بالحضور إلى الدرس الخاص أما العام فهو عام فإن شئت أن تستأذن لي وبذلك عدت إلى دروس الفقه لدى الشيخ محمد الملاح في العثمانية والبهائية ودروس الأسئلة

الشرعية والشعبانية ثم ألغاء الشعبانية أصبحت غرف هذه المدارس يشغلها من هب ودب فمن طالب في مدرسة إلى مشرد ليس له مأوى إلى من تتخذها مستودعاً .. الخ اتخذت المحكمة الشرعية مؤخراً المدرسة البهائية مقراً للإدارة بالنسبة للمطلقين ليروا أولادهم أسبوعياً على وجه الإلزام من المحكمة الشرعية ومن الطريف الذكر هذه المنطقة سكنها الشاعر المتنبي لدى إقامته في حلب.

بعد صلاة الجمعة في العثمانية وكان إذا عرض عليه سؤال عن مسألة فرضية يجيب عليها بذكر الفروض فقط لأن التصحيح يحتاج شيئاً من الوقت فيقول للسائل: تعال إلى غرفتي بعد الدرس كي أعطيكها مصححة وأبين لك سهام الورثة فكنت أكتب المسألة وأبين فروضها وسهامها بعد تصحيحها وأعطي الورقة لمن أمامي فتنتقل إلى أن تصل إلى الشيخ فينظرها ويقول: أنا أنا الجواب من محمد أمين ويعطيها لصاحب السؤال قائلاً: إذا عرض لك فيها إشكال فإن شئت أن تسألني بعد الدرس أو تسأله ولهذا أمر سبب إشكالاً للجالسين أكثر من مرة فهم عوام يتسابقون للجلوس أمام الشيخ وجانبه بينما أنا والآخرون من رواد الدرس الخاص بعيدون عن الشيخ لكثرة الجلاس فكنا نصيح بآذاننا لنسمع صوت الشيخ الذي لا يصل إلينا جيداً لضعفه وهو يرانا كذلك فكان ينهر هؤلاء العوام - وهو يعرفهم لأنهم تلاميذ الدروس العامة غالباً - ويقول: اتركوا هذه الأماكن لرواد الدرس الخاص فأنتم لا تفهمون كل ما أقول أما أولئك فيفهمون كل ما أقوله لأنهم علماء ويلوح بالورقة قائلاً: ألا ترون أن الجواب أتى من واحد منهم هؤلاء يأتون

متأخرين قليلاً لأنهم خطباء جمعة .

ذكر لي غير واحد بأن الشيخ كان مغضوباً من أبيه غير حائز على رضاه ولهذا الأمر مشكل فلا يجوز أن يكون كذلك مع أبيه وهو الفقيه العالم ولا أستطيع الإستفسار عن حقيقة الأمر فهو شخصي جداً بينه وبين أبيه إلى أن حدثنا يوماً عن ذلك إذ أنه كان يبوح لنا بما في صدره أحياناً ويقول: أنتم أبنائي وأنتم إخواني وأنتم تلامذتي وأنتم عائلتي وأنتم أحبابي قال الشيخ عن ذلك أن والدتي توفيت وأنا صغير وحيد لأبيه فكان الأب بحاجة إلى زوجة ترعى البيت قال فظلمتني هذه المرأة سامحها الله وما أن وصلت إلى الدراسة في الشرعية وكانت لي غرفة حتى اعتزلت البيت هرباً منها لكنني كنت أرى والدي في المدرسة دائماً وأذهب أيضاً لزيارته في البيت يوم الجمعة أحياناً وكان جلوسي في غرفتي في الجامع سبباً في كثرة الدرس والمطالعة فرب ضارة نافعة وكنت أسافر مع شيخي صيفاً إلى بستانه في بزاعة لذلك هناك من قال بأني مغضوب من أبي كلا فبعد وفاة والدي قلت لزوجة أبي : إن لك من هذا البيت الثمن ولي الباقي وإن لك البقاء في هذا البيت طول حياتك وأنا أمر لعندك كل يوم لآتي لك بطلباتك إكراماً لروح والدي

فقالت إن أولادأخي سيأتون إلي لحوائجي مدة العدة ثم إني سأذهب لأبقى عند أخي. قال: وكنت أمر إلى البيت آخذ لها ما تريد وأعطيها من المال ما تريد. وانتهت عدتها وارتحلت إلى بيت أخيها مع تأكيدي السابق إن كانت ترغب البقاء لكن عندما قررت الذهاب قلت لها خذي ما شئت من أشياء البيت ... وذهبت إلى بيت أخيها وقد صادفني أحدهم بعد فترة وهو صديق أبي فقال: يا شيخ محمد سمعت أن والدك قد توفي وله عندي أمانة خمس ليرات ذهبية فذهبت معه وأعطانيها وذهبت إلى زوجة أبي في بيت أخيها وأعطيتها حقها من المبلغ لقد قالت لي يوماً وهي في عدة الوفاة لقد ظلمتك يا شيخ محمد وأنت صغير فسامحني فقلت سامحك الله.

لم يكن الشيخ مرتاحاً في بيته مع زوجته وأولاده بالصورة التي يتمناها فكان يحكي لنا بعض هذه الإشكالات وهي لا تنم عن عقوق منهم وإنما لابد لكل بيت من حصول خلاف للرأي فيه وصادف يوماً أن ذكر لنا بأنه ترك البيت وهو ينام في غرفته في البهائية وهي طبعاً قريبة على كل أماكن دروسه الشرعية والجامع الكبير والعثمانية فقلت للشيخ بعد الدرس: يا سيدي تعلم أن بيتي أمام القلعة وهو قريب والبناء لي بطوابقه ففي أي طابق

تشاء الإقامة ويبعدني وأنت تبتغي القيام بخدمتكم فقال أعرف أنك صادق لكن أنا هنا مرتاح ورغم إلحاحي لم يقبل فكنت آتيه بالطعام رغم زهده عنه ذلك وهي أيام تم الصلح بعدها.

جاء الأستاذ أحمد شيخ القرهوانية - حمصي مقيم في حلب - وهو قاضٍ شرعي يحضر دروس الشيخ معنا وسلّم وجلس فوجه الشيخ إليه كلاماً فيه حدة وعنفه والأستاذ أحمد ساكت لم ينبس ببنت شفة واستغربنا نحن فعلاً فالرجل مثال الأدب ولم يصدر منه أي شيء وكان الأمر غريباً جداً بالنسبة لنا في الدرس الذي يليه لم يحضر الأستاذ أحمد فقال الشيخ لأحد الحضور: يا أبا نزار اذهب إلى الأستاذ أحمد وقل له يحضر الدرس وإذا كان قد وجد في نفسه فأنا أذهب إليه فأعتذر منه جاء أبو نزار في الدرس التالي وقال للشيخ لقد ذهبت إليه وبلغته ما أمرتني به فقال إنه سوف يأتي اليوم ولكن الحضور درس الأمس مجيء ضيوف له من حمص .. وبعد قليل جاء الأستاذ أحمد وتقدم ليسلم على الشيخ فما كان من الشيخ إلا أنه اجتذب يد الأستاذ أحمد وقبلها فقال جاذباً يده استغفر الله يا سيدي نحن نقبل يدك فأنت شيخنا وجلس الأستاذ أحمد فتوجه إليه الشيخ بالاعتذار وكان فيما قاله أنا كنت منزعجاً فتوجهت إليك

لأفرغ شحنة غضبي وأنا قلت لكم أنتم أهلي وإخواني وأحبابي ولا أرى لي راحة إلا معكم لأنني أحبكم من قلبي وتحبونني من قلوبكم فلا يؤاخذني أحد منكم في شيء.

لم يكن الشيخ بالذي يقتدع الآخرين بل كان والله غاية في اللطافة والأنس وكان يرانا وجدنا عالمه الخاص فعلاً لهذا هو السبب ولا أنكر أن الشيخ أحياناً تعتريه الحدة ويكون محقاً لأن ذلك يكون بسبب شرعي أو خارج عن المألوف فقد أتاه شخص يوماً قبيل بدء الدرس وسأله سؤالاً فأجابه وهو من يحضر دون الدرس العام ودخل الرجل في حيثيات واقعة السؤال والشيخ يعطيه نفس الجواب ويعود الرجل إلى حيثية أخرى وهو - كما لاحظنا - يريد فتوى توافق مزاجه وقد مضى ثلث الدرس تقريباً ولا يجوز لنا أن نتكلم بحضرة الشيخ والشيخ بأدبياته الرقيقة أيضاً لا يمكنه أن يصد الرجل أو يطرده ورأيت أن الكلام أضحى عقيماً فقلت للرجل يا عم لقد أعطاك الشيخ الجواب وهذا الدرس وقت لنا فقال لي بحدة: وما علاقتك أنت؟ فقال الشيخ له: اسكت لا تتكلم مع أحد منهم فهؤلاء كلهم علماء وقد أتوا من أنحاء البلد لحضور هذا الدرس وقد أجبتك فقال:

هيك لكنه يا الله وانصرف دون إلقاء السلام وبخروجه التفت الشيخ إلينا بالكلام وقال: رأيتم الرجل والحاجة الذي أضاع لنا الوقت أما استطاع أحد منكم الكلام حتى تكلم أصغركم سناً؟ أليس منكم رجل رشيد؟

هذا الموقف كان فيه ضيق لأن السائل ملحف وإلا فعندما يكون السائل غير ذلك فإن الشيخ يلتفت إليه بكليته مهما طال الوقت وهو ما حصل معي يوماً حيث بقيت جالساً في الغرفة بعد الدرس في العثمانية فقال الشيخ: لك سؤال والله أعلم قلت: يا سيدي بمقدار ما يسمح الوقت قال: إذن أسئلة عدة وكان يعد ويهيئ ما يريد حمله معه فتوقف وتوجه فقلت: تمكن تأجيلها يا سيدي قال: لا ولا تؤجل شيئاً ... وكانت هذه الجلسة بعد درسنا الذي ينتهي في الساعة الثامنة والتي امتدت إلى الساعة الحادية عشرة أي ثلاث ساعات ولم يتبرم الشيخ بل كان يكل أجيبه حتى قال لي: لقد انتهت الأسئلة قلت: نعم يا سيدي وجزاك الله خيراً قال: تذكر فربما نسيت واحداً منها قلت: لم أنس شيئاً لقد كانت لهذه الجلسة فيها كثير من الأخذ والرد وكان الشيخ مسروراً جداً لأنها علمية والحق أقول: أنا في الأغلب ألاحظ في الشيخ بوادر السرور أو غيرها

وذلك لمدى صحبتي معه .

كان الشيخ محباً لأهل العلم مادحاً لهم يذكرهم بخير على سواء الراحل منهم والحاضر ولا يتأثم بالكلام علمياً عن بعض الراحلين أو الحاضرين غير جارح لأحد ويعقب بقوله : أنا أحب الرجل وهو صديقي ولكن هذا خلاف علمي وليس خلافاً شخصياً وقد ذكرت أحد الخلافات وهو موضوع الصلاة النارية كما أنني ذكرت فيما سبق أنه قبل يد الشيخ محمد الحامد لدى دخوله الثانوية الشرعية أمامي ورأيته مرات يقبل يد الشيخ محمد رشيد في الجامع الأموي لا بل هو متواضع لدرجة ذكرتها آنفاً أنه قبل يد الأستاذ أحمد شيخ القهوانية وحاول تقبيل يدي مرة وهو يشكرني على أمر فكنت بارعاً في سحبها قبل أن يحصل ذلك .

إضافة إلى نشاطه العلمي الكبير الذي ذكرته كان للشيخ خاصة مع عمي الشيخ الدكتور عمر خياطة يقرآن فيها كتاب حكم ابن عطاء الله السكندري ويروي لنا أحياناً بعض اللطائف من هذه الجلسة ولا ينفك عن ذكر عمي الدكتور بالثناء والمديح وهو ما يدل على محبته الكبيرة له إذ أن الشيخ على الغاية من الشفافية في محبته فهي تظهر من أول بضع كلمات يتحدث بها عن شخص

كان للشيخ وفاؤه الكبير لعائلة الزرقا التي ترعرع علميًا وفقهيًا في أحضانها وكان ما يفتأ يذكر فضلهم ويحتفظ بكل التقدير والاحترام لأفراد العائلة وخاصة ابن شيخه وزميله العلامة الشيخ مصطفى الزرقا يذكر من علمه ومناقبه وفهمه الشيء الكثير ومن ذلك ما ذكره لنا غير مرة برأيه في موضوع اتباع غير المذاهب الأربعة إذ يقول في كتابه المدخل الفقهي العام وإن لنا في غير المذاهب الأربعة لمندوحة عن اللجوء إلى القوانين الوضعية ويعقب شيخنا الملاح قائلاً: إذا كانت لنا حاجة إلى حكم في واقعة لم نجد لها حكمًا مقررًا في المذاهب الأربعة فلا مانع من أخذ حكمها إن وجد في المذاهب الأخرى لأنه حكم مبني على اجتهاد أما القوانين فوضعية ونحن نأخذ بالمذاهب الأربعة لتواترها أما المذاهب الأخرى فهي صحيحة لكن وصولها إلينا ليس كمثل تواتر المذاهب الأربعة وهذا ما يعبر عنه بأنها ضعيفة ثم هو يذكر تقريراتهم الفقهية واستنباطاتهم لكثير من الأمور الحكمية مما هو ضمن الواجبات التي تقتضي النظر فإن الأمور الفقهية تحتاج إلى النظر والاجتهاد دائمًا لأن أحوال ووقائع البشر متغيرة متجددة وقد ذكر لنا من ذلك مسألة:

الكحول

هي مسألة قرر فيها فقهاء السلف الحرمة وأنها نجسة وأنه شيئاً من الخمر وإن قل إذا وقع في بئر وجب نزحها لأنها نجاسة مغلظة فإن لم يمكن فمائتا دلو وجوباً ومائة استحباباً وذلك أخذاً من قوله تعالى (رجس .. فاجتنبوه) وكانت نظرة عائلة الزرقا وتلميذهم شيخنا محمد الملاح مغايرة نوعاً ما فإن تحريم الخمر إنما كان لعلة الإسكار نصاً والمسكر هو الغول نصاً لذلك كان محرماً وهو أمر متفق عليه ولكن هل المحرم نجس؟ قال فقهاء السلف المحرم نجس بدلالة قوله تعالى (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) والرجس النجاسة فإن كانت في المادة التي تحملها كالخمر والثوب إذا أصابه ما يقتضي التطهير فهي نجاسة حقيقية وإن كانت في غير ذلك كالميسر والأنصاب والأزلام فهي نجاسة حكمية والاجتناب نص في التحريم.

قال علماؤنا آل الزرقا والشيخ الملاح: إن الرجس لفظ مشترك له معنيان النجاسة والقذارة على حد سواء في اللغة

دون تقديم لأحد المعنيين على الآخر وصرف لفظ الرجس إلى معنى النجاسة تخصيص بدون مخصص والمادة المحرمة لأي سبب قد تكون نجسة على مراتب النجاسة كالأبوال فلها من هذه الناحية أحكام خاصة من حيث المقدار الذي يمنع صحة الصلاة وكيفية التطهير ولها أحكام أخرى من حيث البيع والشراء فهي غير متقومة ولأن هذا هو أصل مقرر عندنا حكمنا بالبطلان ونرى في المواد المخدرة أنها طاهرة لأن منشأها نباتي وما من نبات نجس لكن استعمالها كمخدر يجعلها في دائرة الحرمة لأنها تذهب أيضاً بالعقل والخمر كذلك وفي نظرة أخرى قلنا أن العلة الإسكار وهي بسبب الكحول ونحن لم نحكم بحرمة بيعه وشرائه إذا كان لمصلحة كتطهير الجروح فهو يقتل الجراثيم وهو مادة مذيبة يستعملها أهل الصنائع والمواد المخدرة أيضاً لا نحكم بحرمة بيعها وشرائها إذا كانت لمصلحة وكذا استعمالها في الاستطباب الذي يقدر الطبيب فيه النوع والكمية المقدرة ومدة الاستعمال والحكم يدور مع علته حيث تدور ومناط الحكم فيما تقدم ذهاب العقل والعود بالضرر على الإنسان ولا علاقة لهذا بالنجاسة أو القذارة إلا من هذه

الجهة فإن كانت لهذه المواد للاستعمال مفيد صح بيعها وشراؤها ولا يصح لما فيه ضرر من حيث الاستعمال بل ولا التملك ويجب إتلافها .

والسؤال لهنا بالمقابلة لعل لهذه المواد تكون نجسة إذا حرمنا فيها البيع والشراء في الاستعمال الضار وتكون طاهرة إذا أبحنا بيعها وشراءها في الاستعمال النافع ؟ لهذا المعري في القياس بديع .

نرى في قوله تعالى (رجس) أنها القذارة لما قدمنا لأنه لأنه بيع المحرم وشراءه فيه منفعة لهي الربح ذكرها في قوله تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) وإثم الخمر في شربها نص عليه في قوله (فاجتنبوه) والنفع فيها بيعاً ما يأتي من الربح وما من قائل بجواز بيع الخمر لأنه إثم محرم والنفع حاصل بجواز بيع الكحول والمواد المخدرة لغرض النفع كما قدمنا .

وفي أيامنا يستعملون الكحول كمادة مذيبة في بعض أنواع العطور وكمادة أساسية في صناعة الكولونيا فعلى قول سادتنا علماء السلف الكولونيا محرمة مع أنواع العطور التي

يدخل في تركيبها كحول لأنها نجسة ولا تصح الصلاة معها ولا يصح بيعها ولا شراؤها وفي استظهار علمائنا آل الزرقا وهم فقهاء الأمة في وقتهم أن هذه المواد ليست نجسة ولا محرمة وهي مال متقوم يصح بيعه وشراؤه .

أقول : في مكة المكرمة قيل لي بأن هناك من يشتري الكولونيا ويشربها بدلاً من الخمر لأنه ممنوع عندهم كما أن الصيادلة لا يبيعون الكحول إلا للأطباء والمشافي والمستوصفات فالغالب أنهم لا يستطيعون الحصول على الكحول هكذا فهمت وقتها وعلى هذا ينبني خلاف في المذهب الحنفي وفق أصوله فعلى قول الإمام لا يصح لأنه أخذه للشرب وعلى قول أبي يوسف يصح لأنه قد لا يشربه ويجعله للإستعمال فقط وفي هذا الأصل نظائر كثيرة والله أعلم .

ولابد من التنويه بأن التوابل معظمها مخدر لكن تخديراً خفيفاً ومع ذلك فإن جميع الناس يستعملونها كمنكهات في الأطعمة واستعمالها هذا ليس أي أثر في التخدير ولذلك بحث في عدة مواطن لابن عابدين في الحاشية فليرجع إليها .

وكنا نفتي باعة التوابل التي يعرفون أنها تخدر تخديراً بجواز

بيعها لمن يقولون انه يستعملها منظفات وعدم جواز بيعها لمن يجن موردا ويغلب على ظنهم انه سوف يستعملها كمخدر ولئن ذكرت بأن البيع جائز على مذهب أبي يوسف فأقول إن هذه الفتوى إنما أفتيت بها لأن عددا من المصريين جاءوا الى سوق العطارين والحلب واحد بضعة كيلوغرامات من جوزة الطيب وعندهم حكم الحشيشة قاس أما جوزة الطيب فمن الواضح أنها الهبة لتخدير الناس ولو كان المشتري من أبناء البلد فلا حرج لأنها لا تستعمل عندنا مخدرة .

اتهم بعضهم شيخنا بأنه وهابي ولا أدري من أين ابتدعوها وقد حكى لنا الشيخ قصة جعلتني أفهم سبب الاتهام فقد جاءه واحد منهم وقال نرغب أن تقرأ لنا صحيح البخاري فأنت عالم وضليع باللغة فقال لا مانع على أن لا يكون هناك طرح لأي من الخلافات المذهبية فقال : الحديث فقط فذهب الشيخ في الموعد المضروب لأول جلسة وبدأ الدرس بقول الشيخ لأحدهم اقرأ الحديث فقرأه وبدأ الشيخ شرحه وبدأوا يطرحون الخلافات المذهبية فقال الشيخ أريد أولا من كل واحد أن حديثاً الذي ثم نتكلم بعد ذلك فقرأوا فحمل الشيخ كتابه ونهض قائلاً : أرجو

أن نتعلموا قراءة الحديث الشريف أولاً ثم لكم أن تطلبوا شرح الأحاديث وما ترشد إليه وخرج ولم يعد وقال لنا: هم جهلة فهم لا يعلمون أن المعتمد عندنا وعندهم أن الأفضل في قراءة الحديث المحافظة على ضبط اللفظ بالتجويد الآن فهمت سبب الاتهام.

قرأ شيخنا حاشية ابن عابدين وكنت قرأت منها على والدي وعلى عمي الشيخ نجيب خياطة يرحمهما الله وقد وصلنا مع الشيخ في القراءة والتقرير إلى أواخر الحاشية قال الشيخ: لقد وصل العلامة محمد أمين عابدين في تأليفه الحاشية إلى كتاب القضاء وتوفي فأكملها ابنه ووصل الشيخ محمد الزرقا الكبير في تقريره الحاشية إلى كتاب القضاء وتوفي ووصل شيخنا الشيخ أحمد الزرقا في تقريره الحاشية إلى كتاب القضاء وتوفي وها أنا أقترب من باب القضاء شيئاً فشيئاً قلنا نقول: لكم طول العمر إن شاء الله مع الصحة والعافية

مرض الشيخ فذهبت لعيادته فقال لي: يا محمد أمين لقد وصلنا إلى باب القضاء قلت يا سيدي أرجو لكم الصحة والعافية وأن نظل ندرسنا في شبابه بوجودكم فقال: يا محمد أمين وصلنا إلى باب القضاء.

فتحت نسختي من الحاشية وقد وضعت العلامة عند انتهاء

الدرس السابع لدرسه الشيخ فوجدت أن الباقي بعد الإشارة أقل من ثلاث صفحات لنبدأ كتاب القضاء وكان قضاء الله لعزلنا في شيخنا الذي ارتحل على خطا الأعلام مؤلف الحاشية وقارئوها وقد أوصى الشيخ أن يحمل في تابوت جديد لاحتمال أن يكون على القديم نجاسة وأن يبنى قبره دون جص أو إسمنت أو أي مادة تدخل النار في تحضيرها وقد نفذ ذلك وكانت صلاة الجنازة في جامع الملاخانة وأودع الشيخ في رحاب الله في مقبرة الصالحين سنة ١٩٨٨ يرحم الله الشيخ الفقيه محمد الملاح .

الشيخ محمد النبهان

عالم له باع كبير في العلم وكان واعظاً ممتازاً لأنه عالم وقد اتخذ لنفسه مقراً جامع الكلتاوية[1] في المنطقة المسماة كذلك

---

١ - جامع الكلتاوية : جامع صغير في مقبرة الكلتاوية وهي جبيلة تطل على الطريق الواصل بين باب الحديد وجب القبة ويوصل إليها من درجين أحدهما درج قبل قبو النجارين والآخر بعد قبو

الشيخ محمد النبهان

وقد ذكر خير الدين الأسدي (1) الجامع والمقبرة في كتابه موسوعة حلب

النجارين وكانت المقبرة مأوى دواسي الليل وقد عهد الشيخ النبهان بأمر كانت حصيلته إلغاء المقبرة وهدم الجامع القديم الصغير وبناؤه على مساحة المقبرة جميعها وبذلك تم توسيع الجامع وألغيت المقبرة ونعود لنذكر شرط الواقف أين ذهب؟

١ - خير الدين الأسدي: عالم اللغة الكبير وأديب وشاعر هو ابن خالة والدي والابن الوحيد لوالده الذي كان أحد علماء المدرسة العثمانية اهتم خير الدين بالأدب الشعبي وأصل لقب العائلة رسلان أسد فاختصرها بالأسدي وكونه تربية الأسدي في أحضان والده الشيخ العالم فقد كان هو محباً لعلماء الشريعة فقد ذكر في الموسوعة أنه قدم إلى مكتبة حامد عجان الحديد برفقة الدكتور عبد الرحمن كيالي (سياسي وأديب ماسوني) فقال عبد الرحمن عندما رأى سيدي الشيخ نجيب سراج الدين داخلاً إلى المكتبة: كم في هذا الرأس الذي تحت هذه العمة من تخلف؟ قال خير الدين: قلت في نفسي: آه لو يدري كم يحمل هذا الرأس الذي تحت هذه العمة من علم وفكر؟ وقد قال يوماً لابن عمي الشيخ: إن ابن خالتي

وقد عرفت الجامع بعد التجديد والتوسعة .

تصدى الشيخ للإرشاد فالتف حوله طلاب كثر عمرهم بالعلم والوعظ والمجالس المختلفة المباركة .

أسست بتوجيه منه جمعية النهضة الإسلامية وهي جمعية خيرية

(ويقصد أباه الشيخ نجيب) لهو أستاذي فقد عرض لي إشكال في الفاتحة سألت عنه فلم أحظ بإجابة دقيقة صحيحة وسألت والدك فأجابني إجابة شافية كافية ونرى في هذه المسألة نفس التوجه الفكري لدى الشيخ أحمد الإدلبي الذي تقدم معنا .

ترك خير الدين الأسدي موروثاً ثقافياً نادراً في الأدب الشعبي فله موسوعة حلب المقارنة التي حفظت لهجة مدينة حلب في النصف الأول من القرن العشرين وله ديوان أغاني القبة على أسلوب متصوفة الهنود وكتاب أحياء حلب وأسواقها وكتاب نادر في البلاغة .. ولهذا الرجل عالم يزخر بالنوادر والغرائب والعجائب ما يقتضي حفظها في مجلد وقد فعل ذلك الصديق الأديب عبد الفتاح رواس قلعه جي فأجاد وأفاد ولكن ما يزال في الجعبة الكثير عن هذه الشخصية الفذة التي فارقت دنيانا سنة ١٩٧٠ رحمه الله .

قامت بإعانة الآلاف من الأسر المستورة ووجوه البر المختلفة ثم افتتح مدرسة للعلوم الشرعية في جامع الكلتاوية وقد تم إيقاف نشاط جمعية النهضة في الثمانينات من قبل الحكومة ولا أدري ما هو السبب لكن مدرسة الكلتاوية ظلت قائمة إلى يومنا هذا.

كان يغشى مجالس الشيخ المختلفة عامة الناس وخواصهم وأعني بذلك البعض من العلماء المعروفين.

ذهب الشيخ إلى دمشق والتقى الشيخ محمد الهاشمي وأخذ الطريقة الشاذلية في زمن متقارب مع ذهاب الشيخ عبد القادر عيسى إلى الشيخ محمد الهاشمي.

ظل الشيخ محمد النبهان باذلاً للعلم ومرشداً يدعو إلى الله إلى أن وصل إلى نهاية المطاف وكان ذلك في العقد السابع من القرن العشرين ودفن في غرفته في نفس الجامع رحم الله الشيخ محمد النبهان.

الشيخ عبد القادر الهلالي

عالم فلكي نسابة واسع الطيف في علمه ولقب

الشيخ عبد القادر الهلالي الدرعزيني

العائلة الهلالي وهم معروفون هذا بلقب الدرعزيني وهي النسبة إلى دارة عزة لكن العائلة انحدرت في الأصل من بلاد ما وراء النهر وكان الجد الأول للعائلة هو الشيخ أبو بكر الهلالي دفين الزاوية الهلالية وتنتهي إلى العائلة مشيخة الطريقة القادرية وهي إحدى:

الطُرُق الصُوفيّة

وهي كثيرة ولكن الطرق الأربع الأكثر انتشاراً هي:

الطريقة الرفاعية وتنسب للإمام أحمد الرفاعي دفين أبي عبيدة في العراق.

الطريقة القادرية وتنسب للإمام عبد القادر الجيلاني دفين بغداد الجامع والمقام.

الطريقة البدوية نسبة للإمام أحمد البدوي دفين طنطا في مصر.

الطريقة الدسوقية نسبة لإبراهيم الدسوقي دفين دسوق في مصر.

وهناك طرق أخرى كثيرة وأرباب لهذه الطرق علماء من صلحاء الأمة ولكل واحد منهم أسلوب في تربية تلاميذه وتهذيبهم كل واحد على حسبه علماً وعملاً وأوراداً وسلوكاً وتسليكاً وهو ما يعرف بالطريقة وطرق السادة الصوفية بدأت بالظهور في القرن الثالث الهجري وتناقلها خلف جيل البعض منها طقوساً وظاهر مبينة وقد خرجت معظم الطرق من منهج العلم وبقيت فيها الطقوس فقط وهذا أمر جعل البعض من أهل الطرق يقعون في محظور شرعي من حيث لا يشعرون وهم يقلعون عن أي مخالفة ينبهون عليها فهم أناس صالحون عابدون لكنهم ليسوا علماء أما المجالس التي زمامها بيد العالم فالأمر يختلف وقد كانت الطرق موضع عناية أيام الدولة العثمانية فشيخ الطريقة كانت تأتيه البراءة بذلك من استانبول ومنهم من يذهب إلى هناك لهذه الغاية ولهذا الأمر أسباب منها وأهمها أن الزوايا والتكايا لها أوقاف وشيخ الزاوية غالباً هو المسؤول والمتولي للوقف والواقف عادة يخصص في وقفه لشيخ الزاوية ما يسميه له للعائب ومنها أن شيخ الطريقة له حظوة في العاصمة أما شيخ طريقة ليست له زاوية أو تكية أي لا يوجد وقف في الوسط

وعندما توفي والد الشيخ أراد أخاه (رجائي أو نجاتي) استلام الزاوية ولم تكن عالماً كأخيه الشيخ عبد القادر الذي كان أصغر منه وحصلت مشاحنات ومصادمات من أجل استلام الزاوية وطار الخبر إلى استانبول فاستدعي أخو الشيخ عبد القادر إلى هناك وأعطوه زاوية بقي فيها إلى أنه توفي في استانبول ولهذا مثال حصل ما يشبهه في التكية المولوية التي كان شيخها زوج خالة والدي وتوفي وعنده ثلاث بنات ولم يعقب ذكراً فحصل الخلاف لتولي التكية وفي النتيجة تولاها ابن أخيه محمد مرتضى شاه المولوي وعندما جمعت الأوقاف من أيدي المتولين وانضوت تحت الوزارة ومديرياتها لم يعد في الزوايا والتكايا مطمع.

لقد كانت مدينتي تعج بمجالس الطرق المختلفة وقد انحسر ظل هذه المجالس في أحداث الثمانينات بسبب الحظر على الجوامع بإغلاقها للضرورة وبسبب قلة التجوال ليلاً وفي الحرب الأهلية الآن توقف الأمر حكماً لانقسام الجهات بين المتصارعين حتى في أحياء المدينة الواحدة لكن لابد من عودة البعض منها عندما يأذن الله بالفرج.

قلت حاز الشيخ عبد القادر الهلالي في النتيجة على مشيخة الزاوية

الهلالية التي كانت في الأصل ملكاً للعائلة لكنها مخصصة للأمور الثلاث

١- إقامة الخمس والجمعة

٢- إقامة الذكر القادري حسب أصول الطريقة تماماً.

٣- الخلوة السنوية ومدتها أربعون يوماً.

الخلوة

هي انقطاع للعبادة وابتعاد عن الدنيا في قراءة القرآن والصلاة والأوراد ومجالس العلم ويجلس مريد الخلوة في غرفة صغيرة من الغرف المعدة لذلك في المصلى وهي في المصلى تشغل طابقاً أرضياً في كامل الجهات الثلاث عدا الشمالية والطابق فوقها يشغل كامل الجهات الأربع والغرف خشبية في الطابقين بقياس متر بمتر تقريباً وحسب علمي لم يكن في سورية محافظاً سوى الزاوية الهلالية وفي الخلوة يقدم لهم طعام بسيط ويقام في الزاوية كل يوم مولد شريف وذكر بعد العشاء يحضره أهل الخلوة والوافدون من خارج الزاوية وفي نهاية الخلوة الأربعينية يقام حفل عشاء عام تبدأ بعده الحضرة

ثم يغادر كل إلى بيته.

وقد كان منشد الزاوية الهلالية واسمه (البَشَنْك) لديه حافظة عجيبة للأشغال حيث يقال عنه بأنه ينشد خلوتين أربعينيتين باللازمة وحدها فقط هكذا سمعت من غير واحد نقلاً عن الشيخ عبد القادر حتى قال عنه الشيخ محمد الزرقا الكبير لو أن هذا درس العلم بهذه الذاكرة لكان أعلم أهل زمانه وعندنا زقاق البشنك باسمه وهو الذي يسلكه الذاهب إلى قلعة الشريف من سراية اسماعيل باشا وقيل بأن (سلمو) تلميذ البشنك يمكن أن ينشد خلوة أربعينية واحدة باللازمة وهذا يعني أنه يحفظ آلاف الأشغال.

توقفت الخلوات في الزاوية الهلالية وبقيت لديهم الدعوة إلى الإفطار في رمضان وأما البادنجكية فلا تزال الخلوة موجودة عندهم وقد دعيت إلى حفل الخروج من الخلوة مرات عدة وهم قادرية أخذ الطريقة أجدادهم من الهلالية ولذلك الطريقة فيها خلوة فاسمها القادرية الخلوتية.

كان جدي لوالدي الحاج ملازماً للذكر في الزاوية يوم

الجمعة بعد العصر وأمي أنه يصحبني معه أحياناً وأنا صغير السن فقد توفي جدي رحمه الله ولما أبلغ الثامنة من عمري والزاوية ليست ببعيدة عن حينا فهي في الجلوم أيضاً حيث نسكن وكان والدي وأعمامي أحياناً يترددون إليها وأنا كذلك والبعض من أولاد أعمامي.

لم تكن هناك خصوصية بيني وبين الشيخ فأنا فتى يافع ولعوز الحب من عقده الثامن إلى التاسع وذات يوم مرض الشيخ مرضاً عارضاً أقعده ورأى أنه لن يستطيع القيام بخطبة الجمعة وصلاتها فأرسل إلى جارنا الشيخ محمد رشيد ليخطب بدلاً منه فاعتذر لأنه لديه خطبة وعندئذ قال لي إن الشيخ مريض ويجب أن تقوم أنت بالأمر فقلت هذا واجب تجاه شيخنا وذهبت إلى الزاوية وفي ذهني أن شيخنا قعيد الفراش ففوجئت بجلوسه في الصف الأول أمام المحراب فقلت في نفسي وأنا أقف في آخر القبلية: يا إلهي كيف أقف خطيباً أمام بحر العلم هذا؟ ثم إن الشيخ يجلس في الصف الأول غير متقدم وهذا يعني أنني سأكون إمامه لكن الإمامة أهون فقراءتي ممتازة جداً تجويداً ورتابة لكن هذا الواقع

الآن فلا مفر. تقدمت وأنا خجل وجلست أمام الشيخ وقبلت يده دون أن أتكلم - وهو يعرفني - فقال: تفضل يا بني فنهضت وأنا أصعد المنبر قلت في نفسي الإذن حصل والله المعين. وبعد الخطبة نزلت وتوقفت قبيل المحراب مادا يدي للشيخ بالتقدم للإمامة فأشار لي بأن أتقدم وقد أتم صلاته قاعداً وقد خطبت بحضوره ثلاثة أسابيع حتى أبل من مرضه لهذا السبب كنت أزوره عائداً في أثناء الأسبوع وبعد الذكر آتي إلى البيت مع الخواص لزيارته.

كان الشيخ في شبابه فارساً بارعاً ولشغفه بالخيل كان عالماً بأنسابها ومالكيها في سورية وبعض ما هو خارج سورية وهذا بالنسبة للأصايل طبعاً ويتابع ولاداتها ما استطاع وما أطلق على المولادات من أسماء وما نفق منه أو سن منها ..الخ ولئن كان كذلك بالنسبة للخيل فبالأولى أن يكون نسابة للبشر وقد كان كذلك.

كان اهتمام الشيخ كبيراً جداً بالأشغال كونه شيخ الحضرة وكان يحفظ منها ما يعجز عن حفظه كثير من المنشدين أرباب الصنعة مع درايته بالمقامات وقد حكى لي الشيخ محمد المخللاتي

أنه كان يؤذن أمام باب الجامع - جامع المدرسة - لصلاة المغرب حيث كان يقوم فيه بالأذان والخدمة والإمامة قال فرأيت ابن الشيخ يبادرني بعد الأذان بقوله إن أبي يريدك الآن فقلت سأصلي المغرب وآتي فقال: بل الآن فأوعزت لأحدهم أن يقوم بالإمامة وينتظر عودتي ودخلت إلى البيت مسلماً فقال لي يا شيخ محمد الشغل الفطالي فيه دور شطره الأول كذا فما هو الشطر الثاني؟ فذكرته له فقال: الحمد لله قم بنا نصلي المغرب فلقد كنت أنشد هذا الشغل وأنا قائم للوضوء وغاب شطر البيت عن ذهني فقلت إن مسجدك هو الأقرب إلينا لذلك أرسلت إبني إليك

بمثل هذه المتابعة يحصل العلم ويثبت ولذلك كانت الشيخ يزود المكتبة الأحمدية العامرة التي بناها الجلبي من أكراد ما وراء النهر.

ثم جمع الأوقاف تحت حكم الدائرة الوقفية فسلم الشيخ وقفيات الزاوية وأدخل الزاوية وقفاً وهي ملكية خاصة وكان قوله عندما سئل عن ذلك سيظل من نسلي من يقوم بالطريقة فإذا لم يقوموا أو انقطع النسل ولم يبق ذكر

فلا أقل من أن تبقى الصلوات فيها قائمة .

إن الداخل إلى الزاوية يرى صحنها وقد دفن فيه الشيخ أبو بكر الهلالي جد العائلة وفروعه الذين كان آخرهم وفاة الشيخ عبد القادر الهلالي الدمرنزيني الذي انتقل إلى جوار ربه في سنة ١٩٦٦ يرحم الله الشيخ عبد القادر الهلالي وحفظ الله أولاده الكرام البررة .

تذييل

لئن كنت خطيباً أمام شيخنا الشيخ عبد القادر في الزاوية فإن إنشاد الذكر فيها آل إلى قيادة ابن عمي الشيخ مسعود خياطة وهو من شيوخ الصنعة في سورية وفي رمضان يقوم بإمامة التراويح فيها ابن عمي الحافظ المقرئ الشيخ محمد نادر خياطة حيث يختم القرآن فيها بهذا الشهر كما كان يفعل جده الشيخ نجيب .

ونحن في الحرب الأهلية اعتدى المفسدون على قبور السلالة الهلالية وهدموها وقيل أنهم اعتدوا على الخلوات الخشبية وهو غير مؤكد عندي ولو أردت الذهاب من مكان إقامتي في الجميلية إلى الزاوية لاستغرق طريقي عشرون دقيقة سيراً وبسبب الحرب فإنه يستغرق ١١-١٢ ساعة بالسيارة .

علماء رأيتهم

- **الشيخ حسن حاضري** عالم له محل لتجارة الأقمشة في سوق المدينة أمام سوق الباشا له كتاب أمامه يقرأ الحواشي طوال النهار لا يفتر إلا عند حصول ما يقطع عليه صلته بالكتاب وكان يألف مجالس الشيخ محمد النبهان توفي الشيخ في أواخر الستينات رحمه الله

- **الشيخ كامل سرميني** رجل عالم أراه في جامع البهرمية إماماً ويقضي كثيراً من وقته في غرفته ورأيت أنه له في البهرمية درساً توفي آخر الستينات رحمه الله.

- **الشيخ محمد عثمان** عالم غزير العلم أصله من دير جمال وهو حافظ متقن له إمامة وخطابة وهو صديق والدي وأحد أعضاء درس العلماء لدى الشيخ محمد خليل توفي الشيخ في أوائل الثمانينات رحمه الله.

- **الشيخ محمد غشيم** عالم أراه دائماً في المدرسة الشعبانية وكانت له دروس قليلة في الثانوية الشرعية والشيخ لم يدرسني لكن ابنه الشيخ

عند قيامه مسدية فيه والشيخ له إمامة وخطابة لكن الآن منهم منسيا في أماكنها
توفي الشيخ في سبعينات القرن العشرين .

- **الشيخ حسن مصري** عالم وعلمه بسيط ولكن جارنا لكنه الرجل عابد صالح وكان إماماً في جامع الشيخ شريف في شارع جودة كان كثير التلاوة للقرآن الكريم ولدلائل الخيرات والأوراد وما دخلت داره مرة إلا وأراه منكباً على القراءة فتى دون العاشرة توفي الشيخ في سبعينات القرن العشرين رحمه الله .

- **الشيخ محمد مراد** عالم وحافظ متقن كان إماماً لجامع قارلعه وكان في العشر الأخير من رمضان يختار يوماً من أيام العشر يترك فيه آخر ركعتين من التراويح يضع لهم فيها إماماً ليتم التراويح ثم إنه بعد انتهائهم يصلي هاتين الركعتين بالباقين معه يقرأ في هاتين الركعتين القرآن كاملاً وقد تابعت العشر معه وجاء في ضيوف إفطار فصلينا التراويح في البيت وفي اليوم الثاني ذهبت فعلمت أنهم صلوا ركعتي القرآن البارحة وفي السنة الثانية حصل نفس الأمر وفي السنة الثالثة تكرر الأمر بهذا الشكل فضيوفي كثر

وخاصة في الشهر المبارك وفي رمضان الرابعة جاء إمام جديد للمسجد لأن الشيخ الصالح استأثرت برحمة الله في السبعينات يرحمه الله

- **الشيخ مصطفى مزراب** كان مدرساً في الشعبانية وهو الإمام الثاني لصلاة العصر في جامع باب الحديد وربما حضر دروس سيدي الشيخ عبد الله سراج الدين يوم الجمعة بعد صلاة العصر توفي الشيخ في السبعينات من القرن العشرين يرحمه الله

- **الشيخ محمد المعتدل** عالم وكان مدرساً في الشعبانية رأيته أكثر من مرة فيها توفي الشيخ في أواسط الستينات رحمه الله.

- **الشيخ جلال نابلسي أبو الجدايل** أعرفه صاحب حضرة ذكر قريباً من بيته أمام دار الإفتاء وقد قدم لهذا المسجد الذي كان يقيم فيه حضرة الذكر التي حضرتها أكثر من مرة أتصوره على جانب من العلم ولا أجزم توفي الشيخ في ثمانينات القرن العشرين يرحمه الله

- **الشيخ رضوان نيال** عالم كان إماماً لجامع سوق العطارين بني

وبينه المودة فهو صديقه والدي وجدي رحمهما الله توفي الشيخ في أواخر السبعينات أو أوائل الثمانينات رحمه الله .

- **الشيخ عبد الهادي نيال** ابن عم الشيخ رضوان النيال عالم وإمام للجامع الأموي الكبير توفي في الفترة التي قضى فيها ابن عمه الشيخ رضوان نيال أواخر السبعينات أو أوائل الثمانينات رحمه الله

- **الشيخ عبد القادر الهلالي (الصغير)** هو سليل العائلة الهلالية نفسها وهو ابن عم الشيخ عبد القادر الهلالي وله زاوية تبعد عن زاوية ابن عمه نحو مائة متر وهي في زقاق أبو درجين أمام جامع أبو عبيدة وقد دخلت الزاوية مرات وكنت أرى فيها الشيخ دائماً إذا فتحها لأنها بقيت ملكاً خاصاً فلا تقام فيها صلاة ولا حضرة ورغم أنها قادرية إلا أنها ليس فيها خلوات وقد سمي الشيخ بالصغير لأنه كان أصغر سناً من ابن عمه الذي قدمت الكلام عنه توفي الشيخ عبد القادر الهلالي الصغير في أواسط الخمسينات وأنا ما زلت في سن الطفولة رحمه الله الشيخ عبد القادر الهلالي الصغير .

السلامة من العذر أولى من الصدق به

لكنه لم أسلم منه لذلك أقدمه
بصدقه

- وضعت الأسماء أبجدياً
- لم أتوسع في ذكر حياة علمائنا لأنه الغاية الرشحات الصافية التي هي إضاءات لجوانب مشرقة من حياتهم لا غير
- لم أتوسع في ذكر بعض الأشخاص الذين اقتضى المقام التعريف بهم فقط
- لم أتوسع في ذكر الأماكن فليس موضعها هنا ويمكن الرجوع إليها في كتابي نهر الذهب للغزي وإعلام النبلاء للشيخ الطباخ وتاريخ أحياء حلب وأسواقها للأسدي .
- رب قائل : الرشحات هي الصفاء وهناك ما هو بعيد عن الصفاء فأقول الصفاء نعم وكل واقعة بيضاء أو سوداء تعطينا عظة أو عبرة فالرشحات الاتعاظ والاعتبار وليس الواقعة .
- لم أستطع حجب نفسي كراوٍ فالأمر يفرض نفسه عليّ كشاهد على عصر هؤلاء العلماء الأفاضل وقائماً لحكاياتي مع بعضهم .. الخ

رحم الله علماءنا الأكارم
وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وشرف نبيه

الأماكن

المواضيع المختلفة

تابع المواضيع المختلفة

الأعلام

بدون ال التعريف

حرف الألف

الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف الباء

الأعلام

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

الأعلام

حرف الحاء

حرف الخاء

الأعلام

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

الأعلام

حرف

حرف الزاي

الأعلام

حرف السين

الأعلام

حرف السين

حرف الشين

الأعلام

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف العين

الأعلام

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

الأعلام

حرف الميم

الأعلام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

الأعلام

حرف الهاء

عبد القادر الهلالي ٣٨٩ / ٥٠٧

عبد القادر الهلالي (الصغير) ٥١٩

يوسف الهنادي ١٧٩ / ٢٥١

حرف الياء

عمر يحيى ٣١٣

يوكابد ١٢٧

الفهرس

الفهرس

الفهرس

علماء رأيتهم

الفهرس

تم بهذا التاريخ وأنا في نزوحي الخامس بسبب الحرب الأهلية أسأل الله الفرج.

تقويم الأقصى

٢٠١٤ ميلادي — الأحد — ١٤٣٦ هجري

كانون الأول	صفر
٢١	٢٩

٨ كانون الأول ١٤٢٩ شرقي